

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

تاريخ اليهود في بلاد العرب

في الجاهلية وصدر الإسلام



تأليف الدكتور

اسرائيل ولفنسون

(أوردوب)

استاذ اللغات السامية بدار العلوم



« حقوق الطبع محفوظة »

مطبعة الإعتماذ بشارع حسين الأكبرية

مقدمة

لمحاضرة الأستاذ الكبير والنقادة السهرير الدكتور طه حسين

الدكتور اسرائيل ولغسون عالم شاب يسرني أن أكون أنا مقدمه الى جمهور المستنيرين من الذين يكلفون بالبحث عن الأدب والتاريخ . أقبل الى مصر وأن له ثقافة متينة متنوعة ، قد اتقن من اللغات الأوروبية الحية أرقاها وأمسها بالبحث العلمى التاريخى ولاسيما فيما يتصل بالمسائل الشرقية العربية ، وأتقن من اللغات السامية أغناها بالآثار القيمة فى الدين والأدب والعلم ، ولم تقف ثقافته عند اتقان هذه اللغات بل درس من آدابها حظا وفورا فكان له مزاج متدل من هذا القديم السامى والجديد الأوروبى يعدّه أحسن اعداد لناول المسائل التاريخية والأدبية الزقيقة اذا تهيأت له مناهج البحث كما اتها علماء أوروبا فى هذا العصر الحديث . وماهى الا أن انتسب الى الجامعة المصرية القديمة واختلف الى أسانذتها يسمع دروسهم ويعمل مهم حتى تهيأ له من ذاك ما كان يجب . ولقد كان يختلف الى دروسى فى التاريخ القديم فكان يعجبني منه ميل ظاهر الى البحث وحرص شديد على الاجادة والاتقان ونشاط غريب الى القراءة والاطلاع . وكنت أرى فيه عناية خاصة بكل ما يتصل باليهود فى عصور السيطرة اليونانية والرومانية على العالم القديم . فرأيت أن أوجه بحشه هذه الوجهة وأشجعه على المضى فيها .

ولمست أنسى محاضرات ترميفية القاهها في مثل هذه الموضوعات تركت في نفسي أحسن ما تترك أعماله التبليغ المجد في نفس استاذة من الأثر . ثم ظفر بشهادة اليسانس في الآداب من الجامعة القديمة وأخذ يستعد لشهادة الدكتوراه فلم يرقه من المباحث التي كانت تثار في الجامعة على كثرتها الا هذا المبحث الذي يتصل دائما باليهود وهو تاريخ اليهود في بلاد العرب قبل الاسلام وأبان ظهوره

والموضوع في نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جدا في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمة العربية . فليس من شك في أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز . وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الاسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفي أنها قد استحوطت من المحاجة والمجادلة الى حرب بالسيف انتهت باجلاء اليهود عن البلاد العربية . ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود في بلاد العرب قبل الاسلام معروفا على وجهه ، انما هي طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص في غير تحفظ ولا عناية بالدقة والتحقيق وتكثر فيها المبالغات من الناحية اليهودية والاسلامية لاغراض مختلفة معروفة . وكان المستشرقون قد عرضوا لهذا الموضوع من نواحي مختلفة فوفقوا بعض التوفيق ولكن أخطأهم الأصابة في كثير من الأحيان لأن حظهم من الثقافة العربية السامية لم يكن يعدل حظهم من القدرة على استثمار مناهج البحث الحديث ، فاضطروا الى طائفة من الأغلاط لم يكن منها بد . على أن مباحثهم هذه البقية كانت وما زالت مجهولة في الشرق العربي لا يلم بها الا الذين

يتخذون هذا التصور من العلم غرضاً يسعون إليه ويؤمنون عليه بجهودهم
 فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق الى الخير في هذا الكتاب الذي قدمه
 الى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه والذي أقدمه أنا الآن الى
 القراء سعيديا مقتبلاً فتوفيقه مضاعف ، ذلك لأنه وفق الى تحقيق
 أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، ووفق الى عرض مباحث
 المستشرقين حول هذا الموضوع في اللغة العربية ولم تكن قد عرضت
 من قبل . ووفق بعبارة موجزة الى أن يبسط تاريخ اليهود في البلاد
 العربية قبل الاسلام وأبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً في
 كتاب كانت اللغة العربية في حاجة اليه فأظفرها بهذه الحاجة
 واذا كان لي أن أتمنى للدكتور اسرائيل ولقنسون شيئاً فأنما أتمنى
 له مخلصاً أن يعضى في عنايته بهذه الناحية من حياة اليهود والصلة بينهم
 وبين الأمة العربية بعد الاسلام كما عني بها قبل الاسلام مهتدياً بهدى
 العلم الصحيح الذي لا يعرف مملأة ولا مشايمة ولا يرى للعالم الا
 غرضاً واحداً مقدساً هو السعى الى الحق والجد في الوصول اليه

طه حسين

٢٠ يونيو سنة ١٩٢٧

نصير

ان الذى يدرس تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام ليلس حاجة اللغة العربية الى مؤلف خاص فى تاريخ اليهود الذين لا ينكر أحد ما كان لهم من الأثر فى الجزيرة العربية لذلك العهد، ويعجب كيف حرمت اللغة العربية من مثل هذا المؤلف الى الآن ؟

وأقرب ما يخطر بالبال فى تعليل هذا التقصير هو أن المتأخرين من مؤرخى العرب لم يلموا المما كافياً بتاريخ الجاهلية ، ولولا ذلك لما أغفلوا تاريخ قسم كبير من سكان الجزيرة كان له من الحوادث السياسية والوقائع الحربية والآثار الاجتماعية ما يستوجب أفرادها بطائفة من المؤلفات ، إذ كان الباحث فى تاريخ الجاهلية يتوقف نجاحه على معرفة تاريخ اليهود فى بلاد العرب عامة وفى الاقاليم الحجازية بوجه خاص

وقد يرجع السبب فى هذا التقصير الى جهل المؤرخين بالنتائج العظيمة التى تترتب على معرفة تاريخ اليهود ، ولو أنهم اهتموا به لوجدوا فى المراجع العربية القديمة مادة غزيرة تمكن الباحث المحقق من سد هذا النقص وتعينه على التثبت من تاريخ العرب فى ذلك الحين

ان للبحث في تاريخ يهود الجزيرة العربية أهمية عظيمة في حل المشكلات التي يتخبط فيها كثير من الناس وإمالة اللسان عن لهجات العرب ودياناتهم وعاداتهم لما بين اليهود والعرب من رابطة الدم ولما بين اللغة العبرية واللغة العربية من التشابه والاقتراب

ومع أنه قد وجدت أمم سامية قبل بني اسرائيل بألاف من السنين فان الباحثين يرون في اللغة العبرية وأدائها مقياساً صالحاً للبحث في جميع اللغات السامية ، إذ كان بنو اسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً روحانياً عظيماً في الادب والدين يعتبر اكبر مجموعة قديمة من أثر القرية السامية ، لان الذي وصل اليها من آثار البابليين والاشوريين والآراميين ضئيل جداً بالمقياس الى ما وصل اليها من تراث بني اسرائيل . . .

على أن اللغة العبرية من أممات اللغات السامية ، فقد كانت شائعة قبل نشوء بني اسرائيل وظهورهم في العالم إذ كانت لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة كثير من القبائل في طور سيناء وشرق الاردن ، وكان من أهم تلك الامم بنو أدوم وعمون وموآب وقبائل عماليقية ومديانية واسماعيلية ثم ظهرت بطون بني اسرائيل بين هذه الاقوام في طور سيناء وأطراف الحجاز وانتشرت منها الى الاقاليم الاخرى^(١) وبقيت هذه اللغة صاحبة السلطان والنفوذ مدة طويلة الى أن ظهر تأثير احدى اللهجات الكنعانية وهي الآرامية ، فأخذت اللهجات العبرية والكنعانية الاصلية

The relation between Arabs and Israelites prior to the rise (١)

تضمن حل مع التثبيرات السياسية الى أن أصبحت أغلب بطون فلسطين وسوريا والعراق وطور سيناء تتكلم باللهجات الآرامية ثم أخذت هذه اللهجات في القرون الاولى ب. م. تتدهور تدريجياً في أطراف الجزيرة العربية، وأخذت تنكش وتضاعل أمام اللغة العربية التي كانت في ذلك الحين تمتد وتنتشر بسرعة حتى اضطرت بعض القبائل الآرامية والعبرية الى أن تختلط بالعنصر العربي الاصلى وتندمج فيه شيئاً فشيئاً^(١)

وقد كنت فكرت في أن أخص أقوام طور سيناء ببحث منفرد أكتشف فيه بعض ما غمض من أحوالهم معتمداً على بعض الاخبار التي وصلت إلينا من مراجع عبرية ويونانية قديمة، وعلى بعض الاكتشافات القليلة التي ظهرت حديثاً عن هذه الاقوام البائدة ولكني رأيت أن في هذا خروجاً عن الموضوع الذي نحن بصدده، فأجلت هذا البحث الى فرصة أخرى...

على أن سكان طور سيناء وأطراف الجزيرة العربية من جهة الشمال الذين تعتبر بلادهم كمنطقة طيمنية بين بلاد العرب وبين فلسطين موطن بني اسرائيل، قد أثروا تأثيراً شديداً في العرب وبني اسرائيل معاً، فليس في استطاعتنا والحالة هذه أن نوفي موضوعاتنا حقها من البيان والتفصيل إلا بعد النظر الطويل والبحث العميق في تاريخ تلك الامم وحاجتنا الى هذا الموضوع في بحثنا هذا كحاجة الباحث في تاريخ

(١) راجع مقالنا عن لغة الآرامية ولهجاتها المنشور في السياسة الاسبوعية بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٢٦

روما القديم الى الامام تاريخ بطون وقبائل لاتينية ويونانية قديمة
عاشت في بلاد ايطاليا قبل نشوء مدينة روما

لقد صرح لي غير واحد من الاصدقاء بانهم يوجسون خيفة من
ثوران عواطف بعض الاندية من المسلمين واليهود من جراء التعرض
لموضوع الخلاف الذي نشأ بين الرسل ويهود يثرب ، وأن ميلنا الى
احدى الفئتين قد يكون سبباً في اثاره سخط الطائفة الاخرى
لكننا نعتقد أن رسالتنا موجهة الى طائفة المفكرين الذين
لا ينشرون دعوة خاصة في كتاباتهم ، بل يقصدون دائماً الى البحث المجرد
عن العواطف القومية والدينية

وما من أحد ينظر بامعان وانصاف الى حوادث اليهود والانصار
في يثرب دون أن تمنى نفسه بشعور الاجلال للفئتين ، لأن النضال
العنيف الذي وقع بينهما قد برهن على أن هذا النزاع كان من الأمور
المقدرة في حسابان كل من تتبع الحوادث التي وقعت في المدينة بعد أن
هاجر اليها الرسول ، فقد كانت الضرورة الطبيعية لنجاح مشروعات
المسلمين تقضى حتماً بوقوع العراك الشديد بين الطرفين

ومن أجل ذلك فقد تغيرت الحالة تمييزاً جوهرياً بعد أن انتهت
الخصومة السياسية بين الرسول وبطون يثرب ، حتى شرع اليهود ينظرون
بعيون الاحبار والاحترام الى جيوش المسلمين التي كانت تنمر كالسيل
أقطار العالم ونواحيه ، وكانت هذه الجيوش قد قضت على سلطة الدولة
الرومية في أقاليمها القصية والدانية ، تلك الدولة التي ملأت تاريخها

بجواذب الظلم والسف واهراق الدماء مدة طويلة من الزمان .
وقد كان اليهود في أغلب مدن العراق يخرجون لاستقبال جيوش
المسلمين بالحفاوة والاكرام لانهم كانوا يؤثرونهم على غيرهم إذ يرون
فيهم قوماً يؤمنون بالله موسى و ابراهيم
ولقد ازدادت هذه الروابط متانة مع امتداد الزمن حتى دخل
اليهود في جيوش المسلمين ليناضلوا معهم في اقاليم الاندلس
وينبغي ألا يغيب عن البال أن الخسارة القليلة التي لحقت يهود
بلاد الحجاز ضئيلة بالقياس الى الفائدة التي اكتسبها العنصر اليهودي من
ظهور الاسلام ، فقد انقذ الفاتحون المسلمون آلافاً من اليهود كانوا
منتشرين في اقاليم الدولة الرومية ، وكانوا يقاسون ألواناً شتى من العذاب
زد على هذا أن اتصال اليهود بالمسلمين في الاقاليم الاسلامية كان
سبباً في نهضة فكرية عظيمة عند اليهود بقيت آثارها في تاريخ الآداب
العربية والعبرية زمناً طويلاً . . .

ويجمل بنا أن نلفت الانظار الى أننا نسبنا كل ما لم يكن من رأينا
سواء كان كبيراً أو صغيراً الى صاحبه وذلك قد يتطلب في أغلب الظروف
جهداً غير قليل

أما الآراء التي لم نسبها لغيرنا فهي بطبيعة الحال جديدة وبمضها
عرضة للنقد والشك ونعتقد أنه لو رجحت صحتها لكان ذلك لنا مكافأة
عظيمة يرتاح لها الضمير ويطمئن اليها الخاطر

ولا يسفى بمد هذا الا أن أرفع خالص الشكر للقائين بأمر الجامعة
المصرية وأسألتها الأجله

وبهذه المناسبة أقدم تمنياتى الطيبة وعاطر ثنائى لحضرة الاستاذ
العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار الذى أسدى الى الكثير من
النصح والارشاد

أما رجل اليوم أستاذى الدكتور طه حسين الذى تفضل وقبل
الاشراف على رسالتى وبذل الكثير من وقته الثمين فى قراءتها فالى نبوغه
النادر المثال فى النقد يرجع الفضل فى هدايتى الى بعض دقائق هذا البحث
الذى أرجو أن يظفر برضاء القراء الكرام والسلام

اسرائيل ولفسونه
(ابو ذؤب)

٢٤ يونيه سنة ١٩٢٧

نقدم جزيل الشكر الى لجنة التأليف والترجمة والنشر التى كلفت
نفسها مؤنة الاتقاف على طبع كتابنا هذا ، وليس ذلك بغريب من هيئة
اللجنة التى جعلت ديدنها العناية والاهتمام بنشر العلوم والمصنفات

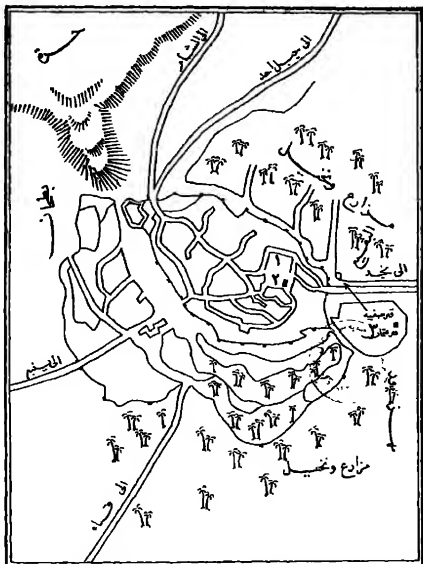
المؤلف

٢٥ يونيو سنة ١٩٢٧

المَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ (يَثْرِبُ)

مقاس الرسم ۱ : ۱۲,۵۰۰

ملحوظات : (١) الجامع الكبير (٢) قبة النبي (٣) جبال



الباب الأول

اليهود في بلاد الحجاز

تقسم تاريخ بني اسرائيل في بلاد العرب الى طودين — مراجع البحث في الطود الاول — الموحدون للاله وعبدت الاصنام من بني اسرائيل في العهد القديم — أول هجرة اسرائيلية الى بلاد العرب — النسب التاريخي — رأى بعض المستشرقين فيه — رأى المؤلف في هذه الهجرة — رأى قداماء مؤرخي العرب عن وجود قبائل اسرائيلية ماثلة في الجزيرة العربية — مصحف العهد القديم وحوادث بني اسرائيل في الجزيرة العربية قديماً — مهاجرة بطون يهودية من أوطانها الى الجزيرة في الطود الثاني — أسبابها — أشهر البطون اليهودية في بلاد العرب — نزولها في مواطن اليهود القدماء — انتشار الحركة الزراعية والتجارية والصناعية في الحجاز — نشاط اليهود — الفرق بين الطودين في الاستعمار — سكوت المراجع اليهودية عن تاريخ بني اسرائيل في الجزيرة العربية — شكوك مؤرخي الافرنج في كثير مما ذكر مؤرخو العرب عن يهود الجزيرة — هل كان يهود الجزيرة من الوحة الدينية مثل أبناء حلبهم ؟ — اعتناق بطون عربية للديانة اليهودية — بحث في أساء القبائل اليهودية — رأى البيهقي — رأى المؤلف — حصون وأطام اليهود في بلاد العرب — أسماؤها العربية والسرية — المواد التي كان لليهود يتجرون فيها — شيوع الرأيا عند اليهود والعرب — صناعة الصياغة عند يهود يثرب — سوق بني قينقاع — الدوائر الزراعية اليهودية في الحجاز — لمة اليهود في بلاد العرب — الرطاة اليهودية — الاحبار — القضاء عند يهود المحار — قلة اليهود — الصلاة — الصيام — تحلق اليهود ماخلاق العرب — منزلة الشعر العربي عند اليهود — رأى الاستاذ الدكتور طه حسين في أثر لليهود الادنى في الجزيرة — رأى المؤلف في شعر اليهود للذعة الشعرية عند اليهود والعرب — كيف احتفظ شعر اليهود — السموءل بن طاديه — آراء مؤرخي العرب فيه — الاب شيهو وديوان السموءل — تحليل شعر السموءل — أهم قصائد السموءل — كتب بن الانثرف — حياته وأشعاره — اشتراك القضاء في الهجة الشعرية

رأيت أن أقسم تاريخ بني اسرائيل في بلاد العرب الى طودين أساسيين الطود الأول يشمل حوادث لبطون إسرائيلية ماثلة في بلاد العرب والطود الثاني يتناول أخباراً لمجوع من اليهود كان لها شأن عظيم في تاريخ الجزيرة العربية

ويقف آخر الطور الأول عنده نهاية القرن الخامس قبل الميلاد أما الطور الثاني فينتهي بإجلاء عمر بن الخطاب آخر الطوائف اليهودية من الجزيرة العربية

وهذا التقسيم هو الشائع عند العلماء الذين كتبوا في تاريخ بني اسرائيل بوجه عام . ولستكلم أولاً عن الطور الأول بقدره . امكتنا المصادر التاريخية التي استقيناها منها معلوماتنا عن هذا الطور فانها مراجع قليلة تصطر الباحث الى بذل مجهود كبير حتى يستطيع أن يلقى شعاعاً من السور يخفف به من وطأة ظلامه الدامس

كل بنو اسرائيل في هذا الطور الأول يعبدون الله مع تقدسهم لبعض الأصنام على حين كانت طائفة منهم تعبد الله وحده مخلصين له الدين وهي طائفة الكهنة والأنبياء وبعض الطبقات من الاشراف والملوك والنقباء الذين آمنوا برسالة موسى واتبعوا شريعته^(١)

وكان الموحدون للآله في بدء الأمر قليلين ولكنهم أخذوا يكثرُونَ شيئاً فشيئاً على مرور الزمن ونوال العصور حتى تأثرت العقيدة اليهودية بالشريعة الموسوية ونضجت لها أفكار اليهود وامتلأت بها قلوبهم وكان ذلك في بدء الطور الثاني بعد رجوع اليهود من السبي البابلي سنة ٥٣٨ ق . م .

ومن حيث أن المرجع الوحيد الذي يمكننا أن نستقي منه أخبار بني اسرائيل الى القرن الخامس ق . م انما هو كتاب العهد القديم فانه يجدر بنا أن نبحث فيه لنقف منه على حوادث الطوائف الاسرائيلية التي سكنت بلاد العرب

نجدنا مصحف « أخبار الايام » عن أول هجرة مشهورة في تاريخ بني اسرائيل الى بلاد العرب أن بطون بني شمعون سارت الى أرض طورسينا مع ماشيتها لتبحث لها عن مرعى لى أن وصلت أرض قبائل عمان فاشتبكت معها في قتال عنيف

(١) راجع كتاب المؤرخ Klausner الدكتور د. يسرائيليت - ١ ص ٨ وكتاب

العالم سمحوني د. ي. يسرائيليت - ١ ص ٣٠

اتنحى بنو بطون شمعون وبنو قحطان من البطون المانية شذر مندر^(١)
ومع ما لهذه الرواية من عظم القيمة في بحثنا قاننا نرى فيها عوضاً وإيهاماً
إذ لا نستطيع أن نعلم منها متى نزحت بطون بني شمعون الى جزيرة العرب
غير أن العالم حوزى يحاول في مصنعه عن بني اسرائيل في مكة^(٢) أن يثبت
أن الهجرة الشمعونية حدثت قبيل عصر الملك داود حوالي عام ١٠٠٠ ق م في
حين يارضيه المستشرق مرجوليوث في كتابه عن علاقة العرب بالبطون
الاسرائيلية قبل ظهور الاسلام^(٣) ويقرر أنها لم تحصل الا في عصر الملك حزقياه
الذي حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧-٦٩٠ ق م
وأما بعض المحدثين من العلماء والذين لا يريدون أن يخوضوا غمار المناقشة
مع هذين العالمين فلم ينعرضوا لما قالاه بنى أو إثبات ولكنهم يرون أنه لا يمكن
التعويل على هذه الرواية المنقولة من الكتاب المقدس لقلة النصوص التاريخية
القاطعة عن وجود بني شمعون حتى أن الذى يتلو مصحف العهد القديم لا يجد شيئاً
عن قبيلة شمعون في تاريخ بني اسرائيل سوى رواية تدل على اشتراكها مع
بطون بني يهوذا في فتح فلسطين^(٤) وسوى ما جاء عن نزوحها من الديار
الاسرائيلية

مثل هذه القول القليلة دفعت هؤلاء المحدثين من المستشرقين الى أن
يشكروا في أن تكون قبيلة شمعون هذه كان لها وجود في عالم الحقيقة^(٥)
ولكننا نرى أن انكار وجود قبيلة شمعون أمر غير ميسور وقد كان لها ١٢

(١) أخبار الالام صل ٤ آية ٣٨-٤٣

(٢) Dozy : Die Israeliten zu Mekka ٩٨ — ٤٠ م

(٣) Margolioth : The relation between Arabs and Israelites

• ١ prior to the rise of Islam

(٤) قصص فصل ١ آية ٣

(٥) Burney : Israel's settlement in Canaan م ٣٧ — ٥٨

مدينة في جنوب فلسطين دخلت في حوزتها بعد استيلاء يوشع بن نون على
البلدان الكنعانية وأقامت فيها مدة طويلة (١)

على أن لدينا ملاحظة على الرواية المنقولة من كتاب أخبار الأيام عن هجرة
بنى شمعون طلباً للمرجى فقط وهي أننا نستبعد كل الاستبعاد أن تنزع جميع بطون
شمعون من فلسطين تاركة منها وثررتها مرة واحدة وفي وقت واحد إلى بلاد
أخرى ليست أخصب من بلادهم بدرجة كبيرة بل ليست هناك فوارق طبيعية
بين البلاد وقد تكون البلاد التي تقول الرواية إنها ساروا إليها طلباً للمرجى أشد
اجداً من بلادهم التي رحلوا عنها ثم لا يعودون إلى موطنهم الذي منه نشأوا وفيه
عاشوا على كر الزمن ومرور الأيام

معقول أن نزعج سنو المحل والقطع الناس عن مواطنهم وتضطربهم إلى أن يرحلوا
عنها ليجدوا ما يفتنون به ولكنهم لا يرحلون عن بلادهم جملة واحدة ولا يقصدون
جهة معينة وهم مجتمعون بل يتفرقون هنا وهناك وتقصد كل فئة ناحية من النواحي
المحيطة والقريبة منها ليأخذوا ما يستطيعون الحصول عليه من أسباب العيش ثم
لا يلبثون أن يعودوا إلى بلادهم وموطنهم ليستأنفوا فيه الحياة المهادنة الوداعة
أما أن يخرجوا من بلادهم جملة واحدة ويقصدوا جهة معينة وهم جماعة ولا
يعودوا إلى بلادهم مطلقاً فهذا لا يكاد يوجد في تاريخ بني إسرائيل

ولو أغضينا النظر عن كل هذه الاعتبارات وفرضنا صحة هذه الرواية
وصدقنا أن هذه الهجرة قد وقعت كما يصورها لنا النص المنقول من سفر أخبار
الأيام فانتا نفتقد أن تكون قد حدثت في زمن قديم جداً في القرن الثاني عشر
ق . م . على أقل تقدير إذ لم يكن بنو إسرائيل قد عرفوا بعد تدوين الحوادث
التي تقع لهم في صحف ، أي أنها حدثت في زمن غير بعيد من عهد الاحتلال
الإسرائيلي للبلاد

(١) كتاب يوشع بن نون فصل ١٩ آية ١ - ٩ وصحف الاخبار ج ١ فصل ٤ آية ٢٨

وكما أن حوادث الفتح لم تصل إلينا واضحة وأقية كذلك وصلتنا أخبارهم في روايات غامضة وذلك لأن بني إسرائيل بعد توغلبهم في فلسطين بقوا زمنا غير قليل محتفظين بصفات وميزات سكان الصحارى في أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ونفوسهم من كل أنواع التغيير والتجديد

وقد مضت عليهم قرون عدة وهم في همجيتهم الاولى حتى دار الزمن دورته وأخذت الاحوال الاجتماعية والادبية تتبدل وتتحول الى أن ظهر عند الشعراء والمفكرين ميل شديد الى تدوين أخبار المصور الماضية وذكر أيام القبائل الاسرائيلية وبيان أوطانها التي نزحت عنها والظروف التي دعت الى تركها وكلن غرضهم من ذلك أن يحافظوا على أنسابهم وأن يشيدوا بما كان لهم من مجد وسؤدد أما فيما يتعلق ببلاد وقبائل معان فإن المستشرقين قد اتفقوا على أنها قد سكنت بين جهات يثرب ومكة ويعتمدون في ذلك على أقوال الجغرافى سترابو الذى جاء باسماء دول الجزيرة العربية مرتبة على هذا المنوال :

قبائل معان وعاصمتها قرنا

قبائل سا وعاصمتها مارب

دولة نمنا وكانت في جهات باب المنعب

مملكة حضرموت وعاصمتها سبوة

ويتضح من وصف بلينوس (Plinius) لاهل معان أنهم كانوا على جانب عظيم من القوة والبطش وكثرة العدد ووفرة المال^(١) ويسرد لنا العالم جلازر (Glaser) في كتابه الذى صنفه عن بلدان الجزيرة العربية حوادث كثيرة لبطون معان وعلاقتها مع أمم فلسطين وأساس بحثه قائم على منقوشات قديمة عثر عليها في جهات مختلفة من تلك الاصقاع^(٢)

(١) دوزى ص ٦٦ - ٦٨ مرجليوث ص ٥١

Glaser : Skizzen und Gleschichte Arabiens bis (٢)

Moh Glaser . Sammlung

وتذكر لنا صحف العهد القديم من أخبار بني اسرائيل عدا هذه الهجرة أن بلاد طور سيناء وشمال الجزيرة بوجه عام كانت ملجأ يقصد اليه كثير من بني اسرائيل الذين كانوا يفرون من وجه الملوك والحكام الظالمين^(١) ثم في عهد الملك بختنصر فانه حين غزا اورشليم قصدت جموع من اليهود ارض الجزيرة^(٢) ولم تغفل المصادر العربية الاشارة الى أن قبائل اسرائيلية كانت تسكن بلاد العرب منذ زمن قديم جداً فقد قال صاحب الاغانى « كان ساكو المدينة في أول الدهر قبل بني اسرائيل قوماً من الامم الماضية يقال لهم العاليق وكان ملك الحجاز منهم قد تفرقوا في البلاد وكانوا أهل غزو وبني تنديد وكان ملك الحجاز منهم يقال له الارقم ينزل ما بين تباه الى فدك وكانوا قد ملأوا المدينة ولم بها نخل كثير وزرع وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود الى الجبابة من أهل القرى يفرونهم فبعث موسى الى العاليق جيشاً من بني اسرائيل وأمرهم أن يقتلهم جميعاً اذا ظهروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحداً فقدم الجيش الحجار فأظهروا الله على العاليق فقتلهم أجمعين إلا ابناً للارقم كان وضيئاً جميلاً فصنوا به على القتل وقتلوا نذهب به الى موسى فيرى فيه رأيه فرجعوا الى الشام فوجدوا موسى قد توفي فقالت لهم بنو اسرائيل ما صنعتم فقالوا أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير غلام كان شاباً جميلاً فنفسا به عن القتل وقتلنا نأى به موسى فيرى فيه رأيه فقالوا لهم هذه معصية قد أمرتم ألا تستبقوا منهم وأن لا تدخلوا عليها الشام أبداً فلما صنعوا ذلك قالوا ما كان حيراً لنا من منارل القوم الذين قتلناهم بالحجار نرجع اليها فنقيم بها فرحموا على حاليتهم حتى قدموا المدينة فزولها وكان ذلك الجيش أول سكي اليهود للمدينة^(٣)

(١) ملوك ١ - فصل ١٩

(٢) أرميا فصل ٤٠ آية ١١

(٣) الاغانى جزء ١١ ص ٩٤ (ان مؤرخى العرب لم تكن لديهم كتب لتقدمهم فدك

ويضيف ابن خلدون الى هذه الرواية أنه يشك في صحتها لأنها لم توجد عند اليهود ولأن اليهود لا يعرفون هذه القصة (١)

ثم يحدثنا ابن خلدون أن داود لما خلع بنو إسرائيل طاعته وخرجوا عليه فر مع سبط يهوذا الى خيبر وملك ابنه الشام وأقام بخيبر الى أن قتل ابنه وعاد الى وطنه فيظهر من هذا أن عمرانه كان متصلاً بينرب ويجاوزها الى خيبر (٢)

غير أننا نرى أنه لا يمكن التمويل على أقاصيص من هذا النوع سردها المراجع العربية على أنها أساطير سائنة وروايات غير جديرة بالاعتداد عليها وإذا لم يكن مؤرخو العرب قد استطاعوا أن يصلوا الى أخبار ثابتة موثوق بها عن بني النضير وقرينة ومتى كان ظهورهم في بلاد العرب فكيف يستطيعون أن يصلوا الى أخبار حقيقية عن طوائف إسرائيلية قديمة بادت واندثرت من قبل أن يوجد بنو النضير وقرينة ؟ ...

كذلك لا يمكننا أن نطمئن الى الاخبار القليلة التي نصت عليها بطريقة غير مساترة صحف العهد القديم عن وصول جموع إسرائيلية الى الجزيرة العربية ولا نستطيع أن تثبت هذه الأخبار انشأناً حقيقياً

وإنما الذي يمكننا أن نقوله على مبدل الظن اعتماداً على هذه الأخبار هو أن القدماء قد اعتقدوا أنه قد وجدت في جهات يثرب وخيبر بطون إسرائيلية قبل وصول جموع اليهود الى الأصقاع العربية في الدور الثاني

ويؤيد هذه النظرية ما نجده في كتاب العهد القديم من النص على وجود علاقة

وهم اما يسلون على ما رأوا في سفر العدد من حروب بني إسرائيل والمديين والاموريين وغيرهم ويتوسعون في ذلك الى أرض الحجاز ويريدون على ما عهد الاسرائيليين بنير سلطان أتايم (رأى الاستاذ الشيخ النجار)

(١) تاريخ ابن خلدون جزء ٢ ص ٨٨

(٢) تاريخ ابن خلدون جزء ٢ ص ١٨٦ اما رواية ابن خلدون أن داود ذهب الى خيبر فلا يوجد ما يصبغها وداود لم يهاجر محاييم

مدينة بين بلاد فلسطين وبلاد الجزيرة العربية .
كانت فلسطين بمثابة القنطرة التي تربط بلاد العرب وسورية من جهة ومصر
والعراق من جهة أخرى وكانت القوافل العربية تأتي من بلادها الى أسواق مدن
بني اسرائيل وكنعان^(١) وكان تجار اليهود يرحلون الى مباد في عهد سليمان وبعده^(٢)
كذلك نعلم ان بعض ملوك بني اسرائيل انتصروا انتصارات باهرة على
قبائل عربية وعائلة غزوها وانهم واصلوا غزواتهم حتى وصلوا الى أرض الجزيرة^(٣)
ونعلم أيضاً ان مدينة العقبة (ايلة) كانت في عصر من العصور مستعمرة
يهودية^(٤) والخلاصة ان عناصر اسرائيلية يظن انها قد هاجرت من ديارها الى
الاقليم العربية في عصور مختلفة ولاسباب شتى غير انها ماتت كما ماتت قبائل
عربية كثيرة ولم يبق من آثارها سوى اسمها

وقد حاول بعض المستشرقين ان يجدوا علاقة بين حوادث وقعت لقبائل
عربية بائدة من جرم وغيرها وبين اخبار رويت عن بطون اسرائيلية قديمة كانت
في الجزيرة العربية^(٥) ولولا قبح الاعتماد على الخدس والتخمين لتابعت من كتب
في هذا الباب من المستشرقين ولكي أوتر الاحتياط وافضل الاكتفاء بهذا المقدار
لا تنقل الى الكلام عن طور اليهود الثاني في بلاد العرب

أخذت جموع كثيرة من اليهود في القرن الاول والثاني بعد الميلاد تهاجر الى
الأرجاء العربية عموماً وإلى الزبوع الحجازية بسوء خاص ولا شك انه كانت
هناك أسباب دعت هذه الجموع الى ترك أوطانها والزوح منها الى البلاد
العربية ويمكننا ان نلخص هذه الأسباب فيما يأتي :

- (١) حزقياء فصل ٢٧ آية ٢١
- (٢) ملوك جرم ١ فصل ٩ آية ٢٦
- (٣) صموئيل ٤ حز- ١ فصل ١٥ وأخبار الالام جز- ٢ فصل ٢٦ آية ٧
- (٤) ملوك جرم ١ فصل ٩ آية ٢٦ ملوك جزء ٢ فصل ٢٦ آية ٢
- (٥) دوري ص ٩٤—١٩٥

(١) زيادة عدد اليهود في فلسطين، وزيادة مطردة، جعلت البلاد يتشبع من أن تسعهم وتنفس لهم في سبيل الحياة وقد بلغ عددهم في ذلك الحين أكثر من أربعة ملايين نسمة وهو عدد كبير لا تتسع له بلاد ضيقة كفلسطين فاضطروا بحكم هذه الزيادة المستمرة والنمو المطرد أن يهاجروا إلى ما حولهم من البلاد المجاورة لهم كعصر والعراق والجزيرة العربية (١).

(ب) حدث حوالي القرن الأول ق. م أن هاجمت الدولة الرومانية بلاد فلسطين وقوضت أركان الدولة اليهودية المستقلة فيها وأخضعتها لسلطان النسر الروماني الذي قبض على زمام الحكم بيد من حديد ولصكن النفور والاستياء في نفوس اليهود كل تشديدا إلى حد أن الثروات العينية كانت تشتعل نيرانها من حين إلى آخر وكان الرومان يجمعون تلك الثروات بشدة وقسوة تزيد النفور وتضاعف الاستياء فاضطر من لم يكن يستطيع البقاء في البلاد مع هذه الأحوال القاسية أن يلجأ إلى أرض الجزيرة العربية التي كانت أحب إليهم من غيرها نظرا لانظمتها البدوية الحرة ونظرا لوجودها في أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوافل الرومانية المنظمة وتمنع توغلها

(ج) بعد حرب اليهود والرومان (٧٠ ب. م) التي انتهت بمخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود في أصقاع العالم قصعت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب للرايا التي ذكرناها كما يحدثنا بذلك المؤرخ اليهودي يوسف الذي شهد تلك الحروب وكان قائدا لبعض وحداتها

و تؤيد انصادر العربيه كل هذا فقد ذكر صاحب الاغانى انه لما ظهرت الروم على بى اسرائيل جميعا بالنام فوطئوهم وقتلوهم وبكحوهم نساءم خرج بىو البضير وبنو قريظة وبنو بهدل هار بن مسم الى من بالحجار من بى اسرائيل لما غلستهم الروم على الشام فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم في طلبهم

ليردم فأعجزوه وكان ما بين الشام والحجاز مغاور وصحارى لا نبات فيها ولا ماء فلما طلب الروم الثمر انقطعت أعناقهم عطشا فساتوا وصحى الموضع ثمر الروم فهو اسمه الى اليوم^(١)

وتتلخص آراء بقية مؤرخى العرب فى أن جموع اليهود فى الجزيرة العربية قد زادت وكثرت بعد اضطهادات الرومان لليهود وقد يجوز أن تكون هذه الروايات اتصلت بالعرب من يهود يثرب وخيبر

وإذا صح ما رويناها سابقاً عن تاريخ اليهود فى الجزيرة العربية فى الدور الاول كان مؤيداً للرأى الذى يقول إن المهاجرين فى الدور الثانى قد توجهوا فى بادى أمرهم الى الجهات التى كانت مسكونة بطوائف إسرائيلية من زمن قديم ولقد كان لليهود الى عصور الدور الثانى بصع مستعمرات صغيرة فصارت بعد ذلك الحين كبيرة وكثيرة وظهرت مدن وقرى جديدة وآطام وحصون على رؤوس الجبال وانتشرت الحركة الزراعية فى الاراضى التى كانت منذ ألوف من السنين قاحلة ماحلة لان اليهود كانوا يشتغلون فى موطنهم الاصلى بالزراعة قبل كل شئ وكانت فلسطين غنية بحاصلات القمح والشعير والزيتون والتمر والعنب وكانت تصدر كثيراً من تلك الحاصلات الى جهات مختلفة منذ عصور قديمة

وكذلك انتشرت الحركة الصناعية والتجارية وانشئت أسواق عديدة يهودية ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن الاستعمار الجديد لم يقم على حد الظن ولم يؤد الى طرد قبائل عربية أصلية من موطنها كما حلت فى الدور الاول الذى استأصل فيه الفانحون من بني إسرائيل ثقافة بطون معينة وغيرها وانما الذى حدث فى الطور الثانى أن ضيقاً مصطرياً نزلوا على انشاء جلدتهم فاستقلهم هؤلاء بالحفاوة والرحيب اذ كانوا يعلمون أنهم فارون من محالب السر الرومانى وسهل الامتراج بين هؤلاء وهؤلاء بحكم القريرة الجنسية والعاطفة الدينيه وتعاون الجميع

على العمل في سبيل الحياة فتجسروا وأثروا. وكان لهم في بلاد الغرب شأن عظيم ويجب ألا يغيب عن البال أن جهات يثرب ووادي القرى كانت غير أهلة بكثير من العرب بل كانت جموع منهم تأتي إلى ودياتها في أوقات معينة من السنة كقوافل راحلة مع إبلها لتأكل من أعشابها ثم ترح عنها إلى جهات أخرى وبطبيعة الحال كان لليهود في دورهم الثاني بالجزيرة حوادث تاريخية ذات شأن بحكم عوامل التعبير والاقبال وبحكم اختلاف الامزجة وتعارض الاهواء وتضارب المصالح فقد كان عددهم كبيراً بحيث يمكن اعتبارهم أمة قائمة بذاتها يصيبها من ضرورات الاجتماع ما يصيب غيرها ويحدث بينها وبين جيرانها العرب ما يحدث بين أية أمة أخرى وبين من يجاورها من الأمم ومع هذا فإنا نجد المصادر الاسرائيلية خالية من ذكر شيء عن تاريخ اليهود في ذلك الدور وساكنة عن التحدث عنهم سكوتاً تاماً كأن لم يكن هناك يهود وكان لم تحدث لهم حوادث وكان هذا السكوت موضع العجب عند الباحثين إذ هم يعلمون أن الامة الاسرائيلية كانت كثيرة التدوين في كل عصورها مفرمة بجميع حوادثها وأخبارها في كل البلاد التي نزلت بها جموع منها

وها هي مراجع عبرية غير قليلة عن حياة اليهود في بلاد العراق والفرس ومصر واليونان والرومان نجد فيها كل ما نتطلع إليه من اخبار اليهود في تلك البلاد في حين لا نكاد نجد مؤلفات عبرية عن يهود العرب الا شيئاً ضئيلاً جداً لا يتجاوز بضعة نصوص اندمجت في بعض الكتب اندماحاً عرضياً غير مقصود ولا شك ان هذا مما يضاعف عناء الباحث ويسد في وجهه سبل الكشف عن نواحي الحياة عند يهود الجزيرة العربية

ولكننا نستطيع أن نستنتج من هذه الناحية نفسها نتيجة ذات شأن وهي أن سكوت المراجع الاسرائيلية عن سرد حوادث اليهود في الجزيرة العربية يدل دلالة قاطعة على أن اليهود في بلاد العرب كانوا منقطعين تمام الاقطاع عن بقية

أبناء جنبهم في جهات العالم ولم تكن لهم بهم أية صلة وكان الجزيرة التي انفردت بقياتها واقطعت عن العالم المتمدن انقطاعاً كلياً قصت على كل من يسكنها من اليهود ان يكون مثل أبنائها وان يقطع كل علاقة بينه وبين يهود البلدان الأخرى وبما لا شك فيه أن الصفات المدنية التي كانت لليهود قد زالت منهم بعد استيطانهم بلاد العرب الصحراوية البعيدة عن كل حركة عمرانية وضعت فيهم تلك الوراثة الروحانية التي حملوها معهم الى كل بلد نزحوا اليه وأخفوا ينزلون من أوج المدنية والحضارة شيئاً فشيئاً حتى وقصوا في هوة المهجية وصاروا مثل غيرهم من سكان تلك الجزيرة المنعزلين عن جميع العالم والمكتفين بأبسط أنواع الحياة وان أمة تغفل تدوين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قرائنها لتورثها خلفها لا يلة حتماً الى أخط أنواع المهجية مهما كانت درجتها في الحضارة والعمران^(١)

لم يظهر شيء من النبوغ والعبقرية في يهود بلاد العرب مطلقاً ولم تشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكرى وإن كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب الى المدنية من بقية العرب هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخى العرب وعلماء الافرنج ولكن يظهر أن البيئة الجديدة شلت قوى اليهود الروحانية فتغلبت عليهم العقلية البدوية حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفسياتهم

وكما نرجع الى المصادر العربية في أثناء بحثنا عن حياة العرب في الجاهلية كذلك نستمد منها أخبار اليهود في تلك العصور
وإذا كلت تاريخ القائل العربية فيها قد وجد مشوهاً تشويهاً غير قليل

(١) على أن هذا لم يعم احتساب وجود كس في التاريخ والدين دوسا اليهودى بلاد الحطار ولكنها ضاعت في عصر الخروب التي حدثت بين اليهود والمسلمين في المدينة

فيكتبك أخبار اليهود فيها تشتمل على مبالغاة كثيرة لا يمكن أن يعتمد عليها المؤرخ المحقق

ولا ريب أن كل أمة تكتب تاريخها كما تحب وتهوى لا كما تريد الحقيقة المجردة عن كل غرض فهي تجتهد في أن تصور الوقائع والحوادث التي تقع بينها وبين أية أمة أخرى بالصورة التي تظهرها كأنها أمة قد اجتمعت فيها كل المزايا والصفات المحمودة في حين تصور خصومها بشكل يدل على أنهم قد جمعوا كل الصفات المدمومة

ومن أجل هذا نجد مؤرخي المسلمين قد شنوا الفارات القلبية بعد الخسومات السياسية والدينية على قريش الوثنية والطوائف اليهودية لان الرائد الأسمى في تدوين المسلمين لأخبار الخسومات كان قبل كل شيء ذكر مجد القاهر وذل المهزومين ولو وصلت البنا أخبار الحوادث التي وقعت بين العرب واليهود في الجزيرة العربية من مصادر اسرائيلية لكان من الممكن بواسطة المقارنة بينها وبين المراجع التاريخية العربية أن نستخلص حقائق تاريخية ثابتة

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث ب . م . انهم كانوا يسكرون وجود يهود في الجزيرة العربية ويقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على الديانة الالهية التوحيدية ولم يخصعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما (١)

وكان العالم شير يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة . كانت يهودية في اساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي (٢)

ومجدتنا صاحب الاغانى عن الأماكن التي نزل بها اليهود في الدور الثاني فيقول: لما قدم بنو النصر وقرظة وبهدل المدينة نزلوا القابة فوجدوها ويثة فكرهوها

(١) Graetz ٣٠ ص ٧٠

(٢) ٣٠ ص ٥١

ويعشوا رائدا أمروه أن يلتصق بهم نزلا سواها نخرج حتى أتى النائية وهي بطحان وممزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تثبت حر الشجر فرجع اليهم فقال قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها الى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذبة ومكدرة طيبة في مناخر الحرة فتحول القوم اليها من منزلهم قتل بنو النضير ومن معهم على ممزور وكانت لهم تلاحه وما تبقى من بعث وسموات فكان ممن يسكن المدينة حتى نزها الاوس والخزرج من قبائل بني اسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محم وبنو زعورا وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود وكان هناك معهم من غير بني اسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حتى من اليمن وبنو مرثد حتى من بلي وبنو نيف حتى من بلي أيضا وبنو معاوية حتى من بني سليم ثم من بني الحارث بن بهثة وبنو الشظية حتى من غسان^(١)

وبقيت هذه البطون العربية على أديان آبائهم القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالى اليهود

وكانت هناك قرى كثيرة في أرض خير الواقعة شمال يثرب أهلة بأكرية مطلقة من اليهود ثم هناك وادي القرى المشهور بارضه الخصبية وحدائقه الزاهرة كان أيضا من المستعمرات اليهودية ووجد اليهود أيضا بكثرة في أرض تباه . . .

ومن هذا يتضح ان جموع اليهود كانت منتشرة في شمال الحجاز ويظهر جليا من أقوال بعض مؤرخي العرب^(٢) ان بطونا عربية كثيرة قد اختلطت بالنصر اليهودي في بلاد الحجاز وأثرت في أخلاقه وعاداته تأثيرا ظاهرا ولكنها لم تستطع أن تغلب على عقليته الأصلية بل بقي هذا النصر ممتازا

(١) جزء ١٩ ص ٩٥ الاغان

(٢) راجع ماقلناه من كتاب الاغان من يوم بعث في الباب الثالث

بقليلته امتيازاً ظاهراً:

وينكر المؤرخ اليعقوبى وجود طوائف يهودية أصلية كثيرة في الحجاز بل يستند أن أغلبها من العنصر العربى وأقلها من العنصر اليهودى ويقول ان بنى النضير نحد من جذام الا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به ونزل بنو قريظة بجبل يقال له قريظة فنسبوا اليه (١)

ولكن من جهة أخرى نجتهد طائفة من المؤرخين الافرنجى أن نجد لبعض أسماء القبائل اليهودية اشتقاقاً عبرياً (٢)

على أن الاستدلال يبحث لغوى كهذا على جنسية اليهود في بلاد العرب لا يمكن أن يستند به أو يعول عليه فمن الحق ان أسماء أكثر القبائل اليهودية عربية محضة كما يقول اليعقوبى ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس اذ يمكن أن تكون جموع اليهود التي هاجرت الى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأمكنة التي نزلت بها أسماء لها بل الواقع ان اليهود في دورهم الثانى لم يكونوا يعرفون بانسابهم بل عرفوا كلهم بأسماء المدن والقرى والأقاليم التي جاءوا منها فكان مثلاً فلان الاورثلىسى والآخر الحبرونى وهكذا . . . نعم كان بنو اسرائيل في دورهم الأول ينتمون الى قبائلهم فكان مثلاً فلان من سبط يهوذا والآخر من قبيلة افرايم وكان اليهود في وطنهم الاصلى قبل ان يحل بهم تلك الرزايا التي شتتت شملهم وفرقتهم أيادى سبا قد وصلوا الى درجة عظيمة من المدنية والحضارة وبلغوا مكاناً علياً في الرقى الروحانى والاجتماعى حتى اعمى من ينتمى نظام القبائل وصاروا أمة واحدة مدججة اندماجاً كلياً حتى نسى الافراد فكرة التفاخر بالانتساب الى قبائلهم ونسيت القبائل عادة الانقباض والاحتراس من أن تختلط دماؤها بدماء القبائل الأخرى بل أصبح المجموع للافراد والافراد للمجموع كما هو شأن جميع الأمم التي تنتقل من طور البداوة الى طور الحضارة

(١) تلويح اليعقوبى ج ٢ ص ٤٩ — ٥١ طبع يدين

(٢) ج ٣ ص ٢٦

وقد أشار التلمود الى مسألة الانساب الاسرائيلية مبينا انها جهاجت
وذكر ان سبب ضياعها هو أن الملك هرودس اليهودي أحرق كتب الانساب
الاسرائيلية (١)

ومن هنا نعرف السبب في أن اليهود الذين نزحوا الى بلاد العرب لم يكونوا
بأكثر من أنهم يهود فحسب وفي أنهم لم يكونوا يتمايزون فيما بينهم باللباء الأما كن
التي جاءوا منها

والطريقة المثلى لمعرفة جنسية اليهود في بلاد العرب إنما هي النظر في الاخلاق
والتقاليد واتجاه الافكار والاعمال

ومن هذا السبيل نستطيع أن نحكم بان يهود يثرب خصوصاً وشمال الحجاز
عموماً أقرب الى العنصر اليهودي منهم الى العنصر العربي نظراً لما وصفهم القرآن
الكريم

أقام اليهود الحصون والآطام على قمم الجبال لينحصنوا بها في أوقات
الحروب حين يفزهم الاعراب الطامعون في أموالهم وحاصلاتهم الزراعية أوجبن
تفزهم بطون يهودية أخرى لسبب من الأسباب

ويرجح أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال الجزيرة
العربية إنما أتت بها اليهود من وطنهم الاصل الذي كثرت في جباله الحصون المنيعة
ومن هذه الحصون التي أقامها اليهود في بلاد العرب حصن الأبلق للسموئل
وحصن القموي لبي أبي الحقيق وحصون السلام والوطيج وناعم وسعد بن
المعاذ الخ . .

وقال السهمودي ان قبائل اليهود تنيف على العشرين وعدة آطامهم وآطام
من نزل معهم من العرب تزيد على السبعين جاء السبي عن هدمها (٢)

(١) פסחים סב

(٢) خلاصة الوفاء أغار دار المصطفى ص ٨٠

ومع ان أغلب أسماء البلدان والأماكن التي سكنها اليهود في الحجاز كانت عربية فقد وجد لبعضها اتصال باللغة العبرية مثل وادي بطحان فإن معناه بالعربية الاعتماد ووادي مهرور أو محزور معناه مجرى الماء وقال السهمودي سمران جبل بخير صلى النبي على رأسه والعامّة تسميه سمران وضبطه بعضهم بالشين المعجمة^(١) فإذا علمنا ان في فلسطين جبلا يسمى شمران أمكننا أن نستنتج أن سمران هذا انما هو لفظ عبري أطلقه اليهود على ذلك الجبل بعد ان نزّلوا بجانبه

ويؤكد صحة هذا الاستنتاج ما قاله السهمودي من ان بعضهم ضبطه بالشين المعجمة . ثم بئر أريس فانها نسبة الى رجل يهودي اسمه أريس بلغة أهل السلم^(٢) ولكننا نعتقد أن هذا الاسم في الأصل غير علم بل هو نكرة يطلق في اللغة العبرية والآرامية على الفلاح الحارث . وبئر روما اشتراها عثمان من يهودي^(٣) ومعناها بالعبرية البئر العالية (٦٤٦ ٦٤٧)

وانما ذكرنا هذه الطائفة من الأسماء وبيننا علاقتها باللغة العبرية لنستدل منها على أن اليهود في بلاد العرب لم يقطعوا صلتهم بلغتهم الأصلية والعلماء المؤرخون يهتمون بمثل هذه المسائل ليستدلوا بها على مبلغ تأثير اللغة العبرية في اليهود ولينصّلوا الى معرفة موضوعات مختلفة من تاريخ العرب في الجاهلية وفي عصر ظهور الاسلام

أدخل اليهود الى بلاد العرب أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحرث والزراعة بالآلات حتى عدوا من أجل هذا أساتذة لعرب الحجاز^(٤)

(١) ص ٢٨٦ خلاصة الوفاء

(٢) خلاصة الوفاء ص ٢٢٦

(٣) ص ٢٢٢ خلاصة الوفاء

(٤) Wellhausen · Skizzen & Vorarbeiten Heft 4 ص ١٤

ومنهم من حفر الآبار في الأراضى العالية ^(١) ومن أجل هذا كانت أراضيهم
أخصب بلاد العرب .

وكان اليهود يشتغلون بتربية الماشية ^(٢) والدجاج ^(٣) وكانوا في جهات مقنا
يشتغلون بصيد الأسماك وكانت نساؤهم تشتغل بنسج الأقمشة ^(٤)

وكانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار
لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كابي رافع الخيبرى الذى أرسل بضاعته
بواسطة القوافل الى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة ^(٥)

ويمكن أن يقال ان تجارة البلح والتمر والقمح كانت خاصة بهم في شمال
الحجاز . ونظراً لما كان عندهم من مال وثروة فقد كان كثير من الأعراب يرهنون
عندهم بعض الأمتعة ليستدينوا منهم ما يحتاجون اليه ^(٦) كما يقال عن النبي محمد
انه رهن درعاً بالمدينة عند يهودى وأخذ منه شعيراً لاهله ^(٧)

وكان أخذ الربا شائعاً عندهم حتى أن القرآن وجه اليهم بسببه أقسى توبيخ
وأعنف تأنيب « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم
عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل
وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » ^(٨)

ولكن التعامل بالربا في تلك المصوّر لم يكن خاصاً بهم بل كان العرب جميعاً
يتعاملون به ولا يرون فيه شيئاً معيباً مطلقاً بل كانوا يعتبرونه نوعاً من البيع وكان

(١) Wustenfild : Geschishte der Stadt Medinah ص ٢١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٨٥

(٣) ابن هشام جزء ٣ ص ٢٨٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٦٠

(٥) تاريخ الخميس للديار بكرى جزء ٢ ص ١٢

(٦) البخارى جزء ٢ ص ١١٦

(٧) البخارى جزء ٢ ص ١٦ و ٤٠

(٨) سورة النساء ١٠٨

للمتعامل بالربا في مدينة الطائف شهرة فاقمة عند جميع مدن الحجاز^(١) وكذلك كان نصارى نجران يتعاملون بالربا^(٢)

ومن الصناعات التي كان اليهود في بلاد العرب يزاولونها صناعة الصياغة التي اشتهر بها بنو قينقاع اذ لم يكن لهم صناعة سواها وكان لهم في يثرب حتى خاص يعرف بمحي بنى قينقاع

وقد جاء في الاعاني أن النابغة الذبياني أقبل الى المدينة يريد سوق بنى قينقاع فلما أشرف على السوق معم الضجة وكانت سوقا عظيمة فخاصت به ناقته فأنشأ يقول : كادت نهال من الأصوات راحلتى . . . ما رأيت كالיום قط لولا أنه ينهبها بالسوط لاجتذبت ، قد ملئت الحبس في الآطام واستنعت^(٣)

وكانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية التي كانت معروفة في بلاد الجزيرة في ذلك الزمن^(٤)

ولا غرو أن يكونوا كذلك فان صناعة الدروع المسروقة اشتهر بها داود (وأثنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد) سورة سبأ

أما الزراعة فكانت مهنة بقية البطون التي كانت تعيش في القرى وكانت مجموعة الدوائر الزراعية لتلك البطون هي التي تكونت منها مدينة يثرب كما يتضح ذلك من وصف السهمودي للمدينة^(٥)

وكذلك كانت الحال في خيبر وفي وادي القرى وتبء التي اشتملت على أرياف كثيرة

(١) فتوح البلدان ص ٥٦

(٢) فتوح البلدان ص ٦٤—٦٦

(٣) هذه الشطرات مأخوذة من الاعاني حرم ٢١ ص ٦٢ وهي هالك حوار بين النابغة والربيع ابن ابى الحقيق وقد اكتنبا بهذه الاشلة مراعاة لسياق

(٤) كتاب الماوى لواقدي ص ٢٧٢

(٥) خلاصة الوفاء للسهمودي ص ٨٠

وفوق ذلك فقد كان لليهود شغف بفنون القتال والنصال وقد اشتركوا مع العرب في بعض حروبهم المشهورة

ويتضح لنا من جواب بني قينقاع الذي بعثوا به الى الرسول بعد يوم بدر انهم كانوا ذوي قوة وبطش إذ يقولون فيه : يا محمد لا يتركك انك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم الفرصة انا والله لأن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس (١) كفلك نحمد عبد الله بن أبي يفتخر بشجاعة مواليه بني قينقاع ... (٢)



أما لغة اليهود في بلاد العرب فكانت بطبيعة الحال اللغة العربية ولكنها لم تكن عربية خالصة بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم فكان من الضروري أن يدخل في عريتهم بعض الكلمات العبرية

وقد ذكر صاحب فتوح البلدان أن يهود يثرب كانوا أساتذة العرب في تعلم الكتابة العربية (٣)

ويقسم القرآن يهود الحجاز الى قسمين : أحبار وجهلة أميين « ومنهم أميون لا يعلمون الكتابة الا أمانى وإن هم الا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » (٤) وكلمة حبر هذه عبرية الأصل إذ معناها الرفيق (חבר) وقد كانت تطلق في العصور الاولى ق. م على كل عضو من أعضاء الشيعة اليهودية الدينية الفريسيين (פרושים) ثم لما

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٥

(٣) البلاذري ص ٤٧٣

(٤) سورة البقرة ٧٢

تغلبت تعاليم هذه الفئة أصبح كل متعلم من اليهود يلقب بلقب حبر^(١) ولذلك كان الاحبار موضع الاحترام العظيم كما يتضح لنا من قصة لابن هشام « قال عبد الله بن سلام فأدخلني رسول الله في بعض بيوته ودخل عليه بعض اليهود وكلوه ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا وجبرنا وعالمنا^(٢) »

وكان من أعمال الاحبار أن يتولوا القضاء ويفصلوا للناس فيما شجر بينهم كما كانوا أصحاب الأمر والنهي في كل الشؤون الدينية كما يقول القرآن الكريم « لولا ينهمم الرابانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون^(٣) » وكان اليهود يستأنفون الصلاة ثلاث مرات في كل يوم وكانت قبله اليهود أثناء الصلاة متجهة الى بيت المقدس كما كانت قبله رسول الاسلام الى رمس هجرته للمدينة اذ يحدثنا ابن هشام أن الرسول كان يعدو بمكة وقبلته الى الشام فكان اذا صلى صلى بين الركنين البراني والاسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام^(٤)

وقد يؤكد حديث البخارى هذا القول إذ يقول إن رسول الله كان أول ما قدم المدينة يصلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكانت اليهود قد أعجبهم اذا كان يصلى قبل بيت المقدس^(٥) ويحدثنا ابن هشام أن يهود يثرب كانوا يدعون الناس للصلاة بالنفخ في البوق^(٦)

(١) التفسيرية يسرائيل جزء ٢ ص ٩٩

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٩

(٣) سورة المائدة ٦٨

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧١ و ص ٣١٤

(٥) البخارى جزء ١ ص ١٨

(٦) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠١ البخارى جزء ١ ص ١٠٦

وكان اليهود يصومون في العاشوراء فلما قدم النبي محمد المدينة ورآهم يصومونه قال ما هذا ؟ قالوا هذا يوم صلح هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال فأننا أحق بموسى منكم فصامه فأمر بصيامه وكانت اليهود تعده عيداً^(١)



وإذا وقفنا الى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجهة الدين والعقيدة فانه من المتعذر أن نوفق الى التمييز بين العنصرين من وجهة الاخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لان اليهود الذين سكنوا في بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم في النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربي ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم أقلية تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات وتقاليد أبنائه الى هذا الحد سوى اقلية الجزيرة العربية

كان اليهود في قاحرم وتشاجرهم على حد ما كان العرب تماماً في جميع ذلك وكذلك كانوا مثلهم في التمدح بالشجاعة وعلو الهمة واكرام الضيف والنذور من الجبن والبخل وكانوا يوقدون الديران في الليل ليرتدوا السائرين وليدعوم الى الضيافة والاكرام^(٢) كما كان يعمل العرب إعلاء لشرفهم وصيانة لمجدهم .

ذكر ابن هشام ان حى بن أخطب أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بى قريظة وكان قد أودع رسول الله على قومه وعاقده على ذلك فلما مع كعب بحى ابن أخطب اغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حى افتح لى اكلمك قال ما أنا بماعل قال والله ان أغلقت الحصن دونى الانخوفت

(١) البخارى ج ١٠ ص ٤٩٨

(٢) الواقدى ص ١٧٠

حشيشتك أن آكل منها فأحفظ الرجل ففتح له^(١)

وكما أن قرض الشعر كان طبيعة من طبائع العرب وسجية من سجايهم وطريقة من أجل طرق التعبير والتفكير لديهم حتى كان المفكر العربي يسترسل في القول الموزون استرسالاً يسحرُ العقولَ يأخذ بالألباب كذلك اندفع اليهود في قرض الشعر باللغة العربية اندفاعاً قوياً فجعلوا ينظمون الأبيات البديعة والقصائد المتينة في الكرم والوفاء والشجاعة وفي وصف البلدان والحيوان وفي وصف جمال المرأة والتشبيب بها وبالأجمال كل ما كان يحرك نفس العربي ويدعوه الى قرض الشعر من تهديد ووعيد ومدح وثناء وذم وهجاء ووصف وغفر كان يحرك نفوس الشعراء من اليهود في الجاهلية ويدعومهم الى أن يخوضوا فيه بالقول الفصل والشعر المتن

يبدان ما وصل إلينا من شعر يهود الجاهلية قليل جداً لا يعدو بصع قصائد وأبيات مبصرة في أمهات كتب الادب العربي

وهكذا أقدمتنا الحوادث الكثيرة أكثر تلك الثروة الأدبية من أولئك اليهود الجاهليين ولم تترك لنا منه حتى ما يمكن الباحث الناقد أن يكون له رأيا واضحا عن عقليتهم وتميز شخصياتهم بعضها من بعض

يقول استاذي الدكتور طه حسين : أما أثر اليهود الادبي فيسير الفهم لانتنا نعلم كيف تؤثر هذه الحركات في العقول ولا سيما عند العرب وتزيد على أثرهم العقلي أنهم كانوا بدائهم للأنصار ومحاربتهم أيام تنوؤا على الادب العربي وسببا في ضياع الكثير منه واختراع الكثير . . . ويصل الدكتور بعد بحث طويل الى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود

(١) أن لليهود في الأدب العربي أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين

العرب وبين اليهود

(٧) أن اليهود قالوا كثيرا من الشر في الدين وهجاء العرب وقد أضعاه مؤلفو العرب

أن اليهود انتحلوا شعرا لاثبات ساقبتهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب . . . (١)

والذي حلني على أن أثبت بعض نظريات استاذي الدكتور طه حسين بصدد شعراء يهود الجاهلية هو :

(١) أني قد جمعت كل ما ينسب الى شعراء اليهود في الجاهلية ولم أجد فيه فرقا ظاهرا يميزه عن بقية الشعر الجاهلي في حين ان هناك فرقا شاسعا لا يخفى بين اليهود والعرب من وجهة الدين والعقيلة واتجاه الأفكار (٢)

(٢) لا شك في أن اللغة العبرية تركت في أشعارهم آثارا ظاهرة خصوصا فيما يتعلق بالشعر الديني (Liturgie) فقد كانت النزعة الدينية قوية في نفوس يهود الحجاز فليس ممكنا أن لا يوجد هناك شعر ديني بمحمد التوحيد وآل موسى وأنبياء بنى اسرائيل ويحط من قيمه الأصنام وعبادتها لان مثل هذا السوع قد ظهر في الادب اليهودي في كل عصوره القديمة

(٣) أن الذي يعمن نظره في قصائد السموءل يتصح له حليا انها قد طرأ عليها كثير من التقلبات والتغييرات حتى لينعذر على الباحث أن يميز القديم منها والحديث أو يفرق بين الصحيح والمنحل

هذا الى أن الايات القليلة التي وصلت اليها من شعر اليهود لا تكفي لتخليد أسماء شعرائها مما يجعلنا نجزم بأنه قد كان هناك شعراء مجيدون ولكن ضاع شعرهم ولم يبق لهم منه الا أسماؤهم كأنها صدى ما كان لهم من شهرة وبعد صوت

« (٤) إذا كان العرب أنفسهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على شعر آبائهم وأجدادهم مع انهم ظلوا كما كانوا عليه لم يصيبهم شيء سوى تغيير العقيدة فبقيت لهم لغتهم وتقاليدهم فكيف كان من الممكن أن تحتفظ بشعرها أمة غلبت على أمرها حتى قى منها من فنى وهاجر منها من قُتِلَ له أن يعيش ولكن في غير البلاد التي نشأ فيها وأطمان إليها وضاعت وراثتهم الروحية ولم يبق لهم ذكر في البلاد العربية

ليس من السهل انكار وجود شعراء من اليهود في الجاهلية فقد اشترك اليهود مع العرب في جميع المرافق الحيوية في الجزيرة العربية من اقتصادية وسياسية فبعيد كل البعد ألا يشتركوا معهم في النهضة الفكرية والشعرية

ووجود علاقة دموية متينة بين اليهود والعرب يثبت اشتراك العنصرين في النزعة الشعرية وانها كانت مطبوعة في النفس اليهودية وكامنة فيها قبل أن يسكن اليهود في الجزيرة العربية فلما انتقلوا إليها واختلطوا بالعرب وتخلقوا بأخلاقهم نمت هذه النزعة الفطرية وأزهرت ثم أثمرت ثمراها الشهي فقرض اليهود الشعر العربي ارتجالاً وتكلفاً

وعندى أن السبب في قلة ما وصل إلينا من شعر اليهود في الجاهلية ومن أسماء شعرائهم إنما يرجع الى ضعف اقبال اليهود على اعتناق الاسلام والذي حافظ على القليل الذي وصل إلينا هم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ومن تناسل منهم تخليداً لما كان لأجدادهم من مجد أنيل وشرف عظيم وقد يجور أنه لو لم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموّل لما وصل إلينا من شعره كثير ولا قليل ولا ممعنا حتى ولا باسمه

ويظهر أن الشعراء اليهود الذين وصل ذكرهم إلينا كانوا يعيشون في القرن السادس ب م. فأدرك بعضهم العصر الاسلامي

ولم نعرف منهم من هو أعظم شهرة وأبعد صيناً من السموول بن عادياء الذى يُشعر اسمه بأن أصله عبرى رغم ما وجد عند بعض الأدباء الأقدمين من الميل الى إثبات أن هناك صلة بينه وبين بعض الأسماء العربية وقد وجدوا لهذا الاسم فى العربية معانى مختلفة فهو اسم لطائر يكنى أبا براء وهو أيضاً الظل وذباب الخلل السريع (١)

ولا نعرف من ترجمة حياته سوى النزر اليسير
وقال صاحب الأغاني انه من يثرب (٢) وكان صاحب ثناء التى عرفت بثناء اليهودية وعليها حصنه الابلق الفرد يشرف على ثناء بين الجحاز والشام على رابية من تراب فيه آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من عظمة وحصانة وهى خراب (٣)

وأما الأب الذى طبع ديوان السموول حسب رواية أبى عبد الله فخطوبه فله زعم غريب فى السموول ذلك انه يزعم أن السموول كان نصرانياً ويستند فى زعمه على ما يأتى .

(١) ان السموول كان ينسب الى غسان وغسان كانت بصرية
(٢) انه فى بعض أبيات تنسب للسموول ذكر السيد المسيح والحواريين
أما هذه الأبيات التى استدل بها الاب شيخو ففى ما جاء فى ديوان الحماسة
لابى تمام فى آخر اللامية المشهورة للسموول

فان بى الديان قطب لقوهم ندور رحاهم حولهم ونحول
وكان بو الديان كما وضع الاب شيخو من نصارى نجران (٤)

(١) قاله فى التاج ص ٧ - ٣٨٢ راجع ديوان السموول طبع الاب شيخو ص ٤

(٢) حراء ٦ ص ٨٢

(٣) مجمع البلدان لياقوت مرة ٦٥٣

(٤) راجع مقدمه الاب شيخو لديوان السموول

لكن التبريرى يقول في شرحه لهذا البيت أنه لعبد الله الحارثى لا للسمول^(١)... وقبل أن أترض لمزاعم الأب شيخو أريد أن أمدح فيه غيرته الدينية إذ هي التي كانت الدافع الأكبر له على طبعه ديوان السمول وجمعه كل ما قاله العرب في عصورهم المختلفة عن السمول وهي التي دفعته الى أن يبذل مجهوداً عظيماً في سبيل اظهار ديوان السمول. وقرونًا بالشرح المفصل والملاحظات السديدة

ولم تقف نزعة الدينية عند هذا الحد بل حملته على أن يبذل مجهوداً شديداً آخر في سبيل جمع أمتار أغلب شعراء الجاهلية في مؤلف واحد وتنظيمها تنظيمًا بديعاً وشرح ما فيها من كلمات غريبة كما جاء بإرسادات الافرنج في هذا الموضوع وقد أطلق على هذا السفر النفيس اسم شعراء النصرانية بالرغم من ان الحقيقة التاريخية لا تسمح له بهذه التسمية

ولكنه وقد أبى على السمول أن يكون يهودياً بالرغم من أنه لم يشك أحد في يهودية السمول فليس عجباً منه أن يدعى أن جميع الشعراء الذين جمع شعرهم في سفره ليسوا الا مسيحيين

أما من جهة سبه فلسنا ننكره ولا ننفيه لأن علماء العرب قد اختلفوا في سب هذا الشاعر اختلافاً كثيراً فيما الأغاني يقول في موضع انه السمول بن عادياه^(٢) إذا به في موضع آخر يقول : ان غريضا اليهودى هو السمول بن عادياه^(٣) وبينما الميداني في أمثاله يقول انه السمول بن حيان عادياه^(٤) اذا بتاج العروس يقول انه السمول بن أوى بن عادياه^(٥) واذا بصاحب معاهد التنصيص

(١) ديوان الحلمة لاني تمام طبع الرامى ص ٣١

(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ١٢

(٣) الاغانى جزء ٣ ص ١٢

(٤) امثال الميداني جزء ٢ ص ٢٧٦ طبع مصر

(٥) تاج العروس طبع مصر جزء ٧ ص ٣٨٢

يقول انه ولد الكاهن هارون بن عمران ^(١) وبيتا يقولون أن قبيلته غسان اذا
بنيريم يقول ان أمه فقط التي كانت من غسان
ونحن ازاء هذا الاختلاف والاضطراب في نسب السموءل لا نستطيع أن
نطمئن الى رأى

لكن سواء صح أن السموءل كان من غسان أو لم يصح فليس يدل ذلك على
أنه كان نصرانياً بل ليس يدعو للشك في صحة ما أجمع عليه المؤرخون من انه كان
يهودياً ومن ذا الذى يستطيع أن يأتى بهرمان قاطع على أن كل بطون غسان
كانت قد تنصرت بل المرجح أن البطون الغسانية التي لم تذهب الى حدود الشام
بقيت على وثنياتها وان هناك بطناً من بطون غسان كونت حياً من أحياء مدينة
يثرب ^(٢)

ومما يكن من شئ فليس يصح للعالم المحقق أن يستدل بدين بعض بطون
قبيلة واحدة على دين كل بطونها فليس من شك في انه كانت هناك قبائل تدين
بطونها بديانات مختلفة

ومن المحيب أن الأب المحترم لا ينكر أن شعبة بن غريض أخا السموءل
صاحب حصن تباه اليهودية كان يهودياً فكيف ينكر يهودية الأخ الآخر
والذى قلته عن بطون غسان يقال أيضاً عن آل بني ديان لكننى أضيف
اليه أن الاسم « ديان » على العموم كان من الأسماء المشهورة عند اليهود فكانت
كل الأسرة التي تحتكر لعسها مراكر القصاء الشرعى عند اليهود تعرف باسم آل
ديان (٣٦) فمن المحتمل أن السموءل الذى كان ينتسب على قول بعض المؤرخين
الى الكهان كان والده أو بعض أحاده حاكماً شرعياً فأطلق على الأسرة
اسم ديان

(١) معاهد التتبعين طبع مصر جزء ١ ص ١٣١

(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٥

يلاحظ الأب الفاضل على ترجمة نفطويه للسومول ويقول : وفي ديواننا هذا يدعو الراوى يهودياً وليس قوله « قنعاً »^(١) وقد تبينت انه « قنع » . . .
أما الآيات التي جاء بها ذكر السيد المسيح والحواريين فواضح أن من السهل على أى شاعر نصراني أن ينحلها بالسومول في القصيدة الثائية المنسوبة إليه وهذه بعض آيات القصيدة نقل منها ما يتعلق بموضوعنا

ينفع الطيب القليل من الرزق
ق ولا ينفع الكثير الخبيث^(٢)
فاجعل الرزق في الحلال من الكـ
ب وبرا سريرى ما حيث

في
الرزق
الحلال

وأنتى الانباء عن ملك دلو
د فقرت عيني به ورضيت
وسليمان والحوارى يحيى
ومتى يوسف كفى وليت
وبقايا الاسباط أسباط يعقو
ب دراس التوراة والتسابوت
واقفلاق الامواج طورين عن مو
سى وبعد الملك الطالوت
ومصاب الافريس حين عصا
ه واذا صاب حينه الجالوت

سنة
ايات
ملققة

(١) ديوان السومول ص *

(٢) في نوادر أبي زيد الاصمعي طبع بيروت (ص ١٠٤) ان الخليل سأل الاصمعي
عن الحديث في هذا البيت فقال يريد الحديث وهي لغة خبير ويروى لغة قريظة فقال له الخليل:

ليس يعطى القوى فضلا من الرزق
ق ولا يحرم الضعيف الشخصية
بل لكل من رزقه ما قضي الا
ه وان حزن أنفه المستعيت (٣)

بسم
الله
الرحمن
الرحيم

ويظهر ان الأب الفاضل لم يقنع برعاه فأضاف اليه قوله « ولعل فصل الخطاب في هذا ما يقال من أن السموءل كان من احدى تلك الشيع الجامعة بين عادات اليهود وعقائد النصرانية التي اعبرت الاردن وقت حصار الروم لاوروشليم فسكنت في بلاد العرب (١)

ويظهر من كلامه هذا انه غير عالم بتاريخ اليهود في صدر النصرانية فان مما لا جدال فيه انه وجدت طائفة يهودية نصرانية في مادي أمرها في الحين الذي كانت فيه النصرانية دعوة يهودية بمحنة وكان النصارى شيعا من شيع اليهود وقد فنت هذه الفئة بعد ان أخذت النصرانية تنتشر بين اليونان والسرمان ولم يسق للطائفة اليهودية النصرانية (secte judéo-chrétienne) ذكر في القرن الثالث ب. م. وليس لنا مراجع تاريخية تثبت وجود طائفة يهودية نصرانية مفردة في الجزيرة العربية وعلى العموم فان ديوان السموءل لنفظويه مجموعة من الشعر المليح والقبيح والسين والغث أنتجته قرائح مختلفة فن شاعر متين الى آخره سحيف ومن شاعر مطبوع الى آخره متكلف وأغلبها مزور ممدسوس على السموءل أما القصيدة اللامية التي أولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

لو كان ذلك لنتهم لقال الكثير وانما كان ينبغي ان تقول انهم يظنون اناء تاء في بعض الحروف ..

(١) ديوان السموءل لنفظويه طبع الاب شيخو م ١٣

(٢) ديوان السموءل لنفظويه طبع الاب شيخو م .

والتي يقول عنها صاحب كتاب الطراز أنها تشتمل على مكارم الاخلاق من ساحة وشجاعة وتواضع وحلم وصبر وتكلف واحتمال للمكاره... ^(١) هذه اللامية التي خللت اسم السموول ذهبت فيها آراء الادباء مذاهب شتى حتى ان الاغانى يقف ازاءها موقف الحائر المضطرب فيقرر طورا انها لشريح بن السموول ^(٢) ويقول مرة أخرى انها للسموول نفسه وينسبها في موضع ثالث لشاعر غير معروف اسمه دكين المندري ^(٣) (١)

ولا شك ان اختلاف أقوال الاغانى ناشىء من تعدد الروايات التي كانت أمامه وكذلك اختلف الرواة في نقل القصيدة اختلافا كبيرا فمنهم من يقدم بعض أبياتها على بعض ومنهم من يعكس عمل الآخر ومنهم من يزيد فيها ومن ينقص ^(٤) فهذه الاختلافات في نسب مؤلف القصيدة وهذه التصرفات المتباينة في ترتيب أبياتها تنتج حتما الريبة في نفس الباحث في صحة نسبتها للسموول والذي يقرأ القصيدة الفريدة المنسوبة للسموول في كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجهمي ^(٥) الذي يعتبر ثقة في جمعه شعر الحاهلية نظراً لتقديمه وسلامة ذوقه ودقة تقديمه يأخذ العجب حين لا يجد للسموول إلا أبياتاً قليلة مع عدم تنبيه ابن سلام على وجود أبيات أخرى للسموول

وقد جاء ابن سلام بقصيدة لشعبة بن غريص ^(٦) بينما نسب ابن نباته في شرحه رسالة ابن زيدون ^(٧) نفس هذه القصيدة للسموول وهي القصيدة التي مطلعها

(١) راجع ديوان السموول ص ٢٥

(٢) الاغانى جزء ٦ ص ٦٧

(٣) الاغانى جزء ٨ ص ١٥٥

(٤) ديوان السموول ص ٢٥ — ٢٧

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام الجهمي طبع مصر شعراء اليهود ص ١٠٩ — ١١٤

(٦) طبقات الشعراء ص ١١١

(٧) شرح ابن نباته رسالة ابن زيدون طبع مصر ص ٥٤

يا ليت شعري حين أنتب هالكاً ماذا تُرثني به أنواحى ...

وللسموءل أبيات لا يشك في صحتها القدماء

وفيت بأدعر الكندي إني إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوحى عادياً يوماً بأن لا تهتم يا سموءل ما بنيت

بنى لى عادياً حصناً حصيناً وبئراً كلاشتت استقيت^(١)

والذى قيل في شعر السموءل يمكن أن يعتبر مقياساً صالحاً للبحث في شعر

بقية يهود الجاهلية إذ لا يمكننا بوجه من الوجوه أن نقول قولاً فصلاً بأنها وصلت

الينا عن يهود الجاهلية

والشخصية البارزة بعد السموءل هى شخصية كعب بن الاشرف وكان من

أصحاب النفوذ والبطش بالسيف واللسان لا على اليهود فحسب بل على قريش

أيضاً وقد كان عربياً أكثر منه يهودياً إذ كان أبوه من عرب طى وأمه من بنو

النضير وقد توفى أبوه وهو صغير فحملته أمه الى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر أمره

وكان شاعراً فارماً وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التى كانت

بين الأوس والخزرج وكان شاعراً فخلاً وخطيباً فصيحاً وكان يهجو النبي ويهجو

أصحابه فبعث النبي نفرأ من أصحابه فقتلوه في داره^(٢)

وأما الابيات التى ينسبها ابن سلام الجمحي لكعب بن الاشرف والتى

تشتمل على وصف دقيق لدار وصفها وصفاً صادقاً وجزأً فإنها تشهد لشاعرها بأنها

كان مبدعاً فى أسلوبه معجاً بالمناظر الطبيعية وهذه هى الأبيات

رُبَّ خَالٍ لِي لَوْ أَهْضَمْتُهُ سَبَطَ الْمِشْيَةِ أَبَاءَ أَفِئ

لَيْنِ الْجَانِبِ فِي أَقْرَبِهِ وَعَلَى الْأَعْدَاءِ سَمَّ كَلَزَعَف

وَلَنَا بئَرُ رَوَاهِجَةٍ مِنْ يَرِذُّهَا بَانَاءُ يَشْتَرَفُ

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٩

(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ١٠٦

ونخيل في قلاع سجّة - تخرج الثمر كأمثال الاكف

وحرير في رجال خلة آخر الليل أهاج يدف^(١)

وقد نسب اليه ابن هشام قصيدة في رثاء قنلى يوم بدر من سراة وعظما

مكة

طلحت رحي بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستمل الأدمع

قتلت سراة الناس حول حياضهم لا تبعوا إن الملوك تصرع^(٢)

ومع أنها تلائم الحالة السياسية التي كان عليها كعب بن الاشرف وبقية قريش بعد يوم بدر ويحتمل أن قائلها كان كعب بن الاشرف فلنا الحق أيضاً أن نشك في صحتها إذ لا يمكن على الإطلاق الاعتماد على كل ما سرد في كتاب السيرة فكثيراً ما نعر فيه على قصائد طويلة ينسبها ابن هشام لبطون حمير في حين تدل لغتها على أن قائلها من قريش فكيف يمكننا أن ننق بنسبته هذه القصيدة الى كعب بن الاشرف . . على أن الامتاذ الشيخ عبد الوهاب النجار يقول إن وعود شعر منسوب الى حميريين أو قحطانيين بلغة مضر لا يقتضى أن يكون مودده في السيرة قد نخله غير قائله وحمله عليه كذباً وإن كان المنسوب اليه جاهلياً

ذلك أن اللغة المضرية قد اقتحمت على لغات أهل اليمن مواطنها وتغلغلت في أحشائها وآية ذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد وفدت عليه وفود قبائل اليمن القاصية والدانية ولم يكونوا يحتاجون في مخاطبتهم لرسول الله وحوارهم له ولا صحابه الى ترجمان يعبر عما يجول بخواطر الفريقين من المعاني التي يريد كل فريق أن يلقياها الى الآخر . وهذا على عليه السلام ومعاذ رضى الله عنه أرسلهما رسول الله الى اليمن ولم يحتاجا الى مترجم يترجم لكل منهما كلام من أرسلوا

(١) طبقات الشعراء ص ١١٠

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٨

اليهم : وهذا كما قلت دليل على أن المضرة قد سادت لغات العرب قبل الإسلام وصارت من القوم بحيث لا يستكثر مستكثر أن يقول بها الحميرى أو القحطاني شعره الذى يريد أن يذيعه بين العرب . . . اهـ

ثم إن هناك امما آخر يلفت عنايتنا وهو سارة القرظية التى ينسب اليها شعر فى رثاء قومها بعد أن قتل أبو جيلة أشراف اليهود حيث تقول

بنفسى أمة لم تغن شيئا بذى حُرُض تُغفينا الرياح
كحول من قريظة أتلقتنا سيوف الخرجية والرماح
رزقنا والرزية ذات قمل يمر لأهلها الماء القراح
ولو أرنوا بأمرهم لجات هنالك دونهم جأوى ردأخ^(١)

ولو صحت هذه الرواية لكان من الممكن أن نستدل بها على أن المرأة اليهودية كانت تشترك اشتراكاً فعلياً فى جلب الرزق لأسرتها من ناحية وفى نحو القوى العقلية من ناحية أخرى

وليس ذلك بغريب على الفتاة الاسرائيلية بوجه عام فى جميع أدوار تاريخ أمتها إذ قد ظهر من الجنس الطيف اليهودى النابغات والشاعرات والبطلات والملكات

(١) الاعلى جزء ١٩ ص ٩٦

الباب الثاني

ظهور اليهودية في بلاد اليمن

اسباب انتشار اليهودية في بلاد اليمن — اضطراب أقوال المؤرخين في هذا الباب —
الدوامل الدينية والسياسية لظهور لليهودية في بلاد اليمن — مطامع الدول الرومانية الشرقية
في بلاد اليمن — لماذا انتشرت اليهودية في بلاد اليمن ؟ — وقت ظهور لليهودية في اليمن —
آراء المستشرقين — رأى المؤلف — أقوال مؤرخي العرب في ملوك حير اليهود — أسباب
اعتناقهم لليهودية — رأى ابن هشام والطبري — أول ملوك حير اليهود — يوسف ذو
نواس — حياته كما ذكرها ابن هشام — اصطفاؤه أهل نجران — أسباب ذلك الاضطهاد —
ذكر القرآن الكريم لقتل نجران — استنجاد أهل عمران بالروم — طاعة الحبشة على
اليمن — تحقيق الحبشة مطامع الدولة الرومانية الشرقية في بلاد العرب — عام الفيل — تأميم
هزيمة الدولة الحميرية في نفوس اليهود

بعد أن ينسأ الأسباب التي أدت الى انتشار الديانة اليهودية في شمال بلاد
الحجاز نريد أن نوضح العوامل الاخرى التي دعت الى ظهور الدين اليهودي في
بلاد اليمن

لم تعتمد الديانة اليهودية في بلاد اليمن على العصبية اليهودية كما كان شأنها في
البلاد الحجازية لان الاغلبية المطلقة التي كونت أنصار هذا الدين الجديد في
اليمن كانت من سكان البلاد الاصليين

وقد اضطربت أقوال المؤرخين في أسباب ظهور الديانة اليهودية في ربوع
بنى حمر فطائفة منهم ترى أن ظهورها كان نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية
والنصرانية تمكنت فيه الاولى من أن تتغلب على الاخرى في بادى الامر ومن

هذه الطائفة العلماء (Graetz Welhausen Halevy) وطائفة أخرى تعرف بأن للعامل الديني أثراً ظاهراً ولكنها ترجح أن الباعث الاصلى انما هو سياسى قبل كل شئ ومن هذه الطائفة العالمان (Glaser Winkler) وهذا الباعث الاصلى الذى تراه الطائفة الاخيرة هو أن ملوك الدولة الرومانية الشرقية بعد ان فرغوا من أمر الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية تأهبوا لضم أطرافها الى أملاكهم فسلكوا لتنفيذ هذا الغرض طريقة سياسية محكمة حيث أرسلوا وفودا من الرهبان الى تلك البلاد وأمرهم أن يشوا التعاليم المسيحية بين أهل الحضرة والبادية من جهة ويمهدوا الافكار والفنوس لقبول التسلط السياسى الرومانى من جهة أخرى فلما تنبه ملوك حمير لهذه الحيل وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسى من الخطر الشديد بسببها نشطوا لاجباطها وفكروا فى أمضى الاسلحة التى تمكنهم من القضاء عليها فهدام فكرهم الى أن يمتنعوا الديانة اليهودية ليقاوموا ديننا توحيدا بدين توحيدى آخر وقد أصاب ملوك حمير فى هذه الفكرة كل الاصابة لان اعتناقهم لليهودية قضى على كل الحجج التى كان ملوك الدولة الرومانية الشرقية يعتمدون عليها فى الترويج لدعوتهم السياسية وانقطعت الوسائل التى كانوا يتوصلون بها للتأثير فى عقول أفراد الشعب وجماعاته على أن هناك عاملين آخرين لظهور الديانة اليهودية فى بلاد اليمن لم يصرح بها المؤرخون :

الاول : أن ملوك حمير لم يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية أن تسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع ولم يكن لليهودية فى ذلك العصر دولة سياسية فى حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة فى فتح بلادهم

ومن هنا نفهم السر فى مقاومة الرهبان واضطهاد أهل نجران والغفور من

الحبشيين لانهم جميعاً كانوا آله في أيدي السادة من ملوك قسطنطينية
الثاني : — وله أثر كبير في انتشار اليهودية في بلاد اليمن — وهو أن تعاليم
الديانة اليهودية ومبادئها أقرب الى عقلية العرب من الديانة المسيحية التي كانت
تستمد يومئذ بعض تعاليمها من الفلسفة اليونانية

ومع أنه كان هناك في شمال الجزيرة قبائل عربية اعتنقت الديانة المسيحية
فأني اعتقد ان النصرانية كما كان اليونان وغيرهم يفهمونها لم تغلب في وقت ما
على النفوس العربية بدليل ان البطون العربية المسيحية دخلت في الدين الاسلامي
بعد انصالتها بجيوش الخلفاء الراشدين بلا كبير مقاومة في حين كان اليهود في شمال
الجزيرة وجنوبها يداخون عن الديانة اليهودية دفاعاً شريعاً . فيقاتلون جيوش
الحبشة في اليمن قتالا شديدا رغم ما كانت عليه هذه الجيوش من قوة البأس
وكثرة العدد اللتين بواسطتهما فقط استطاعت أن تظهر على اليهود وان تفرقهم
وتمزقهم

كذلك لم يلب اليهود دعوة رسول الاسلام ولا ينقص من قيمة هذه الحقيقة
ان أفراداً من اليهود دخلوا في ملة النبي محمد وولايته
ويؤيد هذه الحقيقة ما جاء في البخارى حيث قل : لو آمن بي عشرة من
اليهود لآمن بي اليهود (١)

وتاريخ ظهور اليهودية في بلاد حمير موضع جدل عنيف بين علماء الأفرنج
حتى الآن

فيقرر المستشرق (Prococke) وهو من علماء القرن الثامن عشر ان دولة
حمير اليهودية ظهرت في القرن الاول ق . م

ولكن العلماء يعارضون في هذا الرأي ويقولون انه لو صح هذا الحدس لكان

يوسف المؤرخ اليهودي قد تكلم عن هذه الدولة اليهودية كما ذكر ظهور دولة آرامية منهودة على أطراف نهر الفرات النائية عن فلسطين وهي دولة حديب (١) ويقرر العالم (Silvester de Sacy) في كتابه (٢) أن ظهور اليهودية في اليمن لم يسبق القرن الثاني ب. م. ولكن المؤرخ اليهودي شيفر ينكر صحة هذا الرأي ويقول لو وجدت هناك دولة يهودية في القرن الثاني بعد الميلاد لكان التلود يملأ صحائف غير قليلة بذكر أخبارها وسرد الأساطير عنها فسكوت التلود عن هذه الظاهرة التاريخية أعظم دليل على عدم وجودها في قرون تأليفه (٣) (ختم التلود في القرن الرابع بعد الميلاد)

ثم ظهرت في المجلة الاسيوية الفرنسية (٤) مقالة قيصة ناقض فيها العالم برون (Perron) جميع نظريات من ذكرنا ويقول أن دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا في القرن الخامس بعد الميلاد ويستدل بما ذكره الطبري في هذا الشأن ويقول أن أحبيحة الذي قاتل تبان أسعد أبي كرب ملك حمير وصاحب الدعوة اليهودية طلق زوجته سلمة فذهبت الى مكة حيث تزوجت من هاشم أبي عبد المطلب جد النبي محمد وهذا يدل على أن مقاتلة تبان أسعد لاهالي يثرب إنما كانت حوالى نهاية القرن الخامس ب. م.

ثم ما ذكره الطبري من أنه كان لتبان أسعد بنون ثلاثة حسن وعمر وذرعة، وذرعة هذا على حسب رواية ابن هشام هو ذو نواس آخر ملوك حمير

(١) שמעוני ج ٢ ص ١٩٢

(٢) Memoires sur divers evenement de l'histoire des Arabes (٢) avant Mahomet.

(٣) Ciaetz ج ٣ ص ٤٠٥

(٤) Journal asiatique 1838 Novembre p 358 (Sur l'introduction de judaisme au Yemen.)

واذن لا يمكن بوجه من الوجوه أن تكون هذه الدولة قد عاشت قبل القرن الخامس ب. م .

لا شك أن حجة بيرون (Peron) أمين وأصح من نظريات غيره ممن ذكرناهم بيد أن هذه الحجة لا تنتج الجزم القاطع لانها مبنية على أقوال ليست محل ثقة تامة لان هناك شكاً في بعض الحوادث التاريخية التي ذكرناها أما أنا فأرجح ان ظهور اليهودية في بلاد اليمن قد حدث قبل ثبأن أسعد اذ من الصعب أن تقتنع بأن قبلاً واحداً يستطيع أن يرغم أقبال حمير على اعتناق دين جديد دون أن يحدث ذلك فتناً داخلية وان عدم وجود معارضة للدين اليهودي ليدل على أنه كان هناك اناس من ذوى النفوذ السياسى صمحو للديانة اليهودية التوحيدية أن تتسرب الى اليمن وتركوها تنتشر شيئاً فشيئاً أو ساعدوا على انتشارها بين الشعب من قبل أن يعلن ثبأن أسعد انها صارت دين البلاد على ان المقول أن يكون اليهود قد وجدوا في تلك الاراء منذ أزمان بعيدة اذ لا يمكن أن يكون اليهود انتشروا في بلاد الحجاز في حين لا يكون منهم أحد في بلاد اليمن لا سيما وعدد كبير من اليهود تجار دأبهم التنقل والترحال لتبادل البضائع في مختلف البلدان فلا بد أن تكون هناك جموع يهودية قد وصلت الى نفور اليمن وحضرموت ثم توغلت الى الداخل شيئاً فشيئاً

ويقول الاساذ الشيخ عبد الوهاب النجار إن علاقة اليهود باليمن قديمة جدا يرجع تاريخها الى أيام ملك سليمان بن داود فقد جاء في سفر الملوك الاول في الاصحاح العاشر آية (١) ما نصه (وممعت ملكة سبأ بنحصر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل . فأتت الى أورشليم بموكب عظيم وكلته بكامل ما في قلبها الى آخر ذلك الاصحاح — والاصحاح التاسع من أخبار الايام الثانى من آية (١) الى آية (١٢) مثل عبارة أخبار الملوك الاول تكاد تكون احداها منقولة من الاخرى وكلها في وصف سليمان وحكته واندھاس ملكة سبأ منه وتقديمها اليه الهدايا

والتحفت التي أنت بها من بلادها وثنائها على سليمان وإله سليمان ثم عودتها إلى بلادها — وقد وردت قصة سليمان مع ملكة سبأ في سورة النمل وهي السورة السابعة والعشرون من القرآن من أول الآية العشرين إلى آخر الآية الرابعة والأربعين وما جاء فيها حكاية قول الملكة لقومها عن كتاب سليمان « قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلموا على وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملأ أتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وإنى مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » ومنها (فلما جاءت قيل أهكذا عرتك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبل وكنا مسلمين) ومنها (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن سابقها قال إنه صرح ممرد من قواربر قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلفت مع سليمان لله رب العالمين)

وأخبرني السيد محمد بن عقيل من سادات المسكلة أنه قرأ في تاريخ الجندی من نحو خمسين سنة أن اليهود حين غلب الحبشان على البن رحلوا إلى حضرموت وكان مقامهم بذلك النواحي إلى خروج الحبشان من البن — اهـ . . . وقد أثبت العالم جلارد (Glaser) وحود اليهود في البن وحضرموت منذ عصور كثيرة قبل ظهور الاسلام واذن فهؤلاء اليهود هم الذين أنبتوا البساتين في النفوس وتمهدوه حتى ترعرع ثم نأصت حنوره وظهور الميل عند قيل أوعدة أقبال لا اعتناق اليهودية كما اعتنقت بطون عربية الديانة المسيحية بسبب نفوذ الرهبان وانتشار الدعوة إليها تدريجاً وقد كانت هناك جموع من العرب المتهودة وهي بطون كنانة وبنى الحارث بن كعب وبنى كعدة سكنوا جميعاً بجوار مكة ^(١)

وقد يكون في حكم الممكن انه بعد أن قتل تبان أسعد راجعاً من يثرب جمع الاقيال المشوذة وكون فيها دولة حميرية يهودية لصدم هجوم الدولة الحبشية وسد السبيل في وجه مطامعها ولمنع انتشار النصرانية التي كان ملوك الروم يتوسلون بها الى تنفيذ مطامعهم الاستعمارية

أما مؤرخو العرب فيأتون بقصة طويلة تشير الى سبب جذري بالاعتبار لظهور الدولة اليهودية في اليمن

يقول الطبرى كان تبان أسعد حين أقبل من المشرق جعل طريقه على المدينة وقد كان حين مر بها في بدأته خلف بين أطوارهم ابناً له قتل غيلة قدمها وهو جمع على تخريبها واستئصال شأقة أهلها وقطع نخلها غير أن سكان المدينة كانوا يقاتلونه بالتهار ويقرونه بالليل فأعجبه ذلك . ثم فبينما هو على ذلك من حربه لم اذ جاءه خبر أن من أحبار اليهود من بنى قريظة علمان راسخان حين ممعا ما يريد من اهلاك المدينة وأهلها قتالا له أيها الملك لا تفعل فالك ان أيت الا ما تريد حيل يليك وبينهم ولم تأمن عليك عاجل العقوبة لان يثرب مهاجر نبي يخرج من هذه البلدة من قريش في آخر الزمان فتسأى عند ذلك الذى سمع من قولها عما كان يريد بالمدينة ورأى أن لها علماً وأعجبه ما سمع منها فأنصرف عن المدينة وخرج بها الى اليمن وأتبعها على دينها . . . (١)

وكذلك يروى هذه القصة صاحب السيرة النبوية وغيره من بقية مؤرخي العرب دون أن يزيدوا شيئاً

بعد ذلك يقول الطبرى : لما توجه تبان أسعد الى اليمن مع جنوده حالت حمير بينه وبين دخوله الى بلاده وقالوا لا تدخلها وقد فارقت ديننا فدعاهم الى دينه وقال انه دين خير من دينكم قالوا فما كنا الى البار فوافق الملك وكانت باليمن

(١) نقل بصرف من كتاب الامم والملوك للطبرى جزء ٢ ص ٢٥

نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ولما قالوا ذلك لتبان
 قل أنصتتم نخرج قومهم بأوثانهم وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما متلذذيهما
 حتى قصدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت إليهم فلما أقبلت نحوهم
 حادوا عنها وهايوها فذعرهم من حضرم من الناس وأمروهم بالصبر فصبروا حتى
 غشيتهم وأكلت الأوثان وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى جباههما لم
 تضرهما فأصفت حير عند ذلك وعند ذلك كان أصل اليهودية باليمن . . . (١)
 ولكي أميل الى انكار صحة هذه القصة بغض الطرف عن أنها خرافة لان
 لا م لا تبدل أديانها كما تبدل الافراد نياها بل أن التغيرات السياسية والدينية
 انما تحصل اما بتغيير بطل. واثقاب عقلى متدرج فى برهة طويلة مستمرة واما
 بالثورة العنيفة تهدم القديم مرة واحدة وتبنى الجديد مرة واحدة أيضاً . . .
 والذي نعلمه عن حسن بن تبان أسعد أبى كرب هو أنه سار بأهل اليمن يريد
 أن يظا بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى اذا كانوا ببعض أرض العراق
 كرهت حير المسير معه وأرادوا الرجعة الى بلادهم فكلّموا أخاه له يقال له عمرو
 وكان معه فى جيشه فقال له اقتل أخاك حسن وتملكك علينا وترجع بنا الى بلادنا
 فأجابهم فاجتمعوا على ذلك الا ذا رعين الحميرى فانه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه
 فقال ذورعين

ألا من يشتري سهرأ بنوم سعيد من يبيت قريبر عين
 فأما حير غدرت وخانت فعدرة الآله لذي رعين

ثم كتبها فى رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمرا فقال له ضع لى هذا الكتاب
 عندك فقبل ثم قتل عمرو أخاه حسن ورجع من معه الى اليمن فلما نزل عمرو بن
 تبان اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فلما أجهده ذلك سأل الأطباء والحزاء

من السكمان والمرايين عما به فقال له قاتل منهم انه والله ما قتل رجل قط أخاه بنيا على مثل ما قتلت أخاك عليه الا ذهب نومه وسلط عليه السم فلما قيل له ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه حسن من اشراف اليمن حتى خلص الى ذى رعين فقال له ذورعين ان لي عندك براءة فقال وما هي قال الكتاب الذى دفعت اليك فأخرجه فاذا فيه اليتان قتركه وهلك عمرو . . . فرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له آخنيعة ينوف قتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة الى أن تغلب عليه دُرْعُه ذو نواس ابن ثبان أسعد أخى حسن وكان صبيا حين قتل حسن ثم شب غلاماً جليلاً ذا هيئة وعقل^(١)

ويمكننا أن نستنتج من هذه الحوادث أن الوهن والضعف تغلبا على الدولة بعد موت ثبان أسعد أبى كرب وأن موجبات الكراهية والتحامد والتنافس قد فشت بين أفراد الأسرة المالكة فانفسح المجال أمام رواد الفتن ومحبي الاضطراب فلعبوا دورهم باقتان ونجاح

ولا نعلم مبلغ تأثير هذه الفتن والاضطرابات على دين الدولة ولا اذا كانت ثورة لخنيعة ينوف متحمة الى الأسرة الحاكمة فقط أو كانت الفكرة متحمة أيضاً الى هدم كيان اليهودية فى اليمن فان جميع المصادر العربية لم تشر اقل إشارة الى شىء من هذا

ولسكننا مع ذلك نميل الى ترجيح أن يكون الثوار قد رموا بنورتهم أيضاً الى هدم اليهودية إذ لا بد من آله يستعملونها للتأثير فى نفوس الشعب وتمهيج عواطفه وخير وسيلة لذلك إنما هي أن يظهروا بمظهر المداهمين عن عقيدة الآباء والاجداد ودين البلاد الاصلى لاسيما وقد كان كثيرون من الاقبال لم يستبدلوا بعد الديانة الوثنية بنبرها

ومن المحتمل أن التأثيرين كانوا يستمدون قوامهم وأموالهم من الخارج ويرجع هذا الاحتمال ما جاء في بعض المراجع اليونانية من أن ثورة وثنية ثارت ضد ذى نواس كما سنوضح ذلك فيما بعد.

وقد جاء في المصادر اليونانية كثير من الأخبار عن ذى نواس هذا كما جاء منها الكثير أيضاً في المراجع العربية.

يعتقد العالم Perceval أن ذى نواس حكم بلاده من سنة ٤٩٠ — ٥٢٥ ب. م في حين يقول شيفر إن ذى نواس ارتقى العرش سنة ٥٢٠ — ٥٣٠ ب. م (١) ويتضح لمن يبحث في ترجمة حياته أنه لم يكن أول ملك يهودى بدليل أن تربيته كانت يهودية محضة وأنه كان في عقليته وميوله يهودياً متعصباً لدينه مما يجعل على الاعتقاد بأنه قد لقن أساس الديانة الاسرائيلية من نعومة أظفاره بدل علماء البحث والتنقيب جهوداً كثيرة في سبيل العنور على شىء من آثار الدولة الحورية المتهودة ولكنهم لم يعثروا على شىء منها مطلقاً وهذا يدل على أحد أمرين

(١) أن هذه الدولة لم تجد من الوقت ما يكفي لانشاء الأعمال العظيمة والآثار الخالدة التي ترتد الخلف وتدل الاجيال المقبلة على ما كان لها من قوة بأس وعظم سلطان

(٢) أن الضغط الحبشى الذى قصى على دولة حمير المتهودة محال ما كان له علاقة باليهود وقضى على جميع آثار دولتهم لأن النزاع الذى كان بين الحبشة ودولة حمير المتهودة لم يكن نزاعاً سياسياً فقط بل كان نزاعاً سياسياً ودينياً في آن واحد ونحن نعلم أن الحروب الدينية أشد هولاً من السياسية وفيها يبذل المستصرون كل مرتخص وعال في سبيل استئصال شأفة الدين المغلوب ومحو آثاره

ويحدثنا ابن هشام عن حياة ذى نواس بقوله : وتسمى ذى نواس يوسف فأقام

في ملكه زمناً. وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم وم أهل فضل واستقامة فسار اليهم ذو نواس بجنوده ودعاهم الى اليهودية فغيرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل فغدا لهم الاخذود فحرق من حرق بالنار وقتل بالسيف من قتل ومثل بهم حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفاً (١)

والذي يعلم أن نجران لم تكن سوى بلدة صغيرة يذهب لهذه المبالغة في عدد القتلى إذ لم يكن عدد سكانها يزيد عن بضعة مئات وفضلا عن ذلك فإن ذا نواس لم يقتل كل أهالي نجران بدليل أن لهم ذكراً في أخبار صدر الاسلام (٢) وإذن فليس من شك في أن عدد القتلى من نصارى نجران لم يدرك عشرين ألفاً بوجه من الوجوه فهي مبالغة ظاهرة سببها أن اضطهاد ذى نواس للنصارى كان عنيفاً جداً حتى أنه ترك آثارا هاجت النفوس العربية في البادية والحاضرة

وقد خلا القرآن الكريم ذكرى قتلى نجران بآيات من ذهب : قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يضلون بالمؤمنين شهود وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . . . (٣)

أما المصادر اليونانية فتقول إن معاملة ذى نواس لنصارى نجران لم تكن إلا رد فعل لاضطهاد الدولة الرومانية لليهود حيث كانت تذيبهم الأمرين بواسطة عمالها في كل بلادها باسم الدين (٤)

بعد تلك الاضطهادات التي أصابت نصارى نجران حدث أن أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزهم فضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نواس وجنوده وأخبره

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٣٤

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٦٥

(٣) سورة البروج ٤ — ٨

(٤) Graetz جزء ٢ ص ٨٨

يما بلغ منهم فقال له بدت بلادك منا ولكن سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين وهو اقرب الى بلادك وكتب اليه يأمره بنصره والطلب بثأره فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً يقال له ارياط ومعه في جنده ليرة الاشرم فركب ارياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثملبان وسار اليه ذو نواس في حير ومن أطاعه من قبائل اليمن فلما التقى الجمعان انهزم ذو نواس وأصحابه ... ولم يستطيعوا الثبات أمام جيش النجاشي فلقبه ذو نواس بنحو البحر وضرب فرسه بخاض به ضحاضحه حتى أفضى به الى غمره ... (١)

على أن المؤرخ اليوناني يوحنا من مدينة افزوس يقص خبراً لم تقصه المراجع العربية وهو أن دومينوس الحيرى قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم واستمر يُعامل تجار الروم بالقسوة والعنف ويضطهدهم اضطهاداً شديداً كلما مر منهم أحد ببلاد اليمن حتى اقطع جميع التجار المسيحيين من دخول بلاد اليمن فأصيبت الأسواق التجارية اليمنية بالكساد وضعفت فيها الحركة ضعفاً شديداً لأن هذه الأسواق كانت تستمد حياتها الاقتصادية مما تصدره الى الخارج من المحاصيل الزراعية والمنتجات الصناعية ومما يرد اليها من حاصلات البلاد الأخرى وكانت تنور بلاد اليمن هي الوسطة بين الهند وبين جميع الاصقاع الشرقية والغربية فكانت أسواقها لذلك شديدة الحركة كثيرة المروضات ولتقى تجار كل هذه الجهات

لم يكن من الممكن أن ينظر اليمنيون الى شل حركة أسواقهم بين الرضى لذلك قدم ايدوج قيل من أقبال اليمن الوثنيين الى ذى نواس وقال له ان أعمالك القاسية ستؤدى الى نقل الحركة التجارية من تنورنا الى تنور أعدائنا فأجابه ذو نواس بقوله إن اخواني اليهود في بلاد الروم يذوقون ألواناً شتى من الأهوال

والتعذيب قائلة أرشد أن أكف أيدي الروم عن اقتفاف الاثم بالابرار بمماثلتي
لتجارهم هذه المعاملة السيئة . . .

ولم يرتض ايدوج هذا الجواب ولم يوافق على هذه السياسة التي يرى أنها
ستؤدى الى خراب البلاد ففكر في أن يتخلص من ذى نواس فاتفق مع باقى
أقبال اليمن الوثنيين وجمع بواسطتهم جموعاً كثيرة قاتل بها ذا نواس حتى تغلب
عليه وقتله ثم اعتنق ايدوج الديانة النصرانية (١)

هذه هى رواية المؤرخ اليونانى يوحنا وهى تخالف ما نقلنا عن المصادر العربية
من أن جيوش الحبشة هى التى قضت على دولة ذى نواس

ونحن نرجح ما روته المراجع العربية لأن انكار غزو الحبشة لليمن غير ممكن
مطلقاً نظراً لأنه قد يؤدى الى انكار حوادث هامة أخرى حدثت فى بلاد اليمن
والحجاز بعد ذلك بزمان قليل

على أن لدينا شهادة لقائد من قواد الجيش الرومانى الشرقى الذى كان يحارب
فى العراق ضد الجيش الفارسمى أثناء وقوع حوادث اليمن هذه وهو يقصها بأسلوب
لا يتعارض مع ما جاء فى كتاب السيرة لابن هشام ويعرف هذا القائد باسم
(Prokop) بروكوب وهذه هى شهادته : . . . وقد استعد ملك الحبشة
(Hilistiaus) الذى كان يقالى فى دينه لمحاربة ذى نواس لأنه كان يأخذ الأموال
من تجار النصارى بنيا ثم جاء بجيش عظيم الى باب المندب ومن الغارة على سواحل
بلاد حمير فساد ذو نواس اليه ولكنه انهزم هزيمة منكرة وهلك (٢)

ولست أميل الى رأى القائل بان رواية المؤرخ يوحنا من مدينة افروس
مختلفة بل أفترض أنها حدثت أثناء الاضطرابات الداخلية التى حدثت بعد قتل

(١) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(٢) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٩

حسن بن تبان أسعد أبي كرب إذ قد يحتمل أن لخبينة ينوف الوثني أو غيره طمع في عرش دولة حمير وخارب ملكا من ملوكها وقتله وحكم البلاد بعده برهة الى أن نأر أحد أفراد الأسرة التي كانت مالكة لذلك المقنول وأعاد النظام الى نصابه وأخذت المياه تجري في مجراها

وهذا الفرض لو رجحت صحته يؤيد بقية ما أشرنا اليه من اضطراب جبل الأمن بعد أن قتل حسن بن تبان أسعد

ومما يكن من شيء قد كملت مساعي الحبشة وجهودها ضد الدولة الحيرية المتهددة بالسباح وتم لها القضاء على هذه الدولة قضاء نهائيا

وقد اشترك يوسطين اشتركا فعليا في فتح اليمن لانه أرسل أسطول مصر البحرى مشحونا بالثون والأسلحة الى النغور اليمنية ويرجح بعض مؤرخى الافرنج أن جيوش يوسطين كانت معتزة أن تحتل اليمن بعد أن فتحتها الحبشة ولكن قوات الفرس أفلقت راحتها على حدود سورية فمنعتها من ذلك^(١)

بعد ان خصصت الحبشة شوكة الدولة الحيرية اليهودية في بلاد اليمن اتجهت نحو الوثنية تريد هدمها وكان من مجهوداتها في هذا السبيل بناء أبرهة لكنيسة القليس المشهورة في صنعاء ليصرف اليها حج العرب^(٢)

غير أن النساء وهم رؤساء الديانة الوثنية قلوبوا فكرته ووقفوا سدا في سبيل تحقيق غرضه فصمم أبرهة على تنفيذ فكرته بالقوة وخرج بجيش كبير الى مكة يريد هدم الكعبة وابطال عقائدها غير انه لم يوفق أيضاً لان جيشه انكسر اكسارا شنيعاً فعاد منهزما الى اليمن كما يحدثنا ابن هشام بأخبار هذه الحملة المعروفة بعام الفيل^(٣)

(١) Graetz جزء ٣ ص ٨٨

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣

(٣) ابن هشام جزء ١ ص ٤٧ — ٤٤

وقد أشار القرآن الى هذه الواقعة في سورة الفيل حيث يقول « ألم تر كيف
فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل
ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كغصف ما كول » .

وقد كان لانكسار البوالة الحيرية أمام الحبشة رنة أسمى شديدة في قلوب
اليهود فظهرت مع الزمن أقاصيص كثيرة وأساطير خرافية عن ابطال حمير ، فن
ذلك ما قيل ان أصل هؤلاء من بقايا أسباط بني اسرائيل البائدة وان هذه
الجيوش لم تغلب على أمرها بل رجعت على أعقابها الى داخل البلاد الرملية
وانها كونت في تلك الارحاء دولة عظيمة يظهر بطشها في اليوم الذي يتاح لها
فيه النضال ويؤذن لها بخوض المعارك

وقد كانت هذه الاقاصيص سببا في أن شرع جماعة من اليهود في القرون
الوسطى يرسلون الى بلاد العرب ليجتثوا عن تلك الجيوش التي توارت عن
العيون

الباب الثالث

بطون يثرب وهواستها وعداوتها باليهود

بطون يثرب وحوادثها وعلاقتها باليهود — تأثير انكسار الدولة الحميرية في حياة اليهود
ببلاد العرب — محرش الدولة الرومانية الشرقية باليهود في بلاد العرب — هجرة بطون
الايوس والمزرج الى جهات يثرب — اضطراب أقوال مؤرخي العرب في زمن هذه الهجرة
— نص ابن هشام — رأى صاحب الاغانى — رأى الاستاذ الخضرى بك — سيل الحرم
وزمن حدوثه — آراء المستشرقين فيه — نتيجة ابحاث العالم جلادى في هذا الموضوع —
سوء حال الايوس والمزرج — أوائل هجرتهم — وصف السهوى لليهود ويطون
الازد أثناء سيادة الوفاق والصفا بينهم — اخلاص الصفا الى عداة بين اليهود وبين الازد
وأسابه — قصة السهوى عن الملك اليطون — رأى المؤلف فيها — رأى صاحب
الاعانى في سب ظهور المداوة بين اليهود والعرب — من هو أبو جبيبة ؟ — لماذا تزعج
أبو جبيبة لمحاربة يهود يثرب ؟ — هل كانت هناك مخالفة بين بطون الازد وملوك فسان ؟ —
الارتياح في صفة قصة أبي جبيبة واسطفاة لليهود يثرب — ملوك فسان والدولة الرومانية
الشرقية — الكفاح للعنف بين اليهودية والصراية في الجزيرة — يوم بعث — قيمة
حوادث يوم مات — حياة العرب في الماهلية — نتائج يوم بعث

يقول العلماء ان النكبة الشديدة التي رزلت باليهود في بلاد حمير قد أنتجت
نتائج سيئة لم يكن في الامكان أن تحدث لولا هذه النوائب
وأهم هذه النتائج الخمس العناصر النصرانية التي كانت تعتمد على مؤازرة
الدولة الرومانية ضد الديانة اليهودية وتحركها لهدم كياناتها والقضاء على أصولها
ومبادئها في جميع أنحاء الجزيرة العربية وتهدم طمع القبائل العربية في أموال اليهود
ومستعمراتهم ورغبتهم في الحصول عليها والاستئثار بها

وقد كانت القبائل العربية قبل ذلك أى فى العصر الذى نمت فيه اليهودية فى بلاد اليمن وانتشرت بين سكانها لا تجرؤ مطلقا سواء منها الحضرى والبدوى على أن تمس اليهود بأذى فى شمال الحجاز أو نصيبهم بأذى ضرر بل بالعكس تسرب نفوذ اليهودية فى ذلك الشطر من الزمن بين الاعراب حتى صاروا يدخلون فيها زرافات ووحدانا مما حمل بعض المستشرقين من أنصار Wustenfled على الاعتقاد بأنه قد ظهرت فى يثرب دولة يهودية امتد سلطانها السياسى حتى شمل شمال الحجاز بأجمعه

ولكن الواقع ان هذا رأى مبالغ فيه اذ ليس عندنا مصادر موثوق بها تؤيد وجود دولة يهودية فى شمال الحجاز اللهم الا اذا استثنينا قصة خرافية عن الفيطون ملك يثرب^(١) وليس لها فى الواقع ظل من الحقيقة كما سيأتى بيانه

ونريد قبل ان نوفى حوادث اليهود مع العرب فى شمال الحجاز حقها من التفصيل والبيان أن نوجه الانظار الى البطون العربية المجاورة لهم وهى التى نلم بأخبارها بعض الالمام . يقول ابن هشام عن هجرة الاوس والخزرج الى جهات يثرب : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن انه رأى جرّذا يحفر فى سد مارب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أراضيهم فلم انه لا بقاء لاسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكداد قومه فأمر أصغر ولده اذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم اليه فيكطّيه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن اغتسموا غصبة عمرو فاستروا منه أمواله وقالت الاردا لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين برتادون البلدان محاربتهم عك فكانت حربهم سجالاتهم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان

فَنَزَلَ آلُ جَفْنَةَ الشَّامِ وَنَزَلَتِ الْاَوْسُ وَالْخَزْرَجُ يَتْرَبُ وَنَزَلَتِ خَزَاعَةُ مَرَأً . . . (١)
 وَيُتَضَحُّ لَنَا مِنْ قِصَّةِ ابْنِ هِشَامٍ أَنَّ نَزْوَجَ الْاَوْسِ وَالْخَزْرَجِ إِلَى جِهَاتٍ يَتْرَبُ
 حَدَّثَ قَبْلَ سَبِيلِ الْعَرَمِ لَكِنْ صَاحِبُ الْأَعْلَى يَعْتَقِدُ أَنَّ خُرُوجَ الْاَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ
 حَدَّثَ بَعْدَ سَبِيلِ الْعَرَمِ وَيَقُولُ: لَمَّا أُرْسِلَ اللَّهُ سَبِيلَ الْعَرَمِ عَلَى أَهْلِ مَارِبٍ وَهُمْ الْأَزْدُ
 قَامَ رِائِدُهُمْ فَقَالَ مَنْ كَانَ ذَا جَمَلٍ مَفْنٍ وَوُطْبٍ مَدْنٍ وَقَرِيَّةٍ وَتَنْ فَلَينَقَلِبُ عَنْ
 بَقَرَاتِ الْعَقَمِ فَهَذَا الْيَوْمُ يَوْمٌ هُمْ وَلِيْلِحُقْ بِالنَّثَى مِنْ شَنْ فَكَانَ الَّذِينَ نَزَلُوهُ أَزْدُ شَنْوَدَ
 ثُمَّ قَالَ لَهُمْ وَمَنْ كَانَ ذَا فَاقَةٍ وَقَرٍّ وَصَبْرٍ عَلَى أَزْمَاتِ الدَّهْرِ فَلِيْلِحُقْ بِيَعَانَ مِنْ فَكَانَ
 الَّذِينَ سَكَنُوهُ خَزَاعَةُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الْخَرَّ وَالْخَيْرَ وَالْأَمْرَ وَالنَّأْيَ
 وَالْدِّيْبَاجَ وَالْحَرِيرَ فَلِيْلِحُقْ بِيَصْرَى وَالْحَضِيرِ وَهِيَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ فَكَانَ الَّذِينَ
 سَكَنُوهُ غَسَّانٌ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ ذَا هَمٍّ بَعِيدٍ وَجَلٍّ شَدِيدٍ وَزَادَ جَدِيدٍ
 فَلِيْلِحُقْ بِقَصْرِ عَمَانَ فَكَانَ الَّذِينَ نَزَلُوهُ أَزْدُ عَمَانَ ثُمَّ قَالَ وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ الرَّاسِخَاتِ
 فِي الْوَحْلِ وَالْمَطْعِمَاتِ فِي الْحُلِّ فَلِيْلِحُقْ بِيَتْرَبُ ذَاتِ النُّحْلِ فَكَانَ الَّذِينَ سَكَنُوهَا
 الْاَوْسُ وَالْخَزْرَجُ . . . (٢)

وَأَمَّا الْأَسْنَادُ الْفَاضِلُ الْخَضِرِيُّ بِكَ فَيَرْجِعُ الرَّأْيَ الْآخِرَ لِسَبِيحِينَ

(١) لِأَنَّ مَفَارِقَةَ الْبِلَادِ عِنْدَ النَّفْسِ عَدْلٌ مَفَارِقَةُ الرُّوحِ وَكُلَاهُمَا أَمْرٌ مَكْرُوهٌ
 شَنِيعٌ فَيُبْعَدُ جَدًّا أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ شَخْصٌ هُوَ وَأَوْلَادُهُ وَعَشِيرَتُهُ لِحُجْرٍ لَا يَقْطَعُ
 أَمَلًا خُصُوصًا أَنَّهُ سَآئِرٌ إِلَى بِلَدٍ لَمْ يَخْبِرْهُ

(٢) وَرَدَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ عَلَى هَذَا النُّحْوِ «لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي
 مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كَلَاوَا مِنْ رِزْقِ رَبِّكَمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ
 وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَبِيلَ الْعَرَمِ وَبَدَلْنَا لَهُمْ جَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي
 أَكْلٍ خَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سَدَرٍ قَلِيلٍ » فَهَذَا وَاضِحٌ فِي أَنَّ سَبِيلَ الْعَرَمِ أَصَابَهُمْ

(١) ابْنُ هِشَامٍ حَرْفٌ ١٠ ص ١٢

(٢) الْأَعْلَى جُزءٌ ١٩ ص ٩٥

وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها . . . (١)

• والتسليم بأحدى النظريتين المفروضتين في سبب خروج بني الازد من اليمن لا يجدينا نفعاً في المعضلة الجوهرية وهي تعيين زمن حدوث سيل العرم فالراجع العربية لا تأتينا بشيء قليل أو كثير عن زمن وقوع هذه الحادثة الطبيعية المهمة في بلاد اليمن وكان الرأي السائد عند المستشرقين أن سيل العرم حدث في عصر قديم في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد وكانت هناك طائفة من علماء الافرنج تعتقد أن كل الروايات التي جاءت عن سيل العرم إنما هي خرافات وأباطيل واستمرت هذه الطائفة مقتنعة برأيها هذا حتى ظهرت بحوث العالم المحقق Glaser في سنة ١٨٩٦ حيث قرر ارتكائاً على منقوشات جلبها من أرض اليمن أن السيل قد حدث فعلاً ولكن لم يحدث في مدة واحدة بل تكررت نوابه مرات عديدة أما سببه فلا يرجع الى الطبيعة من حدوث أمطار غزيرة في مرات متوالية فحسب بل كان نتيجة إهمال شديد لهذا السد العظيم نشأ عن فتن داخلية بين الاقوال من جهة وإغارات متوالية من الخارج من جهة أخرى ولما تطاولت الازمان على السد مع هذا الإهمال الشديد تصدعت جوانبه شيئاً فشيئاً ووهت أركانه قليلاً قليلاً

فلما حدث سيل العرم الأول في سنة ٤٤٧ ب . م الذي استمر الى سنة ٤٥٠ تنبه القوم الى الخطر المحقق بالسد فاهتموا بأمره وأصلحوه من شأنه ولكن لم تعد له منعة القديمة فلم يحتمل السيول المتواردة رماً طويلاً واکسر ثانياً سنة ٥٣٢ ب . م (٢)

بعد هذه التحقيقات الجلية رال الشك من النفوس في صحة روايات سيل

(١) تاريخ الامم الاسلامية جزء ١ ص ١٨

(٢) راجع كتاب Zwei Inschriften über den Dammbruch von Mareb

M. d. v. G.

العرم وانحى كل ريب في حدوده ومال بعض المستشرقين الى الجرم بأن نزوح البطون الأزدية حدث بعد سيل العرم^(١)

ولكن من المتعذر على الباحث الذى يحمل في يده مصباح عقله أن يقتنع بأن جميع البطون الأزدية هاجرت الى شمال الجزيرة بسبب واحد هو سيل العرم بل دائماً يرى أنه من المحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى اجتمعت مع سيل العرم أو انفردت دونة واضطرت، بعض هذه البطون الى ترك وطنها والمهجرة الى الأرجاء النائية عنه

على أنه يخيل الى أن المؤرخين أسرفوا في التكبير من شأن سد مأرب وهو لما رافى النتائج التى ترتبت على انكساره بالغة كبيرة اذ كان هذا السد فيما نعلمه من أبحاث ياقوت في معجم البلدان قديماً ومن مجهودات قريجة جلازر Glaser حديثاً يسقى ربوة من الأرض لم تكن مسكناً لكل بعاون الازد

ويرجح رأينا هذا ما نجده في جميع الروايات التى تضمنت حوادثه وأخباره من الغموض والابهام والقص الظاهر في البيان والتفصيل مع انه حدث حوالى قرن واحد قبل الاسلام وقد تراكت بشأنه القصص والأساطير حتى صارت عرضة لان يشك العلماء في صحتها جميعاً ولم يرجعوا عن شكهم الا بعد ان ظهرت أبحاث العالم جلازر Glaser

واذا كان هذا شأن حادثة وقعت قبل الاسلام بقرن واحد فماذا يكون شأن الحوادث التى وقعت قبل سد مأرب بنحو خمسة قرون أو أكثر؟ ..

وهل يمكننا أن نول على أخبارها التى ذكرت في السيرة وفي الطبرى وفي الواقدي ونستنتج منها نتائج ننظم بها أبحاثنا في تاريخ الجاهلية؟ ...



من المتعذر علينا إذاً أن نعين الزمن الذى وصلت فيه الأوس والخزرج الى
جهات يثرب فلنكتف بما قلله القدماء من أنهما من أزد اليمن وأنه قد وجهت هناك
بطون من اليهود قبل وصولها الى يثرب

يقول لنا صاحب الأغاني « فلما توجه الأوس والخزرج ووردوها نزولاً في
حرار ثم تفرقوا وكلت منهم من لجأ الى عفاء من ارض لا ساكن فيه فزلوا به
ومنهم من لجأ الى قرية من قرأها فكأنوا مع أهلها فأقامت الأوس والخزرج
في منازلهم التي نزوها بالمدينة في جهد وضيق في الماش ليسوا بأصحاب نخل وزرع
وليس للرجل منهم الا الاغداق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات
والأموال لليهود فلبث الأوس بذلك حيناً . . (١)

وأقام اليهود والعرب مدة طويلة يسود بينهم الوثام والولوق دون أن يحدث
ما يكدر أو يفرق بينهم

فكانت السلطة في أيدي اليهود ومواليهم من البطون العربية وكانت
الأوس والخزرج تشغل في الدوائر الزراعية اليهودية ومنهم من كانوا يشتركون
مع اليهود في قوافلهم التجارية

ويحدثنا السهودي عن حالة اليهود والازد في دور سيادة الوثام والولوق
بينهم فيقول : . . وقد وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدي اليهود
والعدد والقوة معهم فكشوا ما شاء الله ثم سألهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً
يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاملوا ولم يزالوا
كذلك زماناً طويلاً وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد وخافت قريظة
والنضير أن يغلبهم على دورهم فتمروا لهم حتى قطعوا الحلف . . . فأقموا خاتمين
أن تجلبهم اليهود حتى نعيم . . . منهم مالك بن العجلان . . . (٢)

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٦

(٢) خلاصة الوثام ص ٨٣

ودار الدهر دورته وظهرت القتين والمعدلوات بين اليهود والأوس والخررج غير أن المصادر العربية لم توافقنا بالأسباب الكافية لهذا التغير واليك ما يقوله السهمودي : وكانت لا تهدي عروس الحيين حتى تدخل على الفيظون ملك اليهود فيكون هو الذى يفتنهما فتزوجت أخت مالك رجلاً من قومه فيينا مالك فى النادى اذ خرجت أخته فضلاء فنظر إليها أهل المجلس فشق على مالك فدخل وعنفها فقالت ما يصنع بى غداً أعظم أهدي الى غير زوجى فلما أمسى استمل على السيف ودخل متنكراً مع النساء وقتل الفيظون وانصرف لدار قومه . . . (١)

ويؤخذ من هذه القصة الملققة أن السهمودي وأمثاله لم يكن عندهم إلمام كاف بحياة العرب فى الجاهلية بل كانوا يعتبرونهم متوحشين همجين لا يعرفون من النظم الاجتماعية شيئاً ولا يفهمون من الآداب قليلاً ولا كثيراً ولا يتقادون إلا لما يدعو اليه الخرق والسفاهة

ولا شك أن قولاً كهذا ليس إلا طعنًا فاحشاً فى قبائل العرب فى الجاهلية وانكاراً شنيعاً لما هو معروف عنهم من الانفة والفيرة وإياء الضيم والشجاعة والبسالة الى حد التضحية بكل شىء فى سبيل العرض وحفظ الشرف والكرامة

ومن جهة أخرى فتل هذا القول لا يمكن أن يكون له نصيب من الصحة لأن يهود الحجاز إنما كانوا أصحاب دين سماوى يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وليس من المعقول أن ملكاً يهودياً يرتكب جريمة منكرة كهذه تناقض روح التوراة وتخالف الايمان بآله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة وانكاراً شديداً من شعبه وأبناء جلدته

على أن اختلاق هذه القصة يظهر جلياً متى علمنا أنه لم يوجد ملوك من اليهود فى يثرب

ونرجح أن الباعث على اختلاق هذه القصة وتلقبها إنما هو محاولة إخفاء

الحقيقة في حادثة غدر ابن العجلان بجيرانه وسفكه الدماء الأبرار منهم كما سيأتى
تفصيل ذلك

ومن الغريب أن قصة كهنه تماماً يقصها الطبرى عن مسلم وجديس^(١) وذلك
يدل على أنها من الخرافات الشائعة عند أمم الشرق في قصصهم ونواريهم^(٢)
ولم يأت ابن هشام والواقدي وصاحب الأغاني بقصة الفيطون بل حدثنا
الأخير بخبر يبعثنا على التسائل والبحث في عوامل التغيير الذى طرأ فجأة على
ما كان بين اليهود والبطون العربية من المودة والوثام فقال « إن مالك بن العجلان
رحل الى أبي جبيلة النسائي وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه وعن منزلتهم
فأخبره بحالهم وضيق معاشهم فقال له أبو جبيلة والله ما نزل قوم منا بلداً إلا غلبوا
أهل عليه فما بالك؟ ثم أمره بالمضى الى قومه وقال له اعلهم أنى سائر اليهم فرجع
مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبي جبيلة ثم قال لليهود إن الملك يريد زيارتكم
فاعدوا نزلاً فأعدوه وأقبل أبو جبيلة سائراً من الشام في جمع كثيف حتى قدم
المدينة فقتل بنى حُرُص ثم أرسل الى الأوس والخزرج فدكر لهم الذى قدم له
وأجمع أن يمكر باليهود حتى يقتل رؤسائهم وأشرفهم وخشي أن لم يمكر بهم أن
يتحصنوا في أطامهم فيمتنعوا منه حتى يطول حصاره إليهم فأمر ببناء حائر واسع
فبنى ثم أرسل الى اليهود أن أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبق وجه من
وجوه القوم إلا أتاه وجعل الرجل يأتى معه بخاصته وحشمه رجاء أن يحببهم فلما
اجتمعوا يبابه أمر رجلاً من جنده أن يدخلوا الحائر الذى بنى ثم يقبلوا كل من
يدخل عليهم من اليهود ثم أمر حوايه أن يأذنوا لهم في الحائر ويدخلهم رجلاً
رجلاً فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك ويقتلهم الجند الذين في الحائر حتى أتوا
على آخرهم

(١) تاريخ الملوك والرسائل طبرى ج ٢ ص ٣٧١

(٢) راجع كتاب الف ليلة وليلة (إليه الاولى)

وقد أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم فقال مالك بن
المجلان والله ما أتخنا اليهود غلبة كما تريد فهل لكم أن أتصنع لهم طعاماً ثم
أرسل في مائة من أشراف من يقي من اليهود فإذا جاءوني فاقنلهم جميعاً فقالوا ففعل
فلما جاءهم رسول مالك قالوا والله لا نأتيهم أبداً وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل
فقال لهم مالك إن ذلك كان على غير هوى منا وإنما أردنا أن نمحوه وتعلموا
ما لكم عندنا فأجابوه فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك بن المجلان
قتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلاً ثم إن رجلاً منهم أقبل حتى قام على باب
مالك فتسمع فلم يسمع صوتاً فرجع وحذر أصحابه الذين بقوا فلم يأت منهم أحد...
وصورت اليهود مالكا في بيعتهم وكنائسهم فكانوا يلعنونه كلما دخلوها... فلما
قتل مالك من اليهود من قتل ذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفاً شديداً وجعلوا كلما
هاجم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم الى بعض كما
كانوا يفعلون قبل ذلك ولكن يذهب اليهودى الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم
فيقول إنما نحن جيرانكم ومواليكم فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا الى بطن
من الأوس والخزرج يتعززون بهم... (١)

وقد يكون من المتعذر ان يقبل المؤرخ هذه القصة على علاها إذ لا شك في
أن اليهود كانوا يخترسون من عمال ملوك الروم كل الاحتراس وكان المعروف
فوق ذلك عن يهود الحجاز أنهم على جانب عظيم من الفطنة والذكاء. وانهم ذوو
قوة وبطش فلو أن أمراً كهذا وقع فعلاً لأمكنهم أن يجاروا الأوس والخزرج
ويضموا الى جانبهم في هذه الحرب جميع البطون العربية المجاورة لهم والتي لم
تكن تضر لليهود شراً

على أن أبا جبيلة هذا الذي يقول صاحب الأغاني انه كان ملكاً لم يكن من

سلالة ملوك غسان الذين كانوا من بني جفنة ولم يتول عرش غسان من عبر بني جفنة الا أبو جبيلة والحارث الأعرج اللذان يذكر ابن خلدون في موضع من كتابه ان الروم ملكوها عرش الشام^(١) وان كان يذكر باسم أبي سعد أن الأعرج لم يكن ملكا وانما كان قائدا ولم يذكر أبو جبيلة البتة^(٢)

وعلى فرض ان أبا جبيلة والحارث بن الأعرج توليا العرش حقا فلسنا نعلم ما هي الاسباب التي حلت قياصرة الروم على تولية ملكين من غير سلالة آل جفنة ثم ارجاع العرش الى هذه الاسرة ثانيا لان آخر ملوك غسان كان من بني جفنة وهو جبلة بن الایهم الذي أسلم بعد ان فتح المسلحون الشام ثم ندم ورجع الى دين آباءه ودخل الى بلاد الروم^(٣)

من أجل هذا نرجح ان أبا جبيلة لم يكن من ملوك غسان ولكن اذا صحت الرواية عن حادثته مع يهود يثرب فمن المحتمل انه كان قائدا ذهب بإيعاز من سيده لمنازلة اليهود ويحتل أيضا من ناحية أخرى أن تكون الاوس والخزرج قد أرادت أن تعقد حلفاً مع بعض قبائل الشمال لأن الحلف التي عقدت بينهم وبين اليهود لم تعد حائزة كل رضاهم بعد ان رسمت أقدامهم في البلاد وبعد ان اطمأؤوا اليها وانبعثت في قلوبهم للطامع الكبيرة والآمال الواسعة

نعم ان الحلف كانت في مصلحتهم أول الأمر لأنهم لم يكونوا يطلبون الا أن يعيشوا فلم يكن يسوؤهم أن تبقى الدوائر الزراعية والحركة التجارية في أيدي اليهود وحدهم وأن يكونوا هم معهم كعمال ومساعدين أما الآن فقد امتدت أنظارهم الى أكثر من هذا

ولم يكن أمامهم من سبيل لتحقيق هذه الآمال والمطامع الا أن يتخلصوا

(١) ابن خلدون جزء ٢٠ ص ٢٨٢

(٢) ابن خلدون جزء ٢٠ ص ٢٨٥

(٣) ابن خلدون جزء ٢٠ ص ٢٨١

من حلف اليهود ولم يكن سبيل التخلص من هذه الحلف ممكن إلا إذا اعتمدوا على حلف أخرى يضمنون بها لأنفسهم النفوذ إذا ثارت الثائرة بينهم وبين اليهود وقد رأوا الفرصة سانحة لمقد محالفة مع ملوك غسان الذين كانوا يقودون حركة المنافسة الشديدة والنضال العنيف الموجه من النصرانية ضد اليهودية وبطبيعة الحال كان ملوك غسان يرغبون في هذه المحالفة مع الاوس والخزرج بل ويسعون اليها ليتسكنوا بها من القضاء على اليهودية في بلاد الحجاز

وعلى كل حال فقد وجدت علاقات حسنة بين الطرفين كما يؤخذ من قصيدة المدح التي قالها حسان بن ثابت في ملوك بني غسان والتي يقول فيها

لله در عصاة نادتهم يوما يجلق في الزمان الاول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم الفضل
يسقون من ورد البريص عليهم بردي يصعق بالرحيق السلسل
يعشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة احسابهم شم الانوف من الطراز الاول^(١)

ولكن هذا كله لا يتبنت صحة ما روى عن أبي جبيلة اذ من الممكن جدا أن تكون العلاقات الحسنة بمثابة التمهيد من جانب ملوك غسان بعد التعرض لتجار البطون النيربية الذين كانوا يجولون في أنحاء سورية

ومن الممكن أيضا أن تكون هناك علاقات كهذه بين اليهود وبين بني غسان نظرا للمصالح التجارية العظيمة التي كانت لليهود في بلاد غسان^(٢)

وهناك أمر آخر يزيدنا شكاً في صحة قصة أبي جبيلة ذلك أننا لا نجد

(١) الاغانى جزء ١٤ ص ٢٠٢ ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٠

(٢) تاريخ الخبيس جزء ٢ ص ١٣ (ابو القفاص الحيرى يرسل قوافله الى بلاد الشام

بينها وبين يوم بعث الذى جاء بعدها أية صلة أو ارتباط بل على العكس من ذلك نستنتج اعتماداً على الاخبار المفصلة التى وصلتنا عن يوم بعث ان اليهود كانوا ممنوعين بجميع حقوقهم السياسية والاجتماعية وكانت زراعتهم وأطعامهم وأموالهم كاملة غير منقوصة

ويقرر المؤرخ Graetz ان بطون الاوس والخزرج لم تصارع اليهود بالعداوة والمعصية الا بعد النكبة التى حلت باليهود فى اليمن اذ لا ينصور أن يضطهد اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ويتمصبون لدينهم ويناهضون كل من يناهضهم أو يعتدى عليهم^(١)

ويؤيد قول هذا العالم ما ذكره بعض مؤرخى العرب من أن الحجاز الشمالية كانت فى شبه تبعية لليمن فى عصر وجود حمير المتهودة وان واحداً من الاسرة المالكة فى اليمن كان يشرف على شؤون الطوائف المختلفة فى شمال الحجاز^(٢) وقد بقيت البطون العربية عصوراً طويلة على موالاة ومناصرة اليهود دون أن يظهر عليهم شئ يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل الى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكاييد وتحرض عليهم رعاء الاوس والخزرج ليفتكوا بهم والظاهر ان دولة بنى غسان لم تفعل هذا الا بايعار من الدولة الرومانية الشرقية التى أرسلت أسطولها لمساعدة الحبشة فى كفاحها ضد اليهود فى اليمن

وليس غريباً على هذه الدولة أن يحرص عاملها من ملوك غسان على أن يشيروا القن والدلائس ضد يهود الحجاز فسياستها هذه واضحة كل الوضوح فى الجزيرة العربية أنشاء القرن الخامس والسادس ب . م . وأماننا قصة فى كتاب السهمودى تستحق العناية لفهم السياسة الدينية عند زعماء النصارى فى الجزيرة العربية وهى ان مالك بن العجلان قد ذهب بعد قتاله للفيطون الى تبع الاصفر

(١) Graetz ج ٣ ص ٩١ وص ٤١٠

(٢) Perceval ج ٢ ص ٦٥٤ : ٥١

فشكا اليه ما كان من أمر يهود يثرب فعاذه تبع ألا يقرب امرأة ولا يمس طيبا ولا يشرب خرا حتى يسير الى المدينة وينزل باليهود . . (١)

ويعلق العالم Wüstenfeld الذى طبع كتاب السهودي على رواية تبع الاصر بقوله انه كان من اقبال الحبشة المنتصرين فى اليمن وانه ذهب لمحاربة يهود الحجاز مساعدة لابي جبيلة النسائي (٢)

وانى اتقل رواية السهودي عن تبع الاصر بنحفظ شديد دون أن أميل الى الاعتقاد بصحتها وانما تقلتها لانها توافق أقوال المستشرقين عن الخطوة السياسية التى اتبعتها الدولة الرومانية الشرقية فى الاقاليم العربية

ويعتقد العالم Wellhausen ان الكفاح بين النصرانية واليهودية فى بلاد الحجاز كان عنيفا جدا وان اغارات الدولة الفارسية على حدود البلاد الرومانية وقفت الملحمة الفاصلة لزمان ما ولولا ظهور الاسلام لاصبحت بلاد الجزيرة من الوجهة الدينية منقسمة باجمعا إلى قسمين يهودية ونصرانية (٣)

لم يصل اليانا من اخبار اليهود فى بلاد الحجاز بعد ان خمدت نار الفتنة بينهم وبين بطون الاوس والخزرج الا ما يعرف بيوم بعث

ويحدثنا صاحب الاغانى عن هذا اليوم العبوس بقوله : كانت الاوس قد استنوا أمرهم فى يوم بعث الى أبى قيس بن الامسلى الوائلى قسام فى حربهم وأكرها على كل أمر حتى شحَب وتغير ولبث أشهر لا يقرب امرأة وكانت الاوس قد استعانت بينى قريظة والنضير فى حروبهم التى كانت بينهم وبلغ ذلك الخزرج فبعثت اليهم ان الاوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب فان ظفروا بكم فذاك

(٣) خلاصة الرواء ص ٨٣

(٢) ويؤيد العالم Wellhausen أقوال Wüstenfeld فى مصمعه Skizzen und

Vorarbeiten Heft 4 ص ٨ — ١١

(٣) Skizzen 4 ص ١٢

ما تكرهون وإن ظفرت لم تم عن الطلب أبداً فتصبروا إلى ما تكرهون ويشغلكم من شأننا ما أتم الآن منه خالون وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين أخواننا فلما سمعوا ذلك علموا أنه الحق فأرسلوا إلى الخزرج أنه قد كان الذي بلفكم وانتمت الاوس نصرنا وما كنا لننصرهم عليكم أبداً فقالت لهم الخزرج فإن كان ذلك كذلك فابعثوا إلينا برهان تكون في أيدينا فبعثوا إليهم أربعين غلاماً منهم ففرقهم الخزرج في دورهم فكشوا بذلك مدة ثم إن عمرو بن النعمان البياض قال لقومه بياضة إن عامراً أنزلكم منزل سوء بين سيخة ومغارة وأنه والله لا يس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل ثم راسلهم إما أن تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها وإما أن تقتل رهنكم فهموا أن يخرجوا من ديارهم فقال لهم كعب بن أسد القرظي يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الرهن والله ما هي إلا ليلة يصيب فيها أحد امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن فاجتمع رأيهم على ذلك فأرسلوا إلى عمرو بن لا نسلم لكم دورنا وانظروا الذي عاهدتمونا عليه في رهننا فقوموا لنا به فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوه وأبى عبد الله بن أبي وكان سيداً حليماً وقال هذا عقوق ومأثم وبني فلست معينا عليه ولا أحد من قومي أطاعني وكان عنده في الرهن سليمان بن أسد القرظي وهو جد محمد بن كعب القرظي فغلى عنه وأطلق ناس من الخزرج نفرا فلهقوا بأهليهم فناوشت الاوس الخزرج يوم قتل الرهن مناوذة ضئيلة

واجتمعت قريظة والبصير إلى كعب بن أسد أخى بني عمرو بن قريظة ثم تأمروا أن يعينوا الاوس على الخروج فبعث إلى الاوس بذلك ثم أجمعوا أن ينزل كل أهل بيت من النبيت على بيت من قريظة والنضير فقتلوا معهم في دورهم وأرسلوا إلى النبيت يأمرهم بأتيانهم وتعاهدوا ألا يسلموه أبداً وأن يقتلوا معهم حتى لا يبقى منهم أحد فجاءتهم النبيت فقتلوا مع قريظة والنضير ثم أرسلوا

الى سائر الاوس في الحرب والقيام معهم على الخروج فأجابوهم الى ذلك فاجتمع
 الملا منهم واستنحك أمرهم وجدوا في حربهم ودخلت بينهم قبائل من أهل المدينة
 منهم بنو نعلبة وهم من غسان وبنو زعوراء وهم من غسان فلما سمعت بذلك
 الخزرج اجتمعوا ثم خرجوا وفيهم عمرو بن النعمان البياضي وعمرو بن الجموح
 السلي حتى جاءوا عبيد الله بن أبي وقيلوا له قد كان الذي بلغك من أمر الأوس
 وأمر قريظة والنضير واجتماعهم على حربنا وانا نرى أن تقا لهم فان هزمناهم لم
 يحرز أحد منهم معقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد

فلما فرغوا من مقاتلتهم قام عبد الله بن أبي خطيبا وقال ان هذا بنى منكم على
 قومكم وعقوق والله ما أحب ان رجلا من جراد لقيناهم وقد بلغني أنهم يقولون
 هؤلاء قومنا منعونا الحياة فيمنعونا الموت والله اني أرى قوما لا ينتهون أو يهلكوا
 عامتكم واني لأخاف ان قاتلوكم ان يصروا عليكم لبغيتكم عليهم قاتلوا قومكم
 كما كنتم قاتلونهم فاذا ولوا غفلوا عنهم فاذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا
 عنكم فقال له عمرو بن النعمان انتفخ والله مَحْرُك يا أبا الحارث حين بلغك حلف
 الاوس قريظة والنضير فقال عبد الله والله لا حضركم ابدا ولا أحد اطاعني ابدا
 ولكأني انظر اليك قتيلا تحملك أربعة في عباء وتابع عبد الله بن أبي رجال من
 الخزرج منهم عمرو بن الجموح الحرامى واجتمع كلام الخزرج على ان رأسوا عليهم
 عمرو بن النعمان البياضي وولوه أمر حربهم

ولبث الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ويجمع بعضهم
 بعض ويرسلون الى حلفائهم من قبائل العرب فأرسلت الخزرج الى جهينة
 واشجع فكان الذي ذهب الى اشجع ثابت بن قيس بن شمس فأجابه وأقبلوا اليهم
 وأقبلت جهينة اليهم أيضاً وأرسلت الأوس الى مزينة وذهب حضير الكنائب
 الاشهل الى أبي قيس فقام حضير فاعتمد قوسه فحرضهم وأمرهم بالجد في حربهم

وذكر ما صنعت بهم الخرج من التبيت واذلال من تخلف من سائر الأوس في كلام كثير . . .

فأجابه أوس الله بالذي يحب من النصرة والمؤازرة والجهد في الحرب وأما الأوس فاجتمعت يومئذ الى حضير بموضع يقال له الحياة فأجابوا الرأى فقال الأوس ان ظفرنا بالخرج لم ينبق منهم أحداً ولم قاتلهم كما كنا قاتلهم فقال حضير يا مشر الأوس ما مبيتكم الأوس إلا لأنكم تؤسسون الأمور الواسعة

ولما اجتمعوا بالحياة طرحوا بين أيديهم نمرأ وجعلوا يأكلون وحضير الكتائب جالس وعليه بردة له قد استمل بها الصماء ما يأكل معهم ولا يدنو الى التمر غضباً وحنفاً فقال يا قوم اعتدوا لأبي قيس بن الاسلت فقال لهم أبو قيس لا أقبل ذلك فاني لم أرأس على قوم قط إلا هزموا وتشاءموا برياستي وجعلوا ينظرون الى حضير واعتزلوه أكلمهم واستغاله بما هم فيه من أمر الحرب وقد بدت خصيائه من تحت البرد فاذا رأى منهم ما يكره من الفئور والتخادل تقلصتاً غيظاً وغضباً واذا رأى منهم ما يجب من الجهد والتشمير في الحرب عادت الحالمها وأجابت الى ذلك أوس مناه وجدوا في المؤازرة والمظاهرة وقدمت مزية على الأوس فانطلق حضير وأبو عامر الراهب بن صبي^(١) الى أبي قيس بن الاسلت فقالوا قد جاءتنا مزيته واجتمع اليها من أهل يثرب ما لا قبل للخرج به فما رأى ان نحن ظهرنا عليهم الانجاز أم البقية فقال أبو قيس بل البقية قال أبو عامر والله لو ددت أن مكاتهم نعلبا ضابحا فقال أبو قيس اقتلهم حتى يقولوا بربا كلمة كالوا يقولونها اذا غلبوا فتساجروا في ذلك وأقسم حضير ألا يشرب خرا أو يظهر ويهدم مزاحا ألم عبد الله بن أبي قيسوا شهرين يعدون ويستعدون ثم التقوا يبعث وتخلف عن الأوس بنو حارثة بن الحارث فبعثوا الى الخرج إنا والله

(١) وكان قد زعم في الماهلية ولس السوح وكان يقال له الراهب . ابن هشام جزء

ما تريد قتالكم فبيعنوا اليهم أن ابعثوا الينا برهن منكم يكونون في أيدينا فبيعنوا اليهم اثني عشر رجلا منهم خديج وبعث من أموال بني قريظة فيها مزرعة يقال لها قوري فلذلك تدعى بعث الحرب وحشد الحيان فلم يتخلف عنهم الا من لا ذكر له ولم يكونوا حشدوا قبل ذلك في يوم التقوا فيه فلما رأت الاوس الخزرج أعظموم وقالوا لحضير يا أبا أسيد لو حاجزت القوم وبعثت الى من تخلف من حلفائك من مزينة فطرح قوسا كانت في يده ثم قال انظروا مزينة وقد نظر الى القوم ونظرت اليهم الموت قبل ذلك . ثم حل وحملوا فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الاوس حين وجدوا مس السلاح فولوا مصعدين في حرة قوري نحو العريض وذلك وجه طريق نجد فقتل حضير وصاحت بهم الخزرج أين الفرار الا أن نجدا سنت أي مجنب يعيرونهم فلما سمع حضير طعن بسنان رجمه فغذه ونزل وصاح واعقراه والله لا أريم حتى أقتل فلف شتم يامعشر الاوس أن تسلموني فافعلوا فتقطعت عليه الاوس وقام على رأسه غلامان من بني عبد الاشهل فقاتلا حتى قتلا وأقبل سهم حتى أصاب عمرو بن النعمان رأس الخزرج فقتله لا يدري من رمى به الا ان بني قريظة تزعم انه سهم رجل يقال له أبو لابة فقتله فينا عبد الله ابن أبي يتردد على بغلة له قريبا من بعث يتحسس أخبار القوم اذ طلع عليه بعمر بن النعمان ميتا في عاءة له يحمله أربعة الى داره فلما رآه عبد الله بن أبي قال من هذا قالوا عمرو بن النعمان قال ذق وبال العقوق وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الاوس السلاح وصاح صائح يامعشر الاوس أسجحوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب فتناهت الاوس وكفت عن سلبهم بعد إيمانهم وسلبهم قريظة والنضير وجعلت الاوس تحرق على الخروج فخلها ودورها فخرج سعد بن معاذ الاتهلى حتى وقف على باب بني سلة وأجارهم وأوالم جراء لهم يوم الرعل وكان للحزرج على الاوس يوم يقال له يوم مفلس ومصرس وكان سعد ابن معاذ حل يومئذ جريحا الى عمرو بن الجوح فمن عليه وأجاره وأخاه يوم رعل

وهو على الاوس من القطع والحرق فكافأه سعد بمثل ذلك في يوم بعث وأقسم كعب بن أسد القرظي ليدلن عبد الله بن أبي وليحلقن رأسه تحت مزاحم فناداه كعب انزل يا عدو الله أنشدك الله وما أخذت منكم فسأل عما قال فوجده حقاً فرجع عنه واجتمعت الاوس على أن تهدم مزاحماً أطم عبد الله بن أبي وحلف حضير ليهدمه فكلّم فيه فأمرهم أن يريثوا فيه كوة وأفلت يومئذ الزبير بن ايس بن باطا ثابت بن قيس شماس أخا بني الحرث وهي النعمة التي كافأه بها ثابت في الاسلام يوم بنى قريظة ^(١)

وخرج حضير الكنايب وأبو عامر الراهب حتى أتيا أبا قيس بن الاسلم بعد المزة فقال له حضير يا أبا قيس ان رأيت ان تأتي الخزرج قصر اقصر اودارا دارا تقتل ونهدم حتى لا يبقى منهم أحد فقال أبو قيس والله لا فعل ذلك فضرب حضير وقال ما صميم الاوس الا لأنكم تؤسسون الامر أوسا ولو ظفرت منا الخزرج بمنلها ما أقولناها ثم انصرف الى الاوس فأمرهم بالرجوع الى ديارهم وكان حضير جرح يومئذ جروحاً شديدة ثم مات من الجراح التي كانت به

وكان يهودى أعمى من بنى قريظة يومئذ في أطم من أطامهم فقال لابنة له أشرفى على الاطم فانظرى ما فعل القوم فأشرفت وقالت أسمع الصوت قد ارتفع فى أعلى قورى وأسمع قائلاً يقول اضربوا يا آل الخزرج فقال الدولة اذاً على الاوس لا خير فى البقاء ثم قال ماذا نسمعين قالت أسمع رجالاً يقولون يا آل الاوس ورجالاً يقولون يا آل الخزرج قال الآن حى القتال ثم لبث ساعة ثم قال أشرفى فاصمى فأشرفت فقالت أسمع قوما يقولون نحن بنو صخرة أصحاب الرعل قال تلك بنو عبد الاشهل ظفرت . . . ثم وثب فرحاً نحو باب الاطم فضرب رأسه بحاق بابه وكان من حجارة فسقط فمات

وقال خفاف بن ندة يرى حضير الكاتب وكان نديمه وصديقه :
 لو ان المنايا حدن عن ذى مهابة ' لهبن حضيراً يوم أغلق دافعا
 أطاف به حتى اذا الليل جنه تبوأ منه منزلا متناعا . . .

اتانى حديث فكذبته وقيل خليك في للرسم
 فيباعين أبكى حضر الندى حضر الكتاب والمجلس
 ويوم شديد اوار الحديد تقطع منه عرى الانفس
 صليت به وعليك الحديد ما بين سلع الى الاعرس
 فأودى بنفسك يوم الوغى وتقى ثيابك لم تدنس . . . (١)

ولما كانت حوادث هذا اليوم قد جرت قبيل ظهور الاسلام بخمس سنوات
 قبل الهجرة وكان كثير من زعماء الأوس والخزرج واليهود الذين جالوا في ميدان
 الوغى قد أدركوا الاسلام حتى كان بعضهم أثر ظاهر في حوادث المدينة بعد
 هجرة النبي محمد إليها فلا شك أنه يوم حقيقى وأن أغلب ما قلنا من أخباره صحيح
 وللبخارى حديث يدل على الوقع العظيم الذى كان ليوم بعث في نفوس أهل
 يثرب « قالت عائشة دخل على رسول الله وعندي جاريتان تمنيان بفناء بعث
 فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فأنهرني وقال مرة الشيطان
 عند رسول الله (٢)

وقد ظل اليهود بعد هذا اليوم محتفظين بمكاتمهم بين القبائل العربية حتى

(١) الاغاني جزء ١٠ ص ١٠٤ - ١٠٩

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٢٥

ان الأوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حساباً كبيراً وكانت كل منهما تجهدها في أن تميلهم اليها ليساعدها في كفاحها ضد الأخرى

وكذلك تبين لنا من يوم بعث أن اليهود كانوا أهل نضال وكفاح وأنهم كانوا كالأعراب في قسوتهم وغلظتهم المروفتين عنهم في الجاهلية حتى ان بنى النضير وقرية أنحنوا في بنى قينقاع ومزقوا شملهم بسبب انضمامهم الى بنى الخزرج ليكونوا عوناً لهم على أبناء جلدتهم

وقد أظهر الربيع بن أبي الحقيق استنياه الشديد من تلك المعاملة الغليظة لبنى قينقاع فدكر مايب بنى النضير وقرية وكان الربيع من شعراء اليهود من بنى قرية وكان أحد الرؤساء في يوم حرب بعث وكان حليفاً للخزرج هو وقومه
قال :

سمت وأمسيت رهن الفرا ش من جرّم قومي ومن مكرم
ومن سقّر الرأي بعد النهي وعيب الرساد ولم يفهم
فلو أن قومي أطاعوا الحلي م لم يتعدوا ولم يظلم
ولكن قومي أطاعوا الفوا ة حتى تمكس أهل الدم
فاودى السفيه رأى الحلي م وانتسرا الأمر لم يرم...^(١)

وكان من نتائج يوم بعث أن ضعف روح العدوان والحقد في نفوس البطون البريئة حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم ويتدقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال

وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتاً حامياً على نار العداوة الكامنة في

(١) الاغانى جزء ٢١ ص ٦٢ واما ابن سلام الجمحي صاحب طبقات الشعراء فانه يقول ان الربيع بن ابي الحقيق من بنى النضير (ص ١١٠ طبع مصر) ونحن رجح رأى الجمحي على رأى صاحب الاغانى لانه لا يوضح لنا ان آل النضير ...
" ١

القلوب ليزيد في ضرامها ويعظم من أوارها سعى كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين لكف يده حتى لا تسلب السيوف من اغمارها وعلى العموم فإن يوم بعثت قد أضعف بطون يثرب قاطبة وأدخل فيها الميل إلى الانحداد حتى أرادت فيها يقال أن تملك عليها ملكاً من بني الخزرج كما يحدثنا ابن هشام « أن قوم عبد الله بن أبي قد نظفوا له الخزرج ليتوجه ثم يملكوه عليهم ثم جاء رسول الله إلى المدينة وانصرف القوم عن عبد الله ورأى أن الرسول قد استلبه لملكاً فلما أن رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصرأً على نفاق وضمن وكان لا يختلف عليه في شرفه اثنتان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين . . . (١)

فكان قلوب بني يثرب على اختلاف قبائلها وكثرة نزعاتها قد ستمت العداوة وكرهت حالة الجفاء والخشونة وتسمرت بالحاجة إلى من يخرجهم منها ويوجه عنايتهم إلى ما هو أكثر خيراً وأعظم نفعا

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٧٧

الباب الرابع

أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية في بلاد الحجاز قبل ظهور الاسلام

مسيرة النمو الادبي والاجتماعي للقبائل السياسية — بسط نفوذ الدين اليهودي في الحجاز — الفاية الاسرائيلية لا تميل الى ادغام الامم في اعتناقها — العوامل التي حالت دون انتشار اليهودية في الحجاز — قصص ابن هشام في ملغ تأثير اليهود في عقبة العرب — ملن بعض المستشرقين في صحة وجود صلة قرابة قديمة بين العرب واليهود — رد هذا الطعن بالادلة التاريخية وإبحاث بعض المستشرقين — عادة المختل عند العرب واليهود وهل اخذها العرب من اليهود ؟ — التسمي (ملة ابراهيم حنيفا) وعادة الحنان — الحنيفية في بلاد الحجاز — الجدل بين المستشرقين في هذا الموضوع — زيد بن عمرو بن قيسل والحنيفية — النساء عند العرب واليهود — الاصطلاحات الوثنية عند العرب وعلاقتها باللفظ العبرية — ضعف تأثير الديانة المسيحية في قلوب أهل الحجاز — حالة اليهود الاجتماعية والدينية بين العرب في الجاهلية — الحالة عند قبائل الحجاز قبل ظهور الاسلام — يوم الفجار وتناثره — النهضة الفكرية في بلاد الحجاز قبل ظهور الاسلام — قس بن ساعدة — امية بن ابي الصلت — استمداد القلوب العربية لقبول ديانة سهاوية جديدة

اذا أنعمنا النظر في التاريخ العام نجد النمو الادبي والتفكير الفكري في أمة من الأمم يمتد ويسمو الى الدرجات الرفيعة مع امتداد النمو السياسي وازدياد الرقي الى ذرى المجد بقوة السيف والبطش كما نراه يسقط تيناً فسيناً ويتدهور تدريجياً كلما تدهورت القوة المادية في تلك الأمة وضعف سلطانها وتكاد تكون هذه الظاهرة عامة وشاملة لكل الامم والشعوب ولكننا لانجدها حين نبحث عنها في يهود الجزيرة العربية اذ بعد ان انتصر الحبشيون على ملوك

حير اليهود و بعد ان أظهر أبو جيبلة الأوس والخزرج على يهود يثرب — اذا فرضنا صحة هذه الرواية — يبق سلطانهم الفكرى بوجه عام ونفوذهم الدينى بوجه خاص قوين سليمين لم تنل منها قوة أعدائهم الا قليلا

ولا شك أنه كان فى مقدرة اليهودية أن تزيد فى بسط نفوذها الدينى على العرب حتى تبلغ منزلة أرق مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الاسرائيلية لم عمل بوجه عام الى ارغام الامم على اعتناق دينها وان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود^(١)

ولسنا نعرف فى تاريخ اليهود أنهم أرغوا بقوة السيف أمة من الامم على اعتناق اليهودية اذا استثنينا حادثة واحدة ارغم فيها الملك اليهودى يوحنا هوركلوس طوائف بنى أدوم على اعتناق اليهودية صاغرين بعد ان استولى على بلادهم عنوة ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن اليهود كانوا يعتبرون بنى أدوم إخوة لهم فى الجنسية اذ لم تكن هناك بينهم فروق ظاهرة فى العقلية والتقاليد فلعلهم أرادوا بارغامهم اياهم على اعتناق اليهودية أن يزيلوا الفارق الدينى أيضاً...^(٢)

وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية فى الحجاز : فاليهودية كما نفهمها هى خلاصة القانون التلهودى بقائده وتعاليمه وطقوسه وهذا القانون الذى نشأ فى بيئة معينة وفى مدة قرون معينة والذى استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التى طرأت على اليهود مع التغير الاجتماعى والرقى الروحانى الذى طبع العقلية اليهودية بطابع جديد لم يكن يعرف فى العصور الاسرائيلية القديمة وقد نجم عن ذلك ان الذين أرادوا

(١) راسم التلود كتاب קידושין ע' وكتاب יבמות ס"ז

(٢) Klausmer ج ٢ ص ٧٢ وكتاب Simhoni ج ٢ ص ١٠٣

أن قبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودى وعقائده لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية ولا شك أن هذا كان من أهم الأسباب التى أدت إلى ظهور النصرانية فإن طوائف اليونان والسرمان المجاورة لفلسطين قد تأثرت بالدين الاسرائيلى وارتاحت لتعاليم التوراة فاعتنقت العقائد الجوهرية وآمنت بالمبادئ الأساسية ورفضت ما لا ياسب روحها القوي ولا يتفق مع عقائدها القديمة

كذلك وجدت هذه النفسية فى الجزيرة العربية اذ تأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية وأخذوا يخضعون لبعض الاصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر فلم ترض منهم اليهودية ذلك ولم تقربهم الى الله بل لم تفرق بينهم وبين بقية عبدة الأصنام لأنهم لم قبلوا التمسك بالسبت ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود

وهكذا صمم اليهود الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها الا اذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها دون أن يفصل بعضها على بعض على أن المسيحيين والمسلمين نحو هذا النوع كل من أراد أن يعتنق المسيحية أو الاسلام اذ لم يرص المسيحيون من شخص أن يعتنق بعض ما جاء فى الانجيل وينكر ما لم يوافق هواه وكذلك رفض المسلمون أن يدخلوا فى حظيرة الاسلام من آمن ببعض الكتاب وكفر بالعض الآخر

وهناك أمر آخر عاق انتشار اليهودية بين العرب ذلك ان التوراة والتلمود كلنا الانسان بتكاليف صعبة وربطاه بتقاليد كثيرة لم يألفها فلم يستطع العربى الذى لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة وعمر على نفسه أن قبل التقليد باغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهى المطبوعة على حب الاستقلال والحرية

ويقول الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : وهناك أمر آخر له خطر . وهو

ان اليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار من بين شعوب الارض . ولا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزات لشعب آخر ليس منهم . لهذا لا يقولون بأن الله يختار نبيا غير اسرائيلي . (راجع آية — ١ — وما بعدها من الاصحاح ١٤ تنبية) — اه

كنا قد ذكرنا في الفصول الماضية ان بطونا عربية كثيرة سكنت بجوار اليهود في يثرب وخيبر ووادي القرى ولكن الاختلاط والتأثير بين العرب واليهود لم يقف عند هذا الحد بل انه انتشر في أكثر أقاليم العرب عموما والحجاز خصوصا . كانت مستعمرات اليهود واقعة على طريق القوافل الآتية من الحجاز والعين قاصدة الى سورية والعراق وكان تجار العرب يأتون الى الاسواق اليهودية في شمال الحجاز ليتابعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم وكذلك كل اليهود يعرضون بضاعتهم في الاسواق التي كان العرب يقيمونها في جهات شتى فينتج عن التعاون الاقتصادي والاختلاط الاجتماعي تبادل في الآراء وجدال في الديانات

كان اليهود يفتخرون بدينهم ويقصون على الاعراب ما يعلمون من عظمة الله وجبروته وعن خلق الدنيا والجنة والنار والقيامة والبعث والحساب والميزان وكانوا يدكرون معائب الوثنيين ويمزقون أعراض الأصنام جهرا كما يتحدث ابن هشام اذ يقول « كان سلة من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بن عبد الأشهل قال فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بني الأشهل وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا على بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون ان سنا كائن بعد الموت فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى ان هذا كائن ان الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم قال نعم والذي يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ثم

يسخلونه اياه فيظنونونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً فقالوا له ويحك يا فلان فما آية ذلك قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده الى مكة واليمن....^(١)



يوجد عند بعض الباحثين ميل الى اعتقاد أن اليهود تعمدا نشر قصص التوراة والتلمود بين العرب لأسباب سياسية ودينية وأنها في حقيقة الأمر ميسرة لفهم اليهود للعرب تزلزلاً اليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والألفة بينهم » ويقول أحد هؤلاء العلماء : « . . . ان هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة اذ لوحظ عليهم كثيراً أنهم متى رأوا المصلحة في التودد الى قوم قالوا لهم أنتم اخواننا ونحن وأنتم صنوان . . . وظلوا منذ ذلك العهد الى ظهور الاسلام وهم يبدلون جهدهم في اشراك العرب عقيدة أنهم جميعاً ذرية أب واحد حتى نجحت فيهم هذه الأكذوبة التي كان العرب أجمل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق

ولما ظهر النبي محمد رأى المصلحة في اقرارها فأقرها وقيل للعرب انما هو يدعوهم الى ملة ابراهيم . . .^(٢)

والتأمل في هذه النظرية التي يتم منها رائحة الطعن في ديانة سماوية يرى أنها مجردة عن الصحة وليس فيها من الحقيقة التاريخية عين ولا أثر ويؤكد فسادها ما يأتي .

(١) ان اليهود كانوا يقصون على العرب الاقاصيص المذكورة في التوراة والتلمود كما هي دون أن يزيدها عليها تزيئاً من عند أنفسهم

(٢) اذا وجد الميل عند بعض المستشرقين الى انكار وجود الآباء الأقدمين لبني اسرائيل من ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب فانهم لا يستطيعون أن

(١) ابي هشام جزء ١ ص ٢١٣

(٢) مقالة في الاسلام من كتب المبشرين ص ١٨

ينكروا وجود قبائل بني اسرائيل وقبائل بني اسماعيل لأن التوراة نصت على وجودها في طورسينا والحجاز بما ذكرته من الحوادث التي وقعت بين بطون اسماعيلية وأدومية واسرائيلية ولا شك أن هذا كاف لإثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طورسينا والحجاز

وقد عثرت على نص في التوراة يؤيد نظريتي في هذا الصدد ولكن مضطر إلى أن أترجم هذا النص ترجمة عربية جديدة لأن تراجم التوراة العربية والافرنجية قد أخطأت في تفسيرها الحقيقي وهذا هو النص العبري : *וישכנו בני ישראל مع אחיהם* (בני ישראל) *מחוריה עד שור אשר על פני סעדים באכה אשורה עד פני כל אחיו* (١) ومعناه : ونزلت (بطون بني اسماعيل) مع نسلها (٢) بين اخوتها واستوطنت البلاد من الحولة الى طريق القوافل بين مصر والعراق

(٣) قرر علماء الافرنج جميعاً أن علاقة بطون بني اسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز وطورسينا أقرب منها الى قبائل بني اسرائيل الشمالية كل هذا يوضح انه لم تكن لليهود الحجاز ضرورة لاختلاق الأباطيل (٣)

وأما الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النحار فيقول : لو أن اليهود كانوا في تلك الأزمان المنصرمة يستغلون القرابة يخترعونها لتكون رباطاً بينهم وبين قوم برحون منهم نفعاً أو يخشون منهم صراً أو خفياً لكان الأجدر بتلك القرابة الرومان والفرس أي الأمم التي تعاقب حكمها عليهم في الأزمنة المختلفة . ولكنهم لم يترحموا شيئاً من ذلك ودعوى انهم يفعلون ذلك مع الأمم كلها رحوا نفعاً أو خافوا خفياً دعوى لا نظن ان من يدعيها يقدر أن يقيم أدنى برهان عليها

(١) التكملة فصل ٢٥ / ١٨

(٢) راجع في نهاية هذا الباب عن النساء ص ٨١

(٣) Israel's settlement in Canaan ٢٧ — ٣٤

وأعجب ما يضرب له السامع لأولئك الطاعنين في اليهود بهذه الفرية أن يكون اليهود يحترعون تلك الاسطورة زلفاً لقريش أو العدنانيين في حين أنه ليس ثمة من صلات بين اليهود وقريش تجعل الأولين برهبون سطوة الآخرين ويرجون خيرهم لبعد الشقة بين مواطني الفريقين ولم يعد أحد ولم يروروا في القديم ولا في الحديث أن اليهود استعانوا قريشاً في حرب من حروبهم أو غزوة من غزواتهم معتمدين على صلة القرابة واتحاد الدم أو على صلة أخرى من الصلات التي تكون بين الشعوب المتقاربة أو المتباعدة

ولو أن اليهود يتجرون بأحمة القرابة النسبية ويستغلونها للمصلحة يجلبونها أو المضرة يدفعونها لكان الأليق بهم والأجدر أن يحترعوا تلك القرابة بينهم وبين الأوس والخزرج الذين يتأخونهم ويشاركونهم في المواطن والمرافق ويرتبطون معهم بربط المعاملة والجوار . فكيف يتركون هؤلاء المجاورين لهم ويحترعون أسطورة يلقونها تربطهم بقوم بعيدى الدار لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً

نقى أمر آخر له أهمية في هذا الموضوع: وهو أن أسفار التوراة ترجعت الى اليونانية في عهد بطليموس فيلادلتوس . وهو ثاني ملك من البطالسة في مصر ويوافق حكمه أوائل القرن الثالث قبل المسيح وفي صلب تلك الترجمة كل النصوص التي تنص على ارتباط العرب الاماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود وذلك قبل رحيل يهود يثرب الى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون . فهل كان اليهود يعلمون ما مستحدثه الأيام وانهم بعد أربعة قرون أو أكثر سيصيرون الى بلاد العرب ويتخذونها دار مقام لهم . ثم أنهم سوف يحتاجون الى ربط أنفسهم برابطة النسب مع قوم من العرب لا يخالطونهم في الدار وليس بينهم وبينهم حلف أو جوار فأعدوا ذلك قبل ترجمة التوراة الى اليونانية وكذبوا تلك الأكتوبة سلفاً وقبل الاحتياج اليها بقرون متطاولة . اذا قل أولئك الطاعنون على اليهود : نعم ، فليس لدينا ما نحييهم به سوى قول القائل :

من كل ما يخلق ما يقو ل فيخلق فيه قليلة اه —

ومما يكن من الأمر أن اتصال العرب باليهود قد أدى الى تغيير جوهرى فى عقلية المضرو والبادية بالحجاز وظهرت هناك نظم جديدة طرأت على شؤونهم الاجتماعية وتسربت الاصطلاحات من العبرية الى العربية وإني أشير هنا الى بعض التغييرات التى يعتقد العلماء انها ظهرت فى الحجاز بعد وصول اليهود اليها فى طورم الثانى ...

لا شك فى أن عادة الختان لم تسر من اليهود الى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور غابرة ويستدل العالم (Wellhausen) ^(١) بوجود قبائل متوحشة حتى فى أفريقيا كانت تألف هذه العادة

ولست أنكر صحة هذا الرأى لأن التوراة توضح لنا أن بنى إسرائيل قد جاءوا بالختان من موطنهم الاصلى فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت دائمة عند قبائل أخرى مجاورة لبنى إسرائيل فى الصحراء

غير أن هناك اعتباراً آخر لم يمن العلماء نظرم فى فحصه ربما يرشدنا الى اكتشاف تأثير اليهود على العرب فى عادة الختان

كان الاصطلاح « مله ابراهيم حنيفا » ^(٢) شائعاً عند العرب قبل ظهور الاسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكرى العرب لم تكن عبادة الأوثان تعجبهم وكانوا يرون أن التقرب الى الله بالحجارة أمر لا قيمة له

لا أريد أن أعود الى اقوال مفسرى القرآن فى هذه العبارة ولكن أجتهد فى أن أصل الى تفسير جديد لهذا الاصطلاح

(١) Skizzen & Vorarbeiten H III ١٤٥ م

(٢) ابن هشام جز ١٠ م ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢١

يعرف العضو التناسلي بعد ختانه في العبرية باسم *مِلَّة* (מילה) كما أن له اسماً خاصاً قبل ختانه وهو *غرلة*

وبما أن الختان من أصول الدين الاسرائيلي^(١) فقد عبر الناموس الديني عن كل من اختن أنه دخل في ذمة وعهد ابراهيم الخليل *בריתו של אברהם* ومن هنا أطلق اليهود على كل من اختن التعبير « *ملة ابراهيم* » وهذا اللفظ يقوله العاخر للطفل عند ما يعذره والحاضرون يؤمنون (*עונים אמר*)

ولكن من حيث أن الختان وحده لا يؤدي الى الايمان باليهودية لأن هناك شروطاً أخرى لا بد من توفرها كاعلان الدخول في الديانة التوحيدية الاسرائيلية واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه فقد أطلق اليهود على كل من يختن دون أن يعتنق اليهودية اسم *حنيف* *חניף*^(٢) غير الصالح أي الختان الغير الوافي بالشروط اليهودية وقد جاء في لسان العرب وكان في الجاهلية يقال من اختن وحج البيت حنيف القراء الحنيف من سائتة الختان ... الجوهرى الحنيف المسلم وقد سمى المستقيم بذلك كما سمى الغراب أعور وتحنف الرجل أى عمل عمل الحنيفية ويقال اختن

وفيه أيضاً : أبو عمرو الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير ومن ذلك كله يمكننا أن نقول إن الحنيف في الأصل هو المائل الى الشركا هو عند اليهود في لثتهم والعرب قد يطلقون اللفظ على الشيء وضده فأطلقوا الحنيف على المستقيم على *ملة ابراهيم* استعمالاً للفظ في أحد معنييه^(٣) فيَحْتَمِل أن اليهود أطلقوا على العرب التي شاعت عندها عادة الختان هذا اللفظ دون أن

(١) راجع التوراة سفر التكوين فصل ١٧ آية ١١ والتلمود كتاب *برכות* ص ٣١

(٢) لهذه الكلمة معنى المائى بالعربية مثل : يخلق أو اقترف أمناً أو تدلل وتداهن

(٣) لسان العرب جزء ١٠ ص ٤٠٣

توضح لهم معناه ثم شاع استعماله عند العرب حتى في معناه الاصل^(١)
لو اتضحت صحة هذا الرأي لكان فيه برهان قاطع على ان عادة الختان قد
سرت الى العرب من اليهود في الدور الثاني

يجتهد العالم (Wellhausen) في أن يبرهن ان الخنيفية كانت مذهباً
نصرانياً ذائع الصيت^(٢) في بلاد العرب ولكن Leszynsky يمارضه^(٣) ويقول
ان الخنيفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهباً معيناً بل كان هناك أشخاص
من مفكرى العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية
ودخل بعضهم في اليهودية ودخل بعض آخر في النصرانية وبقى جماعة منهم غير
متمسكين بدين من الأديان واستدل على ذلك بقول القرآن ما كان ابراهيم
يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً فانه صريح في أن الخنيفية لم تكن
واحداً منها

وقد جاء لبعض الافراد من الخنيفين ذكر في سيرة ابن هشام أكتفى بنقل
ما يقوله عن واحد منهم « وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل في يهودية
ولا نصرانية وطارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والذمائع التي تذبح على
الاولئاث ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم وبادأ قومه بعيب مام
عليه . وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً يسد ظهره الى الكعبة
ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح معكم على دين
ابراهيم غيرى ثم يقول اللهم لو انى أعلم أى الوحوه أحب اليك عبدتك ولكنى
لا أعلمه . . . (٤)

(١) دورى ص ١٩٠

(٢) Skizzen H IV ١٩٢

(٣) Die Juden zu Medina ٤٣ ص

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧

كذلك قرر بعض العلماء من الافرنج أن أمر النسيء نشأ من تأثير اليهود على العرب^(١)

يحدثنا ابن هشام بأن « النساء هم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر^(٢) »

والعرب في موضوع النساء كلام طويل عريض^(٣) وأما الافرنج فينكرون وجود تفسير لكلمة نساء بالعربية ويميلون الى القول بما كان معروفاً عند اليهود من ان النامى* (د٣٣) أى الرئيس الدينى عند اليهود كان يؤخر ويقدم الشهور ويعين مواعيد الأعياد والصيام ويعلن النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة^(٤)

وأضيف الى ذلك أن النامى* (د٣٣) هو الاسم الشائع لرئيس القبائل عند بني اسرائيل منذ أزمنة غابرة^(٥)

ويحدثنا ابن هشام أن أول من نسا الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم التلمس وهو حذيفة بن عبد بن قيس بن عدى بن عامر بن نعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ثم قام بعده على ذلك ابنه (ابن حذيفة) ثم قام بعد عباد قلع بن عباد ثم قام بعد قلع أمية ابن قلع ثم قام بعد أمية عوف بن أمية وكان آخرهم وعليه قام الاسلام وكانت العرب اذا فرغت من ححها اجتمعت اليه فحرم الاشهر الحرم الأربعة رجياً وذا القعدة وذا الحجة والحرم فاذا

(١) Die Israeliten zu Mekka ١٦٨ — ١٧٤

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣

(٣) أديان العرب تأليف محمد نمان الجارم ص ٤٣ — ٤٦

(٤) ראש השנה פ' ע'

(٥) سفر الخروج فصل ٣٤ آية ٣١ وسفر عدد فصل ٧ آية ٣

أراد أن يخل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه ونحرم مكانه صفر فحرموه ليؤاقتوا عدة الأربعة الأشهر الحرم فلذا أرادوا الصدق فلم يفهم فقال أتى قد أخللت لكم أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل . . . (١)

هذه أقوال ابن هشام عن النساء وهي توضح قبل كل شيء أن وظيفة النساء أدخلت على العرب في عصر غير بعيد من ظهور الاسلام ثم إن وجود هذه الوظيفة في بني كنانة يرشدنا الى سؤال : هل كان لبطن بني كنانة الذي اصدر النساء علاقة يبطون بني كنانة المتهودة التي سكنت جنوبي مكة ثم لماذا وجدت المقاومة للنصرانية في اليمن وللنجاشي الذي قضى على ذى نواس من جهة النساء وحدم دون الزعماء الوثنيين ؟ ألم يكن من المحتمل أن هؤلاء النساء علاقة باليهودية ؟ . . .

ولكنني أكتفي بما أشرت اليك من العلاقة بين كنانة والنساء وكنانة واليهود ومقاومة النساء للنجاشي بسبب عطفهم على القضية اليهودية في الجزيرة دون أن أجزم فيها برأى

ويؤيد أبو معشر البلخي^(٢) وأبو الريحاني البيروني^(٣) والمقرئ^(٤) رأينا في النساء ويقولون أن العرب تعلموا عمل الكبسية من اليهود قبل الهجرة بقريب من مائتي سنة وأخذوا يعملون بالكبس ما يشاكل فعل اليهود من الخاق فضل ما بين سنتهم ومئة الشمس وقد أطلق العرب على عمل الكبسية بالنسيء أي التأخير غير أنهم خالفوا اليهود في بعض أعمالهم لأن اليهود كانوا يكسون تسع عشرة سنة قرية بسبعة أشهر قرية حتى تصير تسع عشرة شمسية والعرب تكبس

(١) ابن هشام حرم ١ ص ٤٥

(٢) كتاب الاثواب

(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية

(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

أربعاً وعشرين سنة قرية باثني عشر شهراً قرىاً . . .

كذلك نظن أن لوظيفة الصوفة علاقة باليهود أو بلغتهم العبرية على أقل تقدير
يحدثنا ابن هشام « كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة وتبجز لهم إذا انفردوا
من متى فإذا كان يوم النفر أتوا الرمي الجمار ورجل من صوفة يرمى للناس ما يرمون
حتى يرمى فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له قم فارم حتى نرمى . ملك
فيقول لا والله حتى تميل الشمس فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه
بالحجارة ويستعملونه بذلك ويقولون له وبلك قم فارم فيأتي عليهم حتى إذا مالت
الشمس قام فرمى ورمى الناس معه . . . وكان آخرهم الذي قام عليه الاسلام
كرب بن صفوان (١)

وأما صوفة بالعبيرية فإن معناها الحارس وهذا التفسير يلائم ما نقلناه من
كتاب السيرة عن الصوفة (٦٥٥) بصر أو الشخص الذي يبصر في الشؤون
الدينية لأنه أصدر الأمر حين سابقة الاقضية وكان أول من رمى الجمار بالحجارة
أو الحصى في وادي متى

ومنى هذا من الأصنام المشهورة عند بني اسرائيل في عصور جاهليتها لاننا
نعلم من آيات نبوات أتسعيا أن منى (٦٥) كان الها للخمير « وأما الذين تركوا
الرب ونسوا جبل قدسى فرتموا الى جد (٢) مائدة وملأوا لمنى خيراً ممزوجاً (٣)
وكذلك يرى العالم دورى أن استعمال العرب لاسماء الأسبوع تأثيراً يهودياً (٤)
اذ لا يمكن تصور استعمال لفظ السبت ليوم من أيام الاسبوع دون أن يأتي من

(١) ابن هشام حرره ١٠٠ ص ١١٣

(٢) من الاصنام السكسائية ٦٦ اله المد والمخط وقد أحطت تراجم التوراة العربية في
تفسير هذه الآية : راجع ترجمة التوراة لجمعية المبشرين البريطانيين ص ١٠٧٠

(٣) أشعيا صل ٦٥ آية ١١

(٤) ص ١٨٠ Die Israeliten zu Mekka

تأثير اليهود كذلك عرف يوم الجمعة عند أهل مكة بلفظ عروبة وهو لفظ شائع عند اليهود يطلقونه على كل يوم يقع قبل السبت وقبل الأعياد :

ערב סבב, ערב חג הפסח (١)

ومهما يكن من مبلغ تأثير اليهود في العرب فأنى أميل الى الاحتراس والتحفظ لنلا نصل الى المبالغة والمجازفة في الحقائق التاريخية

على أن هناك مقياساً آخر يجب ألا ينسى وهو ما قلته فيما مضى من أن الصلة الدموية في العنصر والتقارب في اللغة والأخلاق هو أساس التشابه بين العقلية واتجاه الأفكار والآداب بين العنصرين

ولا يمكننا في كل الأحوال أن نستنتج نتائج تتعلق بالنفوذ كما يحكم بعض الذين لا يتعمقون في البحث فيقولون مثلاً أن مهنة التجارة وما يتصل بها من دهاء وذكاء ونشاط قد جاءت الى أهل مكة من يهود بلاد الحجاز إذ ترجع ملكة التجارة عند بطون أم القرى قبل كل شيء الى مركزها الجغرافي ووقوعها في وسط بلاد العرب وعدم وجود مرافق أخرى للتكسب والارتزاق

ثم إن التشابه العظيم بين اليهود وأهل مكة من وجهة الأخلاق والتقاليد والاصطلاحات الدينية كان سبباً في ضلال بعض المستشرقين حتى خيل اليهم أن أهل مكة واليهود قدّوا من أديم واحد وبنّوا من نبتة واحدة فأخذوا يذهبون في المبالغات والظنون مدهاب عجيبة ومنهم دوزى (٢) الذي يجتهد في أن يبرهن على أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بني شمعون وإن تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست الا ورائة اسرائيلية قديمة ولكننا نعتقد أنه إذا ظهر التشابه بين أهل مكة واليهود أكثر منه بين اليهود والبطون الحجازية الأخرى فإن ذلك

(١) راجع التلمود كتاب مכות ٥ هـ وكتاب פסחים קס

(٢) ص ٤٠ — ١٨٥ Die Israeliten

يرجع الى أن مكة كانت أرق وأرفع من بقية البلاد في شبال الجزيرة ومن أجل هذا كان حرم مكة موضع الاحترام والتبجيل من جميع العرب في الجاهلية . ومع أنى أستنكر استنكاراً شديداً ما استنتج دوزى في أمر حرم مكة وعلاقته ببطون بنى شمعون فإن هناك أمراً يستوقف الأنظار وهو انه كثيراً ما يحدتنا ابن هشام عن حرم مكة وبنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة في تقديسه الخ^(١) . . . بشكل يشبه ما يقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس بأورشليم وعلاقة الآباء الأقدمين به وتقديس الملائكة له حتى خيل إلينا أثناء قراءة كتاب السيرة لابن هشام في هذه الموضوعات اننا قرأنا مصحف التلمود القصصية . . .

تجهد طائفة من أنصار Wellhausen في أن تبرهن على أن تأثير النصرانية في النفوس العربية الحجازية كان أقوى من تأثير اليهودية . مستندين الى أن عدد نصارى العرب كان أكثر من عدد اليهود^(٢) ولكن هذا غير صحيح لان الكثرة النصرانية العربية إنما كانت على أطراف الجزيرة من جهة الشمال أما في داخل الحجاز حيث المراكز التجارية والدينية والعسكرية فقد كانت الاكثرية في جانب اليهود بل لم يكن هناك من نصارى العرب الا عدد قليل جداً

وفضلاً عن ذلك فقد كانت الصلة قوية جداً بين مكة ويثرب التي كانت تكاد تعتبر . وطناً خالصاً لليهود

(١) ١٠٦ / ١٣٤ / ١٨١ من ابن هشام جزء ١ والحجوى أحاديث في هذا الموضوع منها : وقال الرسول يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمه الله الى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لاحد قبلى ولم يحل لي الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمه الله الى يوم القيامة لا يصعد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطه الا من عرسها ولا يحلئ خلاه . . . جزء ٢ ص ٣٠١

(٢) ص ١٩٧ III Skizzen Heft

ويكفيها في قويض مزاعم هؤلاء المستشرقين اننا نجد أكثر من ثلث القرائن يتكلم عن اليهود ويناقشهم ويهتهم بأقوالهم والرد عليها فطوراً يمدحهم وتارة يقرعهم ويؤنبهم تأنيباً شديداً فإن ذلك يدل على ما كان لليهود من المكانة العظيمة في نفوس العرب وعلى الصلة المتينة التي كانت تربطهم بهم لا ننكر على النصرانية تأثيرها في العرب بوجه عام ولكنها على كل حال تأثير ضئيل بالنسبة للفوز اليهودي الذي كان واضحاً جلياً في كل ناحية من نواحي الحياة الروحية والمادية . . .

وهناك مسألة أخرى تلفت نظر الباحث في كتب بعض المؤرخين من الافرنج وهي ما يزعمونه من ان اليهود كانوا محترقين في الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام^(١) ونحن نميل الى الاعتقاد بأن ذلك غير صحيح لان العربي في الجاهلية لم يكن يفهم البغض والضغينة الدينية كما فهمها المتأخرون ولقد يؤيد الاستاذ التجار رأينا بقوله : لو كان اليهود محترقين لما اهتم رسول الله بمحالتهم ولما أتهم أمرهم يوم الأحزاب حين الوا عنه ولما قام لحربهم بعد يوم الأحزاب على محالّتهم عليه وانياتهم بالأحزاب لحربه . . . اهـ

وكان عرب الجاهلية يلقبون اليهود أثناء القتال والنضال بألقاب قبيحة ذميمة وكذلك كان اليهود يفعلون ولكن ذلك لم يؤد الى اختصار اليهود أو التعريض بالقومية اليهودية ودينها وما كان للعربي الذي طبع على حب الحرية والغيرة على الكرامة أن يسلبها من غيره وكل القرائن تدل على أن العرب على اختلاف بطونهم وأدياتهم كانوا يتبادلون الاحترام دون أن يعرفوا فرقاً بينهم من وجهة الحقوق السياسية والاجتماعية والأدبية فقد نجد كعب بن الأشرف يرقى قتلى قريش كما نجد عباس ابن مرداس يذكر جلاء بني الضير ويبيكهم في قصيدة

وكذلك يمدح أبو سفيان رعيًا من زعماء اليهود ويقول :

سقاني فرواني كيناً مدامة على ظلاً مني سلام بن مشكم
نخبرته أهل المدينة واحداً نسواهم فلم أعين ولم أتنعم
فلما قضى الليل قلت ولم أكن لأفرحه أبسر بعرف ومغم
وان أبا غنم يجود وداره يثرب مأوى كل أبيض خضرم^(١)

ولا يمكن أن يعول على ما يؤخذ من القصص والروايات التي جاءت بعد فتور
الأحوال بين اليهود والأنصار أو يستدل به على مكانة اليهود في نفوس العرب
زمن الجاهلية

كان اليهود موضع الاحترام عند الأشراف والنقباء من قريش وكان رسول
الاسلام ينظر إليهم هذه النظرة من التبجيل الى زمن طويل بعد مبعثه كما سنوضح
ذلك فيما بعد

وكان العرب يجهلون الديانة اليهودية ويقولون لليهود « لكم علم ليس لنا »^(٢)
وقد يحدثنا ابن هشام أن رجلاً من يهود الشام يقال له ابن الهيمان قدم علينا
قبيل الاسلام بسين فخل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلح الحمس
أفضل منه فأقم عندنا فكنا اذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيمان
فاستسقلنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة فنقول له كم فيقول
صاعاً من تمر أو قدين من شعر فمخرجها ثم يخرج بنا الى ظاهر حرتنا فيستقي لنا
والله ما يبرح من مجلسه حتى تمر السحابة ونسقي قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين
ولا ثلاثاً...^(٣)

والذي يمكننا ان نستنتجه من هذه القصة الخرافية ان مؤرخي العرب كانوا
يعتقدون ان الديانة اليهودية واقواها كانوا موضع الاحترام في الجاهلية

(١) الاغاني جزء ٦ ص ٩٧

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢٠١

(٣) ابن هشام جزء ٠ ص ٢٠٤

وكثن من نساء العرب من تنذر اذا ولدت وعش ولدها ان تهوده لان اليهود كانوا في نظرهم أهل علم وكتاب^(١)



قبيل ظهور الاسلام حدثت حروب عظيمة بين بطون يثرب عرفت بيوم بعثت دامت سنين طويلة كذلك حدث في جهة مكة حرب ضروس عرفت بأيام الفجار التحمت فيها المعارك بين بطون قريش وكنانة في أربعة أدوار يقال لها الفجارات الاربعة

أما الفجار الاول فكان عمر النبي محمد فيه عشر سنين وسببه ان بدر ابن معشر النفازي كان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس قبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم انه اعز مني فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأسقطها وأزالها فاقتتلوا . وسبب الفجار الثاني ان امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فطاف بها شاب من قريش من بني كنانة فسألها أن تكشف وجهها فضحك الناس فنادت المرأة يا آل عامر فنادوا بالسلاح ونادى الشاب يا بني كنانة فاقتتلوا . . . وسبب الفجار الثالث انه كان لرجل من بني عامر دين على رجل كناني فاطله فجرت بينهما مخاصمة فاقتتل الحيان^(٢)

وكانت آخرها فجار البراض وقد بلغ رسول الله أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة حين هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان وكان الذي هاجها ان عروة الرجال من بني هوازن اجاز لطيمة (وهي الجمال التي تحمل المسك) للنعمان بن المنذر فقال له البراض بطلب غفلته حتى اذا

(١) ديانا العرب في الجاهلية ص ٢٠١

(٢) من تعليقات الشيخ محمود سيد الطهطاوى على كتاب السيرة لامين هشام جبر ١

كان بنمين ذى طلال بالعالية وثب عليه فقتله فى الشهر الحرام فلذلك سعى
الفجار فارتحل العرب عن عكاظ وهوازن لا تشمر أن البراض قد قتل ثم بانهم
الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم
فأمسكت عنهم هوازن ثم انتقوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون على كل قبيل
من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم وشهد رسول
الله بعض أيامهم أخرجه أعمامه معهم وقال الرسول كنت أنبل على أعمامى أى
أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها . . . (١)

وأما الذى نقلناه عن أيام الفجار فيحتمل أن يكون من العال المباشرة
والقرية لظهور الهياج بين قبائل قريش وكنانة وهوازن

ويلوح لى أن النضال الشديد الذى ظهر بين قبائل الحجاز فى شماله وجنوبه
يدل على أنه وجد فى القرن السادس ب . م حركة سياسية قوية بين زعماء الحجاز
كان كل واحد منهم يطمح أن يستأثر بالحكم لينمكن من أن يشيد أركان مملكة
جديدة

ولكن التنافس أضعف الجميع وقلم أظافهم وزاد فى المصاعب والمتاعب
التي كانت تحول بين كل واحد منهم وبين ما يريد حتى ظهر هناك شخص توافرت
فيه شروط لم تتوافر فى غيره فألف بين القلوب

ومن ذلك الحين أخذت جداول الجزيرة العربية تتمجه أنجهاً واحداً ويقترب
بعضها من بعض الى أن امتزجت فى نهر واحد أخذ يتدفق من قلب الجزيرة
ويفيض بقوة حتى غمر وجه الأرض . . .

وقبيل ظهور الاسلام وجدت فى الديار العربية نهضة فكرية عظيمة كان
الاضطراب من علاماتها وقبيل الاسلام أيضاً أصبحت القلوب صالحة لقبول

دعوة دينية جديدة. وصارت الديانة الوثنية موضع السخرية جهراً عند بعض الطبقات من المفكرين

يحدثنا صاحب الأغاني أن قس بن ساعدة الأيادي كان يتكلم عند خطبته على سيف أو عصا ويقول « مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا والله ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلمكم زمانه وأدرككم أوانه فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه^(١) »

ومع ان النصرانية واليهودية قد أوجدتا الشك في صحة الديانة الوثنية فانهما لم تغلحا في ادخال تغيير جوهري في النظم الدينية وظلت الوثنية واليهودية والنصرانية في نزاع عنيف دون أن تتغلب واحدة على الاخرى

واننا نعتقد أنه لو ظهر هناك يهودى ذو عاطفة ربانية قوية ودعا العرب الى الدخول في دين جديد يشبه اليهودية في جوهره ويبقى عربياً في تقاليده وروحه لكأنت دعوته قد وجدت آذاناً مصغية وقلوباً واعية

كذلك لو كان واحد من المفكرين الحنيفيين أو غيرهم دعا لتوحيد الآله مع ابقاء النظم العربية الاجتماعية التليدة لكأنت دعوته قد صادفت أرضاً خصبة يقول صاحب الأغاني ان أمية بن أبي الصلت « كان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسيح تعبداً وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفة وحرم الحر وشك في الأوثان وكان محققاً والنفس الدين وطمع في السبوة لانه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون ذلك . . .^(٢) »

ولكن أمية وغيره لم يظهروا بمظهر الأنبياء ولم يهتروا على أن يفادوا بحياتهم

(١) الاغانى جزء ١٤ ص ٤٠

(٢) الاغانى جزء ٣ ص ١٧٩

في سبيل الدعوة الدينية و بقيت أفكار أهل الجزيرة العربية مضطربة اضطراباً
عنيفاً بين اليهودية والنصرانية والوثنية الى أن ظهر رجل رفع علم النبوة وصار غرة
ناصعة في جبين الدهر ومجداً باقياً ما بقي الزمان وأرغم التاريخ على أن ينحونحوا
جديداً . . .

وكان اسمه محمد بن عبد الله من آل قريش من مدينة مكة .

الباب الخامس

مكة ويثرب ازاء الحركة الاسلامية

مبعث الرسول — كيف يكون البعث في سيرة الانبياء ؟ طريقة البعث عند رجال العلم ورجال الدين — الظروف التي كانت تحيط بالنبي محمد قبل هجرته الى يثرب — هل سكن اليهود في مدينة مكة قبيل الهجرة — رأى الاب المستشرق لامنس في هذا الموضوع تقسيم المسلم Noeldke القرآن للكريم الى اربعة اقسام — الآيات القرآنية الموافقة لمبادئ التوراة الجوهرية — ذكر الآيات القرآنية الاولى لموسى وسردها يسئ أنباء بني اسرائيل في مصر — رواية احكام رسول الله وبنى قريش الى يهود يثرب — اذتياب بعض المستشرقين في صحة هذه القصة الخطيرة — رأى المؤلف في هذا الموضوع — اضطهاد أهل مكة للمسلمين — نزوح ثمة من المسلمين الى الحبشة — لماذا لم يتجئ المسلمون الى انقاذهم من اقاليم العرب أو الى يهود يثرب ؟ سياسة الحبشة في بلاد العرب — عرض الرسول نفسه على العرب في المواسم — رحلة الرسول الى الطائف — معاناة الرسول للشدائد والصعاب في سبيل نشر دعوته — التقاء الرسول في العقبة برهط من الخزرج — الفرق بين عقلية القبائل العربية وبطلون يثرب — آثار تحاليم اليهودية فيهم — الديانة اليهودية من الاسباب القوية لظهور الاسلام — اعتقاد اليهود بظهور مسيح — تأثير هذه العقيدة في نفوس قبائل يثرب — حاجة بطون يثرب الى محالفات سرية — قصة الميسرانس بن رافع وقدمه الى مكة قبل يوم بعث — يمة النساء بالعقبة — يمة للعقبة الكبرى — مطامع بني الخزرج من هذه اليةمة — الغاية التي كان النبي يرى اليها — نتائج يمة العقبة الكبرى في التاريخ الاسلامي — موقف قريش واليهود ازاء اليةمة الكبرى بالعقبة

يوجه العلماء أثناء مجتهدهم عن حياة العظماء من الجنس البشري عناية عظيمة الى البيئة التي نشأوا فيها والوسط الذي أحاط بهم ولا يفتأون يبحثون باهتمام شديد عن الظروف الداخلية والخارجية التي وجدوا فيها لثوقهم بأن لها الفصل الأكبر في تكوين عقليتهم وتنمية عبرتهم حتى اذا ما استوفوا ابحاثهم الدقيقة

العميقة يأخذون في استنتاج النتائج التي يطمئنون اليها وترتاح لها ضمائرهم غير أن هذه الوجهة في البحث لا يرتضيها كثيراً رجال الدين أثناء البحث في تاريخ الانبياء لاسيما من لا يوافقون منهم على فكرة التوفيق بين العلم والدين لانهم يعتبرون للشؤون الدينية مقياساً آخر وينزلون رجال الوحي منزلة أخرى وينظرون اليهم بعين غير التي ينظرون بها الى ابطال التاريخ البشري على أن هذا الاختلاف بين مقياس محقق العلم والدين لا يوجد الا في تعريف النظرية دون الوجهة العملية في جوهر البحث لان رجال الدين لا يخالفون الرأي العلمي القائل بأن الوحي انما نزل على الانبياء في ظروف داخلية وخارجية دعت اليه الأحوال وپواعث نفسية توافرت في الانبياء دون غيرهم ممن عاشوا في بيئاتهم وعصورهم ولتقلبات وعوارض نفسية كانت تعرض لهم في ظروف خاصة من سرور وشجون واضطراب

وقبل أن نشرع في توضيح الظروف التي كانت تحيط بالنبي محمد أثناء نزول الآيات القرآنية الى عهد هجرته الى يثرب فاننا نود أن نبحت في مسألة وقع فيها نزاع بين المستشرقين وهي هل اتصل رسول الاسلام بافراد وجماعات من اليهود قبل هجرته الى المدينة أم لا ؟

لا شك أن أفراداً من اليهود كانوا يأتون الى مكة لاشتغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون الى خيبر ليجلبوا منها حلل آل أبي الحقيق التي كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلل بها حين زفافهن وغير ذلك^(١)

كذلك كان كعب بن الاشرف قد جاء الى مكة ليرثى قتلى بدر كما جاءت وفود من يهود النضير الى مكة لتحرب الاحزاب ليوم الخندق^(٢) وذلك بعد الهجرة

(١) الواقدي ص ٢٧٧

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٦٨

وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ويحدثنا الواقدي أنه وجد في مكة هيد من اليهود كان اسمه عبد الدار بن جبر دخل في ذمة الرسول بعد أن منع منه منورة بوصف فكان لها وقع شديد في نفسه ولما بلغ الخبر مشركي مكة أوسعوه ضرباً فأعطاه الرسول بعد فتحه لمكة مقداراً من المال فتزوج بأرأة شريفة من بنات مكة (١)

وقد أفرغ المستشرق Lamens جهده في أن يبرهن على أن عدداً من اليهود سكن مدينة مكة قبيل ظهور الاسلام (٢) ولكن نظرياته لا يطعن إليها الباحث ولو صح ما ادعاه هذا العالم لكان لليهود حي خاص بهم في مكة ولكان لهم معبد خاص يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة ما يشير أقل إشارة الى وجود شيء من ذلك

غير أنه من الممكن أن يكون بعض الأفراد سكنوا في مدينة مكة كما سكن بعضهم في مدينة الطائف (٣) وفي عدة مدن أخرى من الحجاز ولكنهم كانوا قليلين .

يحتمل أن النبي قد اتصل باليهود منذ حدوثه لاسيما بعد أن اشتغل بالتجارة عند السيدة خديجة اذ كانت الاعمال التجارية في مدينته مكة مرتبطة ارتباطاً شديداً بيهود يثرب وخيبر

ويرتاب بعض المستشرقين في صحة خروج النبي الى الشام والتقاءه بالراهب بحيرا (٤) ويعتقدون أن الرسول لم يتجاوز حدود الحجاز طول حياته (٥)

(١) الواقدي ص ٣٤٩

(٢) راجع الرسالة Les Juives a la Meque

(٣) فتوح البلدان للبلادي ص ٦٣ طبع مصر

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ١٦٩

(٥) Die Juden zu Medina ص ٤١

وقد قسم العالم Noeldke القرآن الكريم الى أربعة أقسام يشتمل القسم الاول منه على الآيات التي أنزلت قبل الهجرة الى يثرب ويتضح أن الآيات في هذا الدور كانت «واقعة لمبادئ التوراة الجوهرية وكانت ترمى الى التأثير في النفوس العربية التي كانت تنظر باحترام عظيم الى تعاليم التوراة ومبادئها » ان هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى ^(١)

وينبئ التنزيل أهل مكة بأن محمداً للعرب إماماً هو مثل موسى لبني إسرائيل وينذرهم ان هم لم يؤمنوا بما جاء به النبي محمد ان يصيبهم ما أصاب قوم فرعون فيقول « إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً فكيف تنقون ان كفرتم يوماً بحمل الأولاد ان شيئاً » ^(٢)

كما يقول « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع إلا ما يوحى الى وما أنا إلا نذير مبين » ^(٣)

نفس هذا التعريف يوجد في كتب العهد القديم عن بعض الأنبياء الاسرائيليين ^(٤) ويخاطب الوحي العرب بما يقنعهم بأن النبي ذكر في التوراة وأن بني إسرائيل يعلمونه « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وانه لفي زبر الأولين أو لم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني إسرائيل » ^(٥)

ويشير التنزيل الى أن هناك وفاقاً تاماً بين القرآن والتوراة « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن

(١) سورة الاعلى آية ١٩

(٢) سورة المزل آية ١٥

(٣) سورة الاحقاف آية ٨

(٤) راجع ميخا فصل ٢ آية ٦ حزقياء فصل ٣١ آية ٧ (٢٣٥٥)

(٥) سورة الشعراء آية ١٩٥

واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . . . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (١)

من هذا يستنتج المستشرقون أن الأفكار في مدينة مكة كانت على علم بدين اليهود وتعاليمه وأن النبي الجديد قد ظهر بمظهر الأنبياء الاسرائيليين كي يثبت صحة رسالته ويؤيد دعوته التي يعلم قريش لها نظيراً في اليهودية ويعجب المستشرقون من أنه لم يأت في هذا الدور أقل ذكر للمسيح أو لتعاليم الانجيل وأن أول إشارة في القرآن للسيد المسيح لم تكن إلا في السنة العاشرة بعد مبعث النبي محمد (٢)

وقد يستنتج العالم (Lesynsky) من هذا أنه كان هناك بون شاسع بين قلوب رجال عرب الحجاز في الجاهلية وبين مبادئ النصرانية وتعاليمها بينما كانت السور القرآنية في الدور الأول لا تخلو واحدة من الإشارة الى ما في التوراة والتلميح الى مواضعها وذكر شيء من تاريخ بني إسرائيل (٣)

مع أن من المؤكد الثابت أن أفراداً من أحرار النصارى وعبيدهم قد كانوا في مكة ما كنبن ومختلطين بأهلها ولكن لم يثبت أن أهل مكة قد عرفوا النصرانية وتعاليمها ومبادئها

كان التأثير بتعاليم اليهودية شديداً جداً الى حد أن قبلة الرسول في صلاته كانت الى جهة أورشليم كما هي عند اليهود فكان الرسول اذا صلى صلى بين الركبتين البرائى والاسود وجعل السكبة بينه وبين الشام (٤)

ورواية احتكام رسول الله وبني قريش الى يهود يثرب تدل على ما كان

(١) الاحقاف ٩ — ٢١

(٢) سورة مريم

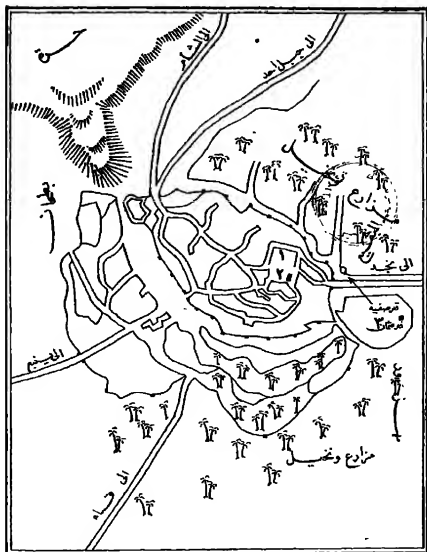
(٣) Die Juden ٤١ ص

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٢١

المَدِينَةُ الْمُيُودَةُ (يَثْرَبُ)

مقاس الرسم ١ : ١٢,٥٠٠

ملحوظات : (١) الجامع الكبير (٢) قبة النبي (٣) جبالات



وضعت الخرائط الجغرافية اليهودية في بلاد العرب والاسلام . للذكور اسرائيل ولغيتسون .

للـيهود في نفوس أهل مكة من المكانة الكبيرة

ويحدثنا ابن هشام أن قريشاً بعثت النضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبي معيط الى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لها سلام عن محمد وصفا لهم صفته وأخبرهم بقوله فاتهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى قدما المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ووصفا لهم أمره وأخبرهم ببعض قوله وقالوا لها إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالت لها أحبار اليهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فارجل مقول فأروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كلف لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هي فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل مقول فاصنعوا في الرجل ما بدا لكم فأقل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة وأخبرا بني قريش ما سمعوا من أحبار اليهود فجاءوا الى رسول الله فقالوا يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول وقد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ما هي فقال لهم رسول الله أخبركم بما سألتهم عنه غداً ولم يستثن فأنصرفوا عنه فكث رسول الله فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله اليه في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه وحتى حزن رسول الله ومكت عنه الوحى وسق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكف فيها معابته إياه على حرنه وعلى أنه لم يكمل الأمر لمشيئة الله وخبر ما سأله عنه من أمر الفتنة والرجل

الطوائف والروح^(١)

ويزني بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نظمئن إليه^(٢) والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً في نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذى القرنين

وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية وهي أن في التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف^(٣) ومن هذه القصة أخذ أخبار اليهود الأسئلة التي وجهوها للرسول بواسطة وفد بني قريش وتؤيد هذه القصة ما ذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود إذ لو وجد منهم في مكة ما أوفد بنو قريش وفدهم إلى المدينة ليسألوا أخبار اليهود عن شأن النبي وإذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم

انتهى بعد ذلك دور المناقشات بين الرسول وأهل مكة وبدأ الغور والاضطهاد ومحمدنا ابن هشام أن أهل مكة تأمروا على من أسلم وانبع الرسول فوثت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والمطش^(٤)

ولما رأى الرسول ما يصيب أصحابه وأنه لا يقدر على أن يمنهم مما هم فيه من البلاء أثار عليهم بالتزويج إلى بلاد الحبشة وكان لهم ملك لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق نخرج عد ذلك المسلمون من أصحاب الرسول إلى الحبشة مخافة الغفنة وفراراً إلى الله يدينهم^(٥)

ولماذا لم يلتجئ هؤلاء المهاجرون إلى إقليم من أقاليم العرب أو إلى يهود

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧٤

(٢) Die Juden ٢٦ ص

(٣) راجع التلمود كتاب בבא בתרא ق٥٥

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٨٨

(٥) ابن هشام جزء ١ ص ٢٩٢

يثرب ؟ بعض المستشرقين من المنصبيين للنصرانية يقولون بأن النبي إنما أشار على المسلمين بالزواج الى الحبشة لأنه كان يفضل وجود المسلمين في بيئة مؤمنة من النصارى على وجودها بين المشركين ولكننا نميل الى الاعتقاد بأن عاملاً سياسياً هو الذى كان السبب في نزوح المهاجرين الى الحبشة

كانت الأمة الحبشية تطعم منذ أجيال قديمة في فتح الأقاليم العربية وكان ملوك الحبشة يراقبون أحوال الجزيرة مراقبة شديدة ويتحينون الفرص لتنفيذ مطالبهم الاستعمارية ، من أجل ذلك بالغ النجاشي في الاحتفاء باللاجئين من مكة أولاً في أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل في شؤون مكة الداخلية

ولم يلجأ المهاجرون الى قوم من العرب في الجزيرة مخافة من هيئة قريش وعدوانها وكانت بلاد العرب مرتبطة برجال قريش ارتباطاً تجارياً ودينياً وكان لبعضها محالفات وعقود سياسية مع رجال قريش

ولهذا السبب نفسه منع النبي الهجرة الى يثرب إذ كان بين بطون اليهود وآل قريش علاقات تجارية متينة لم تكن تسمح لليهود أو للأوس والخزرج بالاحتفاء بأعداء قريش وفوق ذلك فقد كانت الحرب دائرة بين بطون يثرب في ذلك الحين (يوم بعث)

إذاً فقد كانت بلاد الحبشة أقرب إقليم هادئ الى مكة وكانت هي البلاد التي تمكن الهجرة اليها مع امن المهاجرين على حياتهم وأموالهم وبسد حرة المسلمين الى الحبشة أخذ الرسول يعرض نفسه على العرب في المواسم ويدعوهم الى الله ويخبرهم انه يبي مرسل

وقد رحل الى الطائف وعرض نفسه على بطونها فلم يقبلوا منه وخملوه وأنكروه فقال له أحدهم هو يمرطن ثياب السكمة ان كان الله أرسلك وقال الآخر أما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث والله لا أكلمك أبداً لأن كنت

رسولاً من الله كما تقول لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك بالكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم بجهونه بالحجارة ويصبحون به حتى اجتمع عليه الناس وألبأوه الى حائط فلما اطمأن روعه قال اللهم اليك أشكو قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى الى من تكلمنى الى عبد يتهمنى أم الى عدو ملكته أرى^(١)

وهذه القصة المؤثرة تدل على الشدة التى كان يعانيتها الرسول أثناء عرضه دعوته على بطون الطوائف ثم تظهر مقدرته الفاتحة التى لا توجد الا عند كبار الأخيار من رجال التاريخ البشرى حين لم يكن يبالى بمدوان البطون عليه ولا بقوارص السكلم التى كان السفهاء يوجهونها اليه بل مضى فى سبيله يدعوا العرب الى الله بكل ما أمكنه من حيلة ووسيلة ولكن نجاحه كان بطيئاً جداً فى ذلك الحين لان تعاليمه كانت تقوم على ترك عبادة الأصنام وهدم العقيدة الراسخة فى نفوس العرب « وعلى أن تسليخ هبل واللات والعزى من أعناقها »^(٢) وكان ذلك فوق ما تهصسه عقولها وتحتمله نفوسها ثم رجع الرسول الى مكة

وبقى النبي يعانى الشدائد والصعاب فى سبيل نشر دعوته وأعداؤه يزدادون فى إساءتهم اليه حتى التقى بأفراد من عرب يثرب فوحدت دعوته لديهم آذاناً مصغية وقلوباً واعية فبينما الرسول فى العقة اذلقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقتل لهم من أنتم قتلوا نفر من الخزرج قتل من موالى اليهود قتلوا نعم قتل أفعلا تجلسون أكلمكم قتلوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن وكان مما صنع الله لهم به فى الاسلام أن يهودا كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦

قد غزوم بلادهم فكانوا اذا كان يوشع حياً قال لهم اليهود ان نبياً سمعوا الآز قد أظلم زمانه فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلموا والله انه للنبي الذى وعدكم به اليهود فلا تسبقكم اليه فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا له انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يرجعهم الله بك فنستقدم عليهم فندعومهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ثم انصرفوا عن الرسول راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا^(١)

ويتضح من هذا أنه كان هناك يون شاسع بين عقلية القبائل القاطنة بالطائف وغيرها من سائر القبائل التى عرض عليها الرسول دعوته وبين عقلية هذا النفر من رجال يثرب اذ كانت الأولى عقليتها جامدة جافة ليس فيها أى استعداد للتصور الروحى وكانت الثانية عقليتها مرنة قابلة للتطور مستعدة للترقى فلم تكده تسمع دعوة الرسول حتى قبلتها واعتقدتها ووجدت دعوة الرسول فى هذه النفوس أرضاً خصبة صالحة لنمو الدين الجديد فيها وازدهاره ولا شك أن هذا أثر من آثار التعاليم اليهودية ونتيجة من نتائج الاختلاط الشديد بين يثرب

وهكذا بعد تلك الشدائد والرايا التى نزلت بالنبي بسبب عرضه دينه على العرب فى تمسكهم الشديد بالقديم وهجومهم على كل من يتعرض لدين آبائهم وجد أمانه بطوناً يثربية دخلت فى دينه بلا مقاومة وأخذ أفرادها ينظرون اليه نظراً التعظيم والتقديس لما ألقى عليهم الرسول ومن هنا يمكن أن يقال إن اليهود كانوا من أهم الاسباب التى ساعدت على ظهور الاسلام وان يكن ذلك بطريقة غير مباشرة

وهناك ملاحظة أخذناها من هذه القصة — قصة النفر من الخرج — ولم نجد من تثبه إليها من المؤرخين وهو ان ما رسخ في نفوس اليهود من اعتقاد بحىء مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء كان له الأثر الكبير فى انتشار الاسلام كما كان سبباً فى ظهور النصرانية فى فلسطين عند طائفة خاصة من اليهود وكما كان سبباً لظهور عدة أشخاص من اليهود فى القرون القديمة والوسطى بمظهر الانبياء والمرسلين حيث عرضوا على اخوانهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لانفسهم دعوة المسيح المنتظر

وقد ملأت هذه القصة صحفاً كثيرة من صحف الأدب الاسرائيلى القديم والحديث وكثيراً ما كانت سبباً فى نزول بلايا ورزايا كثيرة باليهود فى أدوار مختلفة ولا تزال هذه العقيدة الى اليوم راسخة فى نفوس الطبقات المتدينة من اليهود واذا قام شخص وادعى أنه المسيح المنتظر الذى يحنون اليه منذ أزمان طويلة أنكروا ادعائه وسفهوا قوله ورفضوا الاذعان لما يدعوم اليه . وكأن الأمة الاسرائيلية كانت ترمى لهذه الفكرة الى غاية معنوية لا يريدون تحقيقها بوجه من الوجوه

ولكنها لعبت دورها بين العوامل التى أدت الى انتشار الاسلام اذ كان العرب يسمعون من اليهود أثناء أوقات السدائد والازمات أن المسيح المنتظر سيأتى ليتغلب على اعداء الشعب المختار فلما عرض النبي رسالته على أفراد من الخرج تنبهوا الى أقوال اليهود فاقبلوا يمتشقون الاسلام ويؤمنون بدعوة الرسول وهكذا أدت تلك الحادثة بين الرسول وبين النفر من الخرج الى هذه النتيجة العظيمة ذات الأثر البعيد فى التاريخ البشرى

لكن هناك عوامل أخرى ذات أهمية كبيرة وهى تلك المقاصد السياسية التى كانت ترمى إليها بطون العرب بارتباطها بروابط العروة الوثقى مع السبي

والذى ينعم النظر فى تاريخ بطون يثرب يرى أن الطوائف الضعيفة فى المدينة كانت تعمل سرا على إيجاد محالفات مع قبائل عربية قريبة وبعيدة
فمن المحتمل إذن أن تكون الاوس والخزرج قد حالفت بطون بنى غسان
لحاربة اليهود فى عصر أبى جبيلة كذلك يحتمل أن تكون تلك البطون قد
عرضت المحالفة على قريش ولكن لم يصل شئ عنها اليها أو أن قريشاً قد
استفكرتها لمصلحتها التجارية

ونحن نعلم أن بطون الاوس قد أرسلت قبل يوم بعث وفد الى مكة وكانت
فى ذلك الحين حاضرة عن محاربة بطون الخزرج وكان رائد وفد الاوس يرمى الى
تخريب قريش على الخزرج ولكن قريشاً رفضت الدخول فى أمور كان يشتم
منها رائحة الدماء

ويحدثنا ابن هشام عن هذا الوفد « ان أبا الحيسران بن رافع قدم مكة
ومعه فنية من بنى عبد الأشهل فيهم اياس بن معاذ يلتبسون الحلف من قريش
على قومهم من الخزرج وقد سمع بهم رسول الله فأتاهم فجلس اليهم فقال لهم هل
لكم فى خير مما جئتم له فقالوا له وما ذاك قال أنا رسول الله بمثنى الى العباد أن
يعبدوا الله ولا يشرکوا به شيئاً وأنزل على الكتاب فقال اياس بن معاذ وهو
غلام حدث هذا والله خير مما جئتم له فلطمه أبو الحيسر اياس بن معاذ على وجهه
وقال دعنا منك فلم يردى لقد حننا لغير هذا فصمت اياس ثم انصرفوا الى المدينة
وكانت وقعة بعث بين الاوس والخزرج ^(١)

وهذه القصة ذات شأن عظيم فى فهم تاريخ بطون يثرب وادى لأميل الى
الاعتقاد بأنه لو لم تكن لها صلة بالرسول لاهملها ابن هشام كما أهمل مؤرخو العرب
القديما ذكر محالفات أخرى مع قريش جاءت الاوس أو الخزرج لتعرضها عليها

أما بعد يوم بعثت قد ظهر عند بطون الخزرج المغلوبة على أمرها أن تقتنى أثر الأوس في أيام عجزها وكانت بطون الخزرج تهنى إلى الشأز من الأوس واليهود معاً لأنهم قد انحنوا فيهم إنحناءاً وبالفوا في قتلهم فلما ذهب النفر من الخزرج إلى مكة لتأدية فروض الحج وكان قلبهم يفيض أسى وحزناً فلم يكدهم عرض الرسول دعوته عليهم حتى قبلوا منه وآمنوا بدعوته وياصوه لأنهم أرادوا أن يكون لهم منه مسيح يتقدم بما يعانون من يؤس وشقاء

وفي العام المقبل في موسم الحج حدثت بيعة العقبة المشهورة ببيعة النساء ^(١) وفي الموسم الثالث تمت البيعة الكبرى بالعقبة وقد اشترك فيها اثنا عشر تقياً من قبلاء الأوس والخزرج وأخبارها مطولة في سيرة ابن هشام ^(٢)

وأما الغرض الذي كان يرمى إليه الرسول فكان غرضاً دينياً قبل كل شيء ثم إلى إيجاد قوة لمحاربة قريش التي نسيء إليه وإلى كل مؤمنيننا كانت العاية التي يرمى إليها بو الخزرج سياسية قبل كل شيء وهي إيجاد قوة لمحاربة عدوم الذي بالغ في قتلهم وإذلالهم وهو بطاوس اليهود في يثرب

وقد قال الزعيم الخزرجي أبو الهيثم للرسول « ان بيننا وبين الرجال جبالا وأنا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن نرجع إلى قومك وتدعنا فتبسم الرسول وقال بل الدم الدم والمهدم المهدم أنا منكم وأتمنى منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ^(٣)

واذا سلمنا بصحة هذا الحديث فأننا نقرر أن الغاية التي كان بو الخزرج يرمون إليها من مشروعات بيعة العقبة الكبرى ظاهرة جلية اذ هي مقاتلة يهود يثرب وهدم كيانهن

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٣

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٨ — ٤٢

اما النبي فقد وعدهم ما وعده لكسب ثقتهم التامة واما الغرض الذي كان يسمو اليه في الواقع فقد كان غير غرضهم تماماً اذ لم يكن بعد قد نشأ بينه وبين اليهود شيء من العداء ولم يكن يضرهم لم أقل شر بل كان يرمى الى توحيد بطون يثرب جميعاً وجعلهم أمة واحدة لينتمكن من أن يحارب بهم اعداءه . . ١ .

وكذلك يحتمل أنه وعد النفر من الخزرج الذين التقى بهم الرسول في البيعة الأولى بأن يقاتل اعداءهم من الاوس واليهود جميعاً ولكن في بيعة النساء قد اشترك بعض النقباء من الاوس ومع أنه لم يشترك أحد من زعماء اليهود في البيعة الكبرى فان النبي كان يعتقد رغم هذا ان سيدخل اليهود في دتمته حين يظهر في يثرب

والذي مهد السبيل وهياً القلوب للبيعة الكبرى هو مصعب بن عمير الذي ذهب مع النقباء من بطون يثرب بعد بيعة النساء وقرأ مع الانصار القرآن وألف بين قلوبهم وكان الاوس والخزرج يكره بعضهم بعضاً فكره بعضهم أن يؤمنوا البعض الآخر (١)

ولكن مصعب بن عمير استطاع أن يحالف بين النقباء الاثني عشر في يثرب وأن يأتي بهم متكفين متصاعنين في غاية واحدة الى البيعة الكبرى

وهنا يعترضنا سؤال وهو لماذا لم يشترك من اليهود في هذه البيعة أحد ألم يكن مصعب بن عمير يسعى لادخالهم في الحلف أو أن اليهود لم يلبوا دعوته أو أنه خشي من دخول اليهود في هذه البيعة أن تضعف عزيمة رعاء الخزرج ؟ . .

هذه أسئلة يجب ألا تغيب عن بالنا في أثناء بحثنا في تاريخ البيعة الكبرى بالعقبة

وهنا يعم لنا سؤال وهو كيف كان موقف قريش واليهود اراء اتجاه الرمول

الى بطون يثرب العربية التي اتهمت بالبيعة الكبرى بالعقبة ؟

لقد رجعنا الى ما كتبه العرب عن حركات قريش أثناء البيعات في مواسم الحج من ناحية بطون الاوس والخزرج فوجدناهم اقتصروا على بسط أعمال زعماء قريش بعد البيعة الكبرى وفي أثناء العمل لها فعل يمكننا أن نصدق أن قريشاً وقفت موقف الحياد في تلك السنوات الثلاث التي اسمرت فيها المحادثات والمفاوضات بين انصار الرسول وبين بطون يثرب ونحن نعلم أن زعماء قريش قد أعلنوا عداوتهم للديانة الجديدة منذ نشأت ولم يألوا جهداً في قتلها وهي في المهد ولم يتركوا وسيلة لا يقاد الفتنة ضد المسلمين الا لجأوا اليها حتى لقد أرسلوا الوفود الى الحبشة يستعينون بها على اخراج المؤمنين من ديارهم ، أيمكن أن نسلم بأن قريشاً أغضت أو تفاضت عن تلك الحوادث الهامة التي كانت تجري في مكة في حين كان القوم يؤدون شعائرهم الدينية وكانت تلك الحركات العدائية مصوبة الى العقائد القديمة من ناحية عنصر عربي له قوة ونفوذ في شمال الحجاز أجمعه ؟

ازاء هذا لا يمكننا أن نسلم بذلك الحياد المظنون بل نرجح أن قريشاً بذلت كل ما كان في وسعها من القوة والنفوذ لتحبط مشروعات الرسول ولترجع زعماء الاوس والخزرج الى موقفهم الاول ولكنها حابت في هذا المسعى لأن بطون يثرب لم تستمع لهم اذ كانت تأثرت بنفوذ النبي ورأت أن مصالحها السياسية والاقتصادية تقضى بالانضمام اليه

وانه ليعيننا أكثر من هذا أن نعرف موقف يهود يثرب اراء هذه البيعة الكبرى بالعقبة فإن المراجع العربية لم تنثر الى حركاتهم ونياتهم ازاء هذه البيعة الكبرى كأن الدعوة الاسلامية لم تصل اليهم وكأنهم لم يقفوا على شيء من أعمال البطون اليتيرية العربية

ونحن نرجح أن اليهود لم ينفصلوا عن تلك الحركة لأنها متصلة بمصالحهم

السياسية والتجارية والاجتماعية خصوصا اذا لاحظنا اتجاه الدعوة الاسلاميه صوب المدينة وميل زعماء الخزرج الى الاتصال بالرسول ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد بما جعل زعماء بنى النضير وقرينة يرافيون حركاتهم جميعا ثم نعلم أن الاسلام لم ينشر خفية في يثرب وكيف وقد كان مصعب بن عمير يدعو الناس الى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون وكان ينتقل من بطن الى بطن ومن حى الى حى مدة طويلة ثم إننا نعلم أن عددا من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج فمن البعيد إذن أن يجعل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الاخبار

نحن لا نشك في أن اليهود لم يكونوا متحدين في ميولهم السياسية والاجتماعية فقد كانوا في شقاق دائم ولم تظهر بينهم الألفة الا في أيام البؤس والشدة كما اتحد بنو النضير وبنو قرينة في يوم بعث ضد عدوهم من بنى الخزرج وفي يوم بعث كان بنو قينقاع يحاربون الى جانب صفوف الخزرج ضد أبناء جلدتهم وقد بالغ اليهود في قتلهم وعداوة بنى قينقاع لبقية اليهود قديمة فيما يرى بعض المستشرقين اذا ذكرهم اليهود على الخروج من مزارعهم والاكتفاء بحبيهم الذي كان يحميه بنو الخزرج

وأمامنا عنصر ثالث من اليهود هو البطون المتهودة الصغيرة وكان من بطون العرب في يثرب أسرتهم ولم تخرج من ديارها بل بقيت محتطعة بمنزلها بين قومها ونحن لا نجد لهذه البطون المتهودة ذكرا في النضال العنيف ضد الاسلام

فهل نظن انهم لم يتدخلوا قط في شؤون الحرب أو انهم قاتلوا في صفوف أبناء دينهم ولم يذكرهم المؤرخون لقتلهم وقد يصح أن نفترض انهم مع نهودهم آثروا النزعة القومية على العاطفة الدينية فلم يشتركوا في حرب اليهود للمسلمين ؟

كانت العلاقات بين اليهود وبين قريش في غاية الصفاء لذلك افترض انه اذا لم يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج فانهم لا بد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على احباط أعمال المسلمين في المدينة وكذلك كان فان الذي يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف وزعيم بنى النضير وبين الرسول يرى أن ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الاسلامية منذ وصات أرض يثرب والهداء الذي استنفل أمره بين الجهتين يؤيد ما نقول

ولكن اذا افترضنا اتفاق بعض زعماء اليهود مع قريش للتحرش بالاسلام فاننا نعلم من جهة أخرى أن مخبريق اليهودى أحد زعماء وأغنياء بنى النضير كان من أوفى الناس للرسول وأكثرهم ميلا اليه منذ هجرته وكذلك أظهر عبد الله بن سلام ولاء للبي قبل أن تنشأ الأزمة بين النبي وبين يهود المدينة كل ذلك يؤيد ما نميل اليه من ان النزعات السياسية عند زعماء البطون كانت مختلفة كل الاختلاف وهذا كله فرض قد يساعدنا في البحث عن العلاقات بين المسلمين وبين قريش واليهود

ويقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الزيجار وقد ذكر المؤرخون وأصحاب السير أن أهل يثرب لما بايعوا النبي البيعة الكبرى علمت قريش في تلك الليلة بتلك البيعة مع أنها كانت سرية لم يعلم بها وثنيو أهل يثرب فمن الذي أفضى الى قريش بذلك الأمر ؟

لا جائز أن يكون أحد المبايعين أحمرهم بما كان والوثنيون لا دلم لهم بتىء والذي نفترضه أحد أمرين :

الأول أن تكون قريش تنبئت الى الأمر وراقت محمداً من حيث لا يدري حتى اذا اجتمع بأنصاره بلغهم عينهم بما كان ففطنوا للأمر
الثاني أن أحد اليهود من تجار الموسم رأى جيرانه في الدار على حال غير

«عتادة ففطن للأمر وأسر الى قريش بما رأى .
وقد ذكر المؤرخون أن قريشاً عاتبت أهل يثرب على ما كان من أمر بيعة
الرسول فسكت من كان منهم مؤمناً ودخل في بيعة النبي وتكلم الوثنيون فأنكروا
أن يكون حصل منهم شيء، نكروه قريش وحلفوا لهم على ذلك فرجع القرشيون
حين سمعوا ذلك . . . اهـ

وهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة فانها من الحوادث ذات النتائج
الخطيرة في التاريخ الاسلامي

وانى أعنفد انه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك
السنة لأن قيمتها لم تكن أقل شأنًا من قيمة هجرة الرسول الى يثرب . . . ومع
ذلك فلم يفتهم شيء كثير فان الهجرة حصلت في السنة التالية لها عن قرب

الباب السادس

هجرة الرسول الى يثرب

واملاؤه بنى قينقاع والنضير عنهما

آمال اليهود التي كانوا ينتظرون تحقيقها بعد قدوم النبي الى يثرب — مهادنة الرسول مع يهود يثرب — نص المصحفة — آراء المستشرقين فيها — قيمة هذه المصحفة — نظام الحكم في منطقة يثرب قبل الهجرة — رغبة الرسول في التآليف بين قلوب المسلمين واليهود — كيف نشأ سوء التفاهم بين الرسول واليهود — بسبب حوذية لسوء التفاهم أهلها المؤرخون — المجادلة الدينية ضد مبشر الخصومة — اشتداد الازمة السياسية بين الرسول واليهود — فشل الطائفة المعتدلة من اليهود في سعيها لارحام المياه الى مجاريها — دور المنافقين في هذا النزاع — يوم بدر — لماذا لم يشترك اليهود في القتال يوم بدر ؟ — دعوة الرسول بنى قينقاع الى الاسلام — الاسباب التي أدت الى نشوء العداوة بين المسلمين وبين قينقاع قتل غيرهم من اليهود — رد بنى قينقاع على دعوة الرسول — جلاؤهم من المدينة — آيات قرآنية نزلت و حلاء بنى قينقاع عن المدينة — يوم أحد — امتناع بنى النضير عن الاشتراك في هذه الموقعة — تخيير بنى قينقاع الرسول — قتل كعب بن الاشرف — قطة خلاف بين اس هشام واليمقوي — أمر الرسول باجلاء بنى النضير عن المدينة — أصرار بنى النضير على المقاومة بتشجيع زعيم المنافقين — زول بنى النضير على حكم الرسول — مقام بنى النضير — شهر الرب في يوم بنى النضير .

لا شك أن اليهود كانوا يرصدون الاحوال التي طرأت على يثرب بعد البيعة الكبرى بالعفة ويراقبون تطور الحوادث باهتمام شديد ولم يكن يدور في خلدكم ان سيحدث ما يواجه الحوادث في تيار مصاد لمصالحهم ومضاد لكيانهم ولو أنهم تبينوا في مظاهر الخرج ما يدل على شيء من ذلك لأعلنوا الحرب جهراً منضمين الى حلفائهم من الطون البئرانية أو منضمين مع قریش

ويلوح لى أن اليهود كانوا ينظرون بفارغ الصبر قدوم النبي الى يثرب وكانوا يعتقدون أنه فى مصلحتهم فقد نادى فيهم أول رجل منهم رأى النبي فى يثرب بأعلى صوته « هذا جدكم قد جاء » (١)

كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى إسرائيل يدعو الى توحيد الآلهة والى تعاليم النوراة والى تمجيد ابراهيم وهوى إنما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى

ولا شك أنهم ممنوعوا من مصعب بن عمير بعض الآيات القرآنية وانه كان لهذه الآيات وقع حسن فى نفوسهم جعلهم يؤمنون فى هجرة النبي الى يثرب آمالاً كباراً

ويظهر أنهم كانوا يعتقدون أو على الأقل يرجون أن يتمكنوا من التأثير فيه حتى يدخل فى دينهم حيث يتعاونون على محو عبادة الاصنام وقد يحتمل أنهم كانوا يرجون أيضاً أن يتمكن الرسول من التآليف بين البطون البثرية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التى كانت فى حاجة شديدة الى الهدوء والسكينة وكانوا يعتقدون انه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة فى الجزيرة ولتسكن أهلها من أن يصربوا تجارة مكة وغيرها

من المحتمل أن آمالاً من هذا النوع كانت تحيى فى صدورهم أثناء الفترة التى كانت بين البيعة الكبرى وبين الهجرة

كذلك كان الرسول يرغب فى التقرب الى اليهود نظراً لمكانتهم الرفيعة من الوجهة الأدبية والمالية والسياسية فى البلاد الحجازية وكان يعتقد أن اليهود يدخلون فى ذمته وملته بلا مقاومة بل يرجون بدعوته التى تشبه فى جوهرها تعاليم

الآباء الأقدمين من بني إسرائيل حيث يكون منهم ومن البطون العربية أما واحدة تبذل النفس والنفس في سبيل تنفيذ مشروعاته

وقد عقد الرسول بعد قدومه الى يثرب معاهدة ودية مع اليهود وقد جاء ابن هشام بنص هذه المعاهدة ويقول :

قال ابن إسحاق وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم عليهم وشرط واشترط لهم بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عاقبهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تغدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الحرث على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تغدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو حشم على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تغدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النجار على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تغدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النبيت على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تغدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الأوس على ربتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تغدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل

ولا يخالف مؤمن مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بني أو

اجنى وسبعة ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أديانهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس

وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسلّم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غاربة غزت منا تعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين يبي بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وأنه لا يجير مشرك إلا لقريش ولا فحشاً ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن يديه فإنه قود به إلى أن يرضى ولي القتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الاقيام عليه وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤذيه وأنه من نصر أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم معها اختلافتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم

وأن اليهود ينتقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . واليهيم وأنفسهم الأمن ظلم وأثم فإنه لا يوتغ (أى لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته وأن لليهود بنى الدجار مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى الحارث مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى جشم مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى

(١) وفي القرآن آية مريحة زلات على الرسول في هذا الشطر من الرمن تنز هذا للنس من الماهدة « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » (سورة البقرة آية ٢٥٦)

الأوس مثل ما ليهود بنى عوف إلا من ظلم وأنتم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وأن لبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف وأن البردون الأثم وأن . . . والى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينحجر على نار جرح وأنه من فلك فينفسه فلك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبردون الأثم وأنه لم يأتهم أمرؤ بحليفة وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين

وأن ينرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرة إلا بأذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فسادة فإن مرده الى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبرد وأنه لا تجار قريش ولا من تصرها وإن بينهم النصر على من دهم ينرب وإذا دعوا الى صلح يصلحونه ويلبسونه قاتم يصلحونه ويلبسونه وأنهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة . . . أه

وقبل أن نعرض لهذه المعاهدة نقول : ان الصحائف التى عقدها الرسول مع المشركين واليهود تنقسم الى قسمين : القسم الأول يشتمل على عقود وعهود وقعت حقا وشهد بوقوعها القرآن الكريم وأثبتها المؤرخون القدماء . أما القسم الثانى فيشتمل على عهود غير صحيحة نخلت بعد وفاة الرسول لاغراض شتى اذ كان الخلفاء يقررون كل ما وعد به النبي ولو لم يكن مكتوبا

ولا يشك المؤرخون فى أن النبي عقد مع اليهود عقوداً مختلفة بعد حضوره

الى المدينة اذ كان يخاف على حياته وحياة انصاره ويود عقد المحالفات مع اليهود الذين لعبوا دوراً هاماً في يثرب . وفي القرآن تأنيب لليهود على تقض العهود وهو اصدق دليل على أنه عقدت معهم معاهدات ^(١)

وقد ذكر ابن هشام عقوداً مختلفة عقدت بين اليهود وبين الرسول عدا هذه المعاهدة ^(٢) وقال أبو عبيد في كتاب الأموال : انما كتب رسول الله هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية واذ كان الاسلام ضعيفاً وكان لليهود اذ ذاك نصيب من الغنم اذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب . . . ^(٣)

وكانت هناك صحيفة خاصة بينه وبين بنى قريظة وبين الرسول وبين يهود خيبر وتيما، ووادى القرى وذكر ابن سعد عقوداً عقدها الرسول مع يهود بنى غديه ^(٤) وذكر صاحب فتوح البلدان صحيفة عقدت بين الرسول وبين أسرة شريفة من اليهود ^(٥)

وكل هذا يؤيد وجود معاهدات بين النبي وبين اليهود ولكن من العسير أن نأنس الى جميعها كما يفعل المستشرقون فان ابن اسحق لم يحدثنا عن معاهدات مخطوطة وصلت اليه وانما يكتفى بالرواية عن السابقين وهذا لا يقدر في قيمة هذه الصحيفة التاريخية التي نرجو أن تزيل بعض الغموض من حياة القبائل العربية واليهودية بالمدينة

(١) وكان بينهم وبين رسول الله عهد الى مدة ففصموا ذلك العهد (جزء ٣ ص ١٥٨ على الهامش من كتاب جامع البيان للطبري والرواية من ابن عباس) ثم في الجزء الاول من جامع البيان ص ١٤٢ — ١٤٣ روايت كثيرة في تفسير الآية الذين يقضون عهد الله

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤ وجزء ٣ ص ١٩٧

(٣) الروض الاف جزء ٢ ص ١٧ طبع مصر

(٤) ابن سعد . بنو رسول الله الرسل بكتبه ص ١٨ طبع Wellhausen برلين

(٥) فتوح البلدان ص ٦٠

أما الغرض الذي كان يرمى اليه الرسول من وراء هذه الصحيفة وما إليها من العهود التي عقدها مع بطون يثرب فهو هدم النظام القديم وإيجاد نظام جديد يمكن به أن تتوحد العناصر اليثربية وأن تعود يثرب بعد فرقة أحيائها مدينة واحدة فقد كانت يثرب منقسمة الى عدة دوائر وكانت كل دائرة تابعة لبطن من البطون وكانت الدائرة تنقسم الى قسمين يشتمل القسم الاول منها على الاراضي الزراعية بمنازلها وسكانها وكان من الزراع والفلاحين فئة تضم هيئة البطن ومن أصحاب الأرض الزراعية تعمل في الفلاحة ولها ما للبطون التي تملك الآطام من الامتيازات والحقوق وفئة كانت تجمع العمال المستأجرين من البطون اليثربية وهم أحرار ولهم حقوق الاحرار ثم وجدت طبقة العبيد التي لم يكن لها من الحقوق الا القليل

أما القسم الثاني من الدائرة فكان يملك الآطام وكان البطن يملك أطما أو آطاما وهذه الآطام كانت ملكا خاصا بالاسر العريقة وكان رئيس الاسرة صاحب السلطان في الاطم كما كان يعتبر زعيما من زعماء البطون وكانت أهمية الآطام عظيمة في يثرب فكان يفرع إليها أفراد البطن عند هجوم العدو ويأوى إليها النساء والاطفال والمعزة حين يذهب الرجال لمقاتلة الاعداء وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثمار ذلك أنها كانت معرضة في أما كنها المكشوفة للنهب والسلب وكان الاطم مرجعا لكثير الاوال والسلاح وكان للقبائل المنقلة بالبصائم أن تنزل بالقرب منه كما كانت تقام على أبوابه الاسواق

وكانت الآطام تشتمل — كما نظن — على المعابد وبيوت المدراس^(١) اذ كانت قلعة الاثبات كثيرة الادوات مملوءة بالاسفار فكان يجتمع فيها الزعماء

للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة حين يهيمون بإبرام العقود والاتفاقات

ثم وجدت في يثرب بطون لم تكن تملك الآطام وكانت تقيم في الاحياء حيث تحصى البطون الكبيرة مواليها من إغارات البطون الأخرى وكانت الاحياء متضامة يلاصق بعضها بعضاً وكانت مع هذا مختلفة في نظمها الداخلية حيث يهتم كل حى بشؤونه

واذ كانت الآطام في نظامها قد وجدت في شمال الحجارا أكثر مما وجدت في أى بقعة أخرى من بلاد العرب فالتنازع أنها كانت متأثرة بالنظم الاجتماعية اليهودية التي كان يجرى عليها اليهود في وطنهم الاصلى فلسطين

وهنا يعرض هذا السؤال : مم اشتقت كلمة اطم ؟ فان معناها بالعربية غيره بالعبرية. يقول صاحب الروض الانف الاطم اسم مأخوذ من ائطم اذا ارتفع وعلا يقال ائطم على فلان اذا غضب واتنفخ والاطامات نيران معروفة في الجبال لا تخمد فيها تأخذ بستان السماء فهي أبداً باقية لانها في .مادن الكبرى^(١)

أما العبرية فللفعل اطم (אָטַם) .مان شتى يقال اطم عينيه أغمضهما وأطم اذنيه سدّهما والاطم في الجدران والحيطان هي النوافذ المخلقة من الخارج والمفتوحة من الداخل ويستعمل الاطم في السور أى الحائط الضخم وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم اطم لأنه كان في امكانهم أن يفتحوا أبوابه وان كانت له نوافذ تغلق من الخارج وتفتح من الداخل

كانت الوظائف المختلفة من دينية وسياسية تنتقل بالوراثة من الساف الى الحلف في الأسرة الواحدة التي تفرد بعمل من الأعمال وكانت البطون الكبيرة أصحاب الحكم في يثرب وكان كل بطن يجتهد في أن ينفرد بالنفوذ

وكان كل بطن من البطون الكبيرة يضم اليه طائفة من البطون الصغيرة تمتد من مواليه وكان يشرف على مزارعها ومناجرها وحقوقها واذا وقعت افارة عدها واقعة على رعاياه فطالب بالثار أو دفع الدية وكان أفراد البطن الصغير يلجأون الى آطام البطن الكبير اذا هاجمهم العدو وكان البطن الصغير بتابعيته للبطن الكبير مضطراً الى الاشتراك في الحروب التي توجه الى البطن الكبير والا دعى بالتمرد والعصيان ومع هذا حافظت البطون الصغيرة على شخصيتها ولم تسمح للبطون الكبيرة بأن تحدد من حريتها وكان من نتيجة ذلك أن تجنببت البطون الكبيرة كل ما يهيج البطون الصغيرة

وكان هناك شبه توازن في نظام الحكم بين البطون الكبيرة فكانت تنور بقية البطون اذا هم بطن كبير بالاستئثار بالنفوذ

هذا كل ما يمكن أن نفرضه واقفاً عن نظام الحكم في يثرب ولا نعلم بالضبط كيف وصلت الى هذا النظام فليس لدينا من المصادر ما نعرف به كيف انتقلت البطون اليربية من البداوة الى النظام المعقد الذي وصلت اليه قبيل ظهور الاسلام ولكن من المرجح أن يكون هذا النظام نتيجة لحروب وحوادث وقعت في قرون مختلفة قبل هجرة الرسول الى يثرب فلم النظم الاجتماعية لا توجد الا متأثرة بالحوادث راقية كانت تلك النظم أو منحلة

كان تضافر تلك البطون وتوافقها نافذاً لها كل الدفع في درء الأخطار الخارجية التي كانت تهددها من سائر البلاد العربية وكان يمكن أن يصل هذا التوافق الى شيء من النظام الجمهوري الراقى ولو استطاعت يثرب أن تتحد انحداداً يقوم على أساس التعاون والتوازن الصحيح لاستطاعت هذه القوة أن تبسط سلطانها على قبائل الجزيرة العربية

وما يذكروا في المراجع العربية من أن بطون يثرب أرادت أن تملك عليها

عبد الله بن أبي وأنها نظمت له الخرز لتوجه فذلك مشكوك فيه لأسباب منها أن رهط عبد الله كان قد غلب على أمره يوم يباحث فليس من المعقول أن يرتاح الأوس واليهود بعد فوزهم المبين إلى تملك زعيم من الخرز وكانوا لهم من أعد الأعداء.

على أن عبد الله بن أبي لم يكن صالحاً للقبض على ناصية الحكم في يثرب وإنما كان ضعيفاً دسماً، متردداً لا يستقر على حال . . .

يضاف إلى ذلك أن إيجاد عرش في يثرب كان يقضى على استقلال البعاطر وما كان يمكن أن تصل إلى شيء من هذا بغير الحرب ومهلك الدماء كل هذا كان الرسول يعلمه وكان يعلم أنه يتنافر مع أغراضه العظيمة فلم ير بداً من هدم نظام يثرب فقد كانت في حاجة شديدة إلى قوم مؤتلفين لم تفرق بينهم الأهواء المتعاكسة يستطيع أن يسوسهم بإرادته ونفوذه وهؤلاء كانت سياسة الآطام والأحياء، رزقهم شرمق فكان من الحزم أن يهدم نظام الطوائف وأن يؤسس نظاماً جديداً وكان سبيله إلى غايته أن يعقد العود بين البطون اليثربية وأن ينشر تعاليم القرآن من ناحية أخرى

كل ذلك جرى عليه الرسول قبل أن ياجأ إلى السيف لتهور أعدائه في السياسة والدين كما سيحى بيانه . . .

وأملاً للقصة التي نقلها عن ابن اسحاق في السيرة، نرى نعرف به شيئاً في سياسة الرسول بعد هجرته إلى يثرب : قال ابن اسحاق ومرشاس ابن قيس وكان شيخاً قد عسى، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخرزج في مجلس قد جمعهم . . . فغاضه ما رأى من ألغتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال قد اجتمع ملائني قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا

بمعهم إذا اجتمع ملائم بها من قرار فأمر فني شاباً من يهود كان معه فقال اعد اليهم فأجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وأنشدم بعض ما كانوا يتناولون فيه من الأسماء وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان على الأوس يومئذ حضير بن سلك الاشهل وأبو أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمر بن النعمان البياضى فقتلا جميعاً . . . ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيسى أحد بنى حارة بن الحرث من الأوس وجبار ابن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه ان ستم رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعاً وقتلوا قد فعلنا . وعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة السلاح السلاح فخرجوا اليها فبلغ ذلك رسول الله فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر المسلمين الله الله أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد ان هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أُر الجاهلية واستفدكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم ففرق القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين وقد استفرق ما جاء في هذه المعاهدة عن اليهود أكثر من نصفها مما يدل على أن الرسول كان يحسب حساباً غير قليل لنفوذ اليهود وسلاحهم

ولكن الذى يتأمل في هذه الصحيفة يعجب اذ لا يجد للبطون الكبيرة من الأوس والخزرج وبني قينقاع ذكراً فيها فكيف أمكن أن يعقد النبي دموذاً مع البطون الصغيرة من اليهود دون الكبيرة منها

وللستشرقين في هذه الظاهرة رأيان : الأول : ان هذه المعاهدة كانت خاصة بالعرب والبطون اليهودية الصغيرة لأنها كانت منتشرة بين البطون العربية وتداخلت فيها ومعدودة من واليها حتى لا يمكن أن يعتبر لها وجود خاص

والثاني : ان هذه المعاهدة كانت تشتمل على البطون اليهودية الكبيرة أيضاً من بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع ولكن مؤرخى العرب المتأخرين حذفوا أسماءها من المعاهدة فيما بعد لأنه ساء لهم أن يدكر فيها أن الرسول تعاقد مع بطون خالفته وقاومته مقاومة عنيفة انتهت بذلك الدماء ^(١)

ويؤيد الرأى الأخير أن المؤرخين لم يذكروا البطون الصغيرة التى تعاقدت مع الرسول ضمن من اعتدوا على الأنصار وحاربهم ومن المحتمل أن ما جاء فى الصحيفة عن يهود الأوس كان شاهداً لبنى النضير أيضاً

وعلى كل حال فليس من شك فى أن النبى قد عقد العقود والعهود مع العرب واليهود بعد حضوره الى يثرب فعلى ذلك أميل الى الاعتقاد بأنها كانت أكثر من معاهدة واحدة لانتاجد الرسول يغضب من بنى النضير لأنهم لم يشتركوا فى يوم أحد فى حين انه لم يطلب من بنى قريظة أن يشتركوا معه فى حرب المشركين

ومن جهة أخرى فإن عقد معاهدات كثيرة مع بطون كثيرة قد يكون فى مصلحة الرسول أكثر من عقد معاهدة واحدة تضم جميع البطون لأن المعاهدات الكثيرة تقسم قوة البطون وتضعفها من الوجهة السياسية والحربية بينما يكون الاعتداء على بطن من البطون المجتمعة فى معاهدة واحدة كأنه اعتداء على جميعها

وقد نرى الرسول يجارب بطناً من البطون دون أن تتحرك البطون الأخرى وكأن الحرب التى تقع بين المسلمين والبطان من بطون اليهود لم تمس صحيفتها ولم تنقض شروطها . ولنا عودة لهذا الموضوع فيما بعد

وقد عقد الرسول معاهدة كانت خاصة بيني قريظة (١)

أما روح هذه المعاهدات فلأن كل الملازمة للحالة التي كان عليها المسلمون واليهود في الفترة لأولى بعد هجرتي النبي إلى يثرب . . .

لقد قلنا ان الرسول قد أراد أن يؤلف بين القلوب فأحل للمسلمين أكل ما أحل لليهود أكله وأحل لهم التزوج مع بناتهم « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتنهمن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخدان » (٢)

كذلك أمر المسلمين أن يصوموا بعض أيام كان اليهود يصومونها (٣) ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب ولم يكاف اليهود أن يعترفوا برسائله لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين ولو كان اليهود قد نظروا بعين ملوؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ولا يدوه وساعدوه بأموالهم وأفقدتهم حتى يحطم الأصنام ويقضى على المقامد الوثنية لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة لأن العقلية اليهودية لا تأين أمام شيء يزحزحها عن دينها وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني إسرائيل بل يعتقدون عقيدة راسخة أنه بعد ان ختمت صحف التوراة وكذب العهد القديم قد اقتضى عهد بعث الرسل وظهور الانبياء سواء كانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم (٤) كما يعتقد المسلمون انه لن يبعث نبي بعد الرسول محمد

هذه العقيدة يجب أن لا تغرب عن الاذهان لأنها أساس كل ما حدث بين

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) سورة المائدة آية ٤٨

(٣) البخاري جزء ١ ص ٤٩٨

(٤) راجع التلويح كتاب بنو إسرائيل في كتاب بنو إسرائيل

اليهود وبين الرسول من خلاف وتزاع ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف أو لكان في الامكان أن يتلافى ما قد ينشأ من ذلك

ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين أنهم أهملوا هذه النقطة الجوهرية في بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول واليهود مع أنه مما لا شك فيه أنه اذا أهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقاً للبحث في هذا الموضوع

وبدأ النزاع بين النبي واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين ^(١) فكان احبار اليهود يوجهون الاسئلة الى رسول الله ويصلون فيها الى حد التعتس فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه ^(٢)

وكانوا يطالبون النبي بأن يأتي اليهم بالمعجزات « الذين قالوا ان الله عهدنا لينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان . . . تأكله النار . . . » ^(٣)

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء . . . » ^(٤)

ثم انتقلت المناقشة الى مخاصمة كلامية فجعل التنزيل يلوم اليهود ويعنفهم « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . . . » ^(٥) ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين ككفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلغنة الله على الكافرين (سورة البقرة آية ٨٩)

ثم ظهرت العداوة فأخذ النبي يطعن في يهود يثرب وأخذ اليهود يرمون الانصار بقوارص الكلم فنزلت الآيات الكثيرة مشيرة الى فتور الاحوال بين الرسول واليهود « أولئك الذين حبطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٣٥ — ١٨٢

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٦

(٣) سورة آل عمران آية ١٨٣

(٤) سورة النساء آية ١٥٣

(٥) سورة البقرة آية ١٠١

فأمرين (١) »

« الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يملكون (٢) »

وهكذا اشتد النفور حتى كانت المحاصمات تقع بين اليهود والانصار في الشوارع يترامون فيها بالالفاظ القبيحة وينتضلون كما نعلم من حديث البخاري انه استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذي اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي فذهب اليهودي الى النبي بما كان من أمره وأمر المسلم فدعا النبي المسلم فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبي لا تخيروني على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فأصق بهم فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطن جانب العرش فلا أدري كان فيمن صعق قبلي أو كان ممن استثنى الله... (٣)

ونزل كثير من الآيات في ذلك الحين متضمنة الطعن المر في اليهود منها « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا (٤) » ومنها : بشما استروا به أنفسهم بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب ولكافرين عذاب مبين (سورة البقرة آية ٩٠) « ومنها مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بش مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين »

وأخذ القرآن يذكر بما ارتكبه أجدادهم من الجرائم كهيأتهم لموسى وقتلهم أنبياء بني إسرائيل وسجودهم للعجل... (٥)

(١) سورة البقرة آية ١٤٦

(٢) سورة آل عمران آية ٢٢

(٣) البخاري جزء ٢ ص ٨٩ و ٣٥٤ و ٣٥٩

(٤) سورة المائدة آية ٨٥

(٥) راجع سورة البقرة آية ٩٠ — ٩١

ولكن كل هذا لم يضعف من عزيمة اليهود فاستمروا على مناقشة الرسول وخاصة الانصار الى أن حذر التنزيل المسلمين من المجادلة الدينية
 « قد نزل عليكم ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهرأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره (١) »

فنجم من ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعد يوم وشعر النبي بأنه لم يوفق الى النجاح في تحقيق الفكرة التي كان يرمى اليها من التأليف بين قلوب اليهود والعرب وإيجاد أمة مؤلفة من جميع عناصر يثرب

وهكذا لم يمض ثمانية عشر شهراً من قدوم النبي الى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة وجعل كل فريق يتواصى بالخدر والنفور من الفريق الآخر وكذلك طرأت تغييرات دينية وظهر ما يسمى في عرف القرآن الكريم بالنسخ « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير (٢) »
 وتحولت قبلة الصلاة الى الكعبة بعد أن كانت متجهة نحو بيت المقدس « قد نرى قلبك وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام . . . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . . . » (٣) ويحدثنا ابن هشام عن هذا الموضوع فيقول :

ولما صرفت القبلة من الشام الى الكعبة وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً (قبيل يوم بدر) من مقدم رسول الله الى المدينة أتى رفاعه بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف من اليهود الى النبي فقالوا يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه ارجع الى قبلتك

(١) سورة النساء آية ١٤٠

(٢) سورة البقرة ١٠٦

(٣) سورة البقرة آية ١٢٦ حديث البخاري جزء ١ ص ١٨

التي كنت عليها تتبعك ونصدقك . . . (٤)

وكان هناك طائفة معتدلة من اليهود أرادت أن تصلح بين الفريقين المتخاصمين ونزيل ما بينهما من أسباب النزاع ولكنها أخفقت في مساعيها لأن السيل كان قد بلغ الزبى فأوجست هذه الطائفة خيفة من استمرار العداء وتوقعت شراً مستطيراً مما يضره كل من الفريقين للآخر من الحقد والبغضاء وكان مخبريق اليهودى رفيق الرسول من أنصار هذه الطائفة وقد حار في كيفية معالجة المشكلة التي صارت أعقد من ذنب الضب

وكان هناك عنصر آخر لعب دوراً خطيراً في الحوادث الثيرية وهو العنصر الذى يضم أعداء اليهود السياسيين من بنى الخرج فقد كانوا أشد الأقسام خصومة لليهود ولم يكونوا مخلصين للرسول فكان مهمهم منحصراً في أن يصبوا الزيت ليزيدوا في إشعال نار العداء بين الرسول وبين اليهود وقد عرف بعضهم عند المسلمين باسم المناقين وكان عبدالله بن أبى من زعماء هؤلاء المناقين وقد استمرت هذه الأزمة الشديدة الى يوم واقعة بدر الكبرى

ويظهر ان اليهود كانوا يرجون أن يضجر الرسول من عنادهم وحملهم على قبول دين جديد فيكتفى بشردعوته الدينية بين القبائل العربية ونستنتج ذلك من أنهم لم يكونوا يرغبون في محاربة الأنصار مع أن يوم بدر كانت فرصة مناسبة لمن كان في مركزهم

وكان الهى لا يريد أن يحارب اليهود في تلك الظروف التي لم تكن ملائمة بل كان يؤجل الدخول معهم في حرب حتى تتحسن الأحوال وتكون أكثر ملاءمة وفي الواقع كان اليهود يفضلون السلام والسكينة على المشاحنات والمخاضات لأن السلام والسكينة أساس النجاح في الأعمال التجارية والصناعية

وبميل بعض المستشرقين الى الرأى القائل بأن الحالة كادت ترجع بين اليهود والمسلمين الى ما كانت عليه قبل اشتداد النفور والخصومة من الألفة والولاء لولا أن حدثت موقعة بدر الكبرى في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً بيناً على قريش^(١) فقد أصبح المسلمون بعد هذا الظفر العظيم أصحاب الأمر والنهى في مدينة يثرب وشرعوا يأخذون بالتأثر من الافراد والجماعات التي أسادت اليهم وطعنت في أعراضهم ولم يشترك اليهود مع الرسول في محاربة قريش يوم بدر لأنه لم يكن مشتركاً عليهم في المعاهدة أن يشتركوا في الغزوات الخارجية عن دائرة المنطقة اليمانية وكذلك كان عدد الأوس والخزرج في هذه المعركة قليلاً وكان أغلب المحاربين من المهاجرين

كان النبي في أول الأمر يرجو أن يدخل اليهود في الاسلام بطريق المجادلة والمناقشة فلما لم تنجح معهم هذه الطريقة صبر عليهم الى يوم بدر حيث صارت الظروف ملائمة للدخول معهم في حرب دامية

لذلك ظهرت عند الأنصار بعد موقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جلية حيث صمموا على أحد أمرين ان يندمج اليهود مع العرب بواسطة اعتناق الاسلام أو يحاربهم حتى يجلوم

وكان المهاجرون ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود في يثرب لأن حالتهم كانت سيئة جداً إذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج

وكان أعداء اليهود من الخزرج يشجعون النبي على الشروع في محاربة

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٩٦ — ٢٣١

(٢) تاريخ الخميس جزء ١ ص ٤٠٦ و ٤٠٨ في قتل العاصم بذت مروان وقتل

أبي عوف

اليهود كما وضعنا ذلك من قبل

ويحدثنا ابن هشام عن هذه الأحوال فيقول انه بعد مرور بضعة أيام من موقعة بدر جاء الرسول الى حى بنى قينقاع وجمعهم بسوقهم ثم قال « يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقة وأسلموا فانكم قد عرقتم آتى نبي مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم ^(١) »

وانى لا اعتقد أن لأصرار النبي على دخول اليهود فى الاسلام سبباً آخر فوق الأسباب التى ذكرتها وهو أن دخول أهل الكتاب فى الاسلام يزيد فى هيئته ويكبر شأنه فى نظر قريش ذات المجد التليد وتدخل الجماعات الكثيرة فى الاسلام بدون مقاومة

أما الاسباب التى حملت النبي على البدء بمحاربة بنى قينقاع من بين جميع اليهود فترجع الى أن بنى قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة فى حى واحد من أحياء الاقوام العربية فأراد النبي أن يظهر المدينة وأحياء الأنصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه

وغنى عن البيان أن بنى قينقاع كانوا أغنى طوائف اليهود فى مدينة يثرب فكانت بيوتهم تحتوى على الأموال الطائلة والحلى الكثيرة من الفضة والذهب وكان العرب يطعمون فى كل ذلك

ثم كان عدد بنى قينقاع غير كثير فكان من السهل مقاتلتهم واستئصال تآقتهم .

وفوق كل هذا فقد كانت هناك عداوة بين بنى قينقاع وبقية اليهود سببها أن بنى قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بنى النضير فى يوم بعاث وقد أثنى بنو النضير وبنو قريظة فى بنى قينقاع وزقوم كل ممزق مع أنهم دفعوا الغدية عن كل من

وقع في أيديهم من اليهود وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم بعث حتى وقعت الحرب بين الانصار وبين بنى قينقاع فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الانصار

وقد أشار القرآن الى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله « واذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالانتم والعدوان وإن يأتوك أسارى فنادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ... (١)

فيظهر من هذه الآية مقدار ما كان بين بنى قينقاع وبين بنى النضير وقريظة من العداوة والبغضاء ويظهر أيضاً أن بنى قينقاع كانوا أصحاب مزارع فأخرجهم أبناء جلدتهم منها وأرغموهم على اللجوء الى حى واحد في داخل المدينة على أن هناك عاملاً آخر ذا قيمة كبيرة في حل الرسول على البدء بمحاربة بنى قينقاع وهو أن بنى قينقاع كانوا من موالى بنى الخزرج وكانت أغلب بطون بنى الخزرج قد دخلت في الاسلام ما عدا بطن عبد الله بن أبي فقد كان يظهر الايمان ويبطن الكفر وكانت بطون بنى الخزرج توافق على مشروعات النبي بدون معارضة



ننتقل من هذا الى ما رده بنو قينقاع على أقوال النبي إذ أجابوا بكل جرأة وتبجح « يا محمد لا يفرئك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلن انا نحن القوم (٢)

ويظهر من هذا الرد أن بنى قينقاع كانت تعتمد على معاضدة حلفائهم من الخزرج في نزاعهم مع الرسول قبل كل شيء إذ لا يتصور أن بطناً صغيراً كبطن

(١) سورة البقرة آية ٧٣

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٣٤

بنى قينقاع يجرؤ على اعلان الحرب ضد أغلب بطون يثرب ولكن بنى الخزرج خلوهم ولم يتحركوا لنجدتهم رغم انهم من واليهم
 « وحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه فقام اليه عبد الله بن أبي قتال يا محمد أحسن الى موالى وكاتوا حلفاء الخزرج فأبطأ عليه الرسول فقال يا محمد أحسن الى موالى فأعرض عنه النبي فأدخل عبد الله يده فى جيب درع الرسول فقال له الرسول أرسلنى وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا قال ويحك أرسلنى قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربع مائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوا من الاحمر والاسود تمصدهم فى غداة واحدة انى والله امرؤ اخشى الموائر فقال الرسول هم لك . . . وكان محاصراً أيام خمس عشرة ليلة . . . ثم أجلاهم الرسول من المدينة فخرجوا منها الى اذرعات بالشام » (١)

ويحدثنا الواقدى أن الرسول أمر بجمع أموالهم وأسلحتهم ثم قسمها على الأنصار بعد أن حجز منها الخمس وأبقى لبنى قينقاع ذراريهم ونساءهم وأمهاتهم ثلاثة أيام ولما رحل بنو قينقاع من يثرب نزلوا بوادى القرى حيث احتفى بهم اخوانهم من اليهود فأقاموا عندهم على الرحب والسعة الى أن رحلوا نهائياً الى الشام (٢)
 وفى ابن هشام قصة يذكرها على أنها تتضمن السبب فى اعلان المسلمين الحرب على بنى قينقاع الا أن المستشرقين لاحظوا أنه لم يروها عن ابن اسحق الذى هو المرجح الثقة لابن هشام ثم هى ليست موجودة فى كتاب الواقدى لذلك هم يعتبرونها قصة متأخرة وغير واقعية « ونحوها ان امرأة من العرب جلست الى صائغ يسوق بنى قينقاع ففعل بعض اليهود يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى فعمد الصائغ الى طرف ثوبها ففقدته الى طوقها فلما انكشفت سواتها ضحكوا منها فوقع الشر بين الأنصار وبين بنى قينقاع » (٣)

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

(٢) الواقدى ص ٩٤

(٣) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

وقد أشار القرآن الى حادثة اجلاء بنى قينقاع عن المدينة بقوله : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فتنتين التقنا فئة قتال في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولى الأبصار^(١) »



يظهر ان أمر اجلاء بنى قينقاع كان له وقع عظيم في نفوس اليهود فقد امتنعوا بعد ذلك عن المجادلة الدينية وكفوا عن رمى المسلمين بقوارص السكم ودخلت هيبة المسلمين في قلوب البطون العربية التي لم تسكن دخلت في الاسلام فانفسح المجال أمام النبي لنشر دعوته

ثم جاء يوم أحد في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة « فخرحت قريش بمجدها وجدها وأحايشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة وخرحوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس ومعه عمرو بن العاص وغيره من الزعماء فأقبلوا حتى نزلوا بمخين جبل يبطن السبخة من قاة على شفير الوادي مقابل المدينة » ثم خرج اليهم رسول الله في ألف من أصحابه حتى اذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انحدل عنه عبد الله بن أبي ثعلث الناس وقال علام تقتل أنفسنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل الريب والتفاق^(٢)

ولم يشترك أحد من اليهود في واقعة أحد الا رجل اسمه مخيريق « كان رجلا غنياً كثير التخييل وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد في علمه وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد^(٣) »

(١) آل عمران آية ١٣

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٤٦ — ٤١٢

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ١١٠

وقد كانت موقعة أحد في يوم سبت فأبى اليهود أن يحملوا السلاح في ذلك اليوم ورفضوا الاشتراك مع الرسول في غزوة أحد معتمدين على أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي تسمح لهم بالتخلف عن المارك التي تقع بعيداً عن المدينة كما ذكرنا سابقاً

ولكن مخيريق اليهودي قال : لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدهته وقال ان أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا الى رسول الله فقاتل معه حتى قتل فقال الرسول مخيريق خير اليهود (١)

وفي ابن هشام زعم منسوب لغير ابن اسحاق ملخصه ان الأنصار سألوا النبي يوم أحد : ألا تستعين بحلفائنا من اليهود فقال لا حاجة لنا فيهم (٢)

غير ان المستشرقين يرتابون في صحة هذا الحديث كما هو شأنهم في كل ما يرويه ابن هشام عن غير ابن اسحق ويستدلون على عدم صحته بأن الرسول غضب من اليهود بسبب عدم اشتراكهم معه في يوم أحد واتخذ من امتناعهم عن ذلك سبباً لإعلانه الحرب على بني النضير كما سنبين ذلك فيما بعد

ويؤيد صدق نظر المستشرقين في هذا الزعم ما نقلناه عن ابن هشام نفسه من تناء الرسول على مخيريق وقوله مخيريق خير اليهود فانه لم يقل ذلك الا لان مخيريقاً لم يتخلف عن تلك الموقعة كما تخلف بقية اليهود

ولصاحب الطبقات الكرى رواية تفيد أن النبي بعد ان خرج بجيوش المسلمين الى أحد حتى اذا كان بالشيوخين وهما أطمان التفت فنظر الى كتيبة خشنة لها زجل فقال : ما هذه قالوا : حلعاء بن أبي من جهود فقال رسول الله : لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك . . (٣)

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٢٧

اما نحن فنفض الطرف عن هذه الرواية لانها تناقض ما قصصنا عن ابن اسحق. على أن الذي يحسن نظره في الحالة التي كان عليها اليهود بعد اجلاء بني قينقاع عن المدينة يتضح له جلياً أنه لم يبق لعبد الله بن أبي موال من اليهود اذ كان بنو النضير وقريظة من ألد أعدائه كما مر ذلك في عدة مواضع . . .
ودخلت الأشهر الحرم بعد يوم أحد فلم يحصل فيها نضال ولا قتال ثم اتجه النبي لمحاربة بني النضير

وهنا نقطة خلاف هامة بين ابن هشام وبين اليعقوبي فابن هشام يقول ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد خروج بني قينقاع من المدينة أى في ربيع الاول من السنة الثالثة للهجرة ويدكر ابن هشام أنه بعد قتل ابن الأشرف قاتل الرسول « من ظفرت به من اليهود فقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على بن منينة رجل من تجار اليهود كان يلبسهم ويسايعهم فقتله وكان حريصة بن مسعود اذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حريصة يضربه ويقول : أى عدو الله أقتلته أما والله لرب شحم في بطنك من ماله ا قاتل محيصة : والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك . . . (٢)

ولكن اليعقوبي يقول إن النبي أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد (١) أى قبيل محاصرته لبني النضير أى في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة وكان قتله بمثابة اعلان الحرب عليهم لأنه كان زعيماً من زعمائهم وكان قاتله أبو نائلة أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة ومعه أربعة من الانصار (٣)

ويقول العالم Leszynsky إن العلاقات بين الرسول وبين بني النضير كانت على ما يرام قبل يوم أحد فلو ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد اجلاء بني

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٤٤

(٢) تاريخ اليعقوبي جزء ٢ ص ٤٩ وتاريخ الخميس جزء ١ ص ٤٦٤

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٤٤

قبتاع أى قبل واقعة أحد لما أمكن أن تكون هناك علاقات حسنة بين الرسول وبين بنى النضير لأن كعب بن الاشرف كان من زعماء بنى النضير وفوق ذلك فقد كان الرسول محتاجا الى معاضدتهم قبل يوم أحد^(١)

وانى أميل الى رأى البعقوبى وأعتبره نصحيحاً هاما لحادثة تاويخية كبيرة اذ لا يتصور أن الرسول يحرض انصاره على قتل أفراد من اليهود قبل يوم أحد وليس هناك أى دليل على أن العداوة وجدت بين الانصار وبين بنى النضير الا قبيل محاصرة الانصار لآطام بنى النضير حيث كان اليهود يوجسون خيفة من أعمال الارهاب التى كان الانصار يقومون بها

ويرتاب المستشرقون فيما يقوله ابن هشام من أن مسبب قتل كعب انما هو قصيدة الرثاء التى رثى بها قتلى بدر الكبرى وارتياب المستشرقين فى هذا مترتب على ارتيابهم فيما قاله ابن هشام عن وقت قتل كعب ويقولون انه أعوره المبرر لاغتيال كعب فى الوقت الذى ذكره فزعم أنه قصيدة الرثاء لقتلى بدر وانه التشبيب بنساء المسلمين^(٢)

ويحدثنا البخارى أن كعب بن الاشرف قد آذى الله ورسوله فاتاه محمد بن مسلمة فقال أردنا أن تسلفنا ومقا أو وسقين قال أترهنونى نساءكم قتلوا كيف ترهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنونى أبناءكم قالوا كيف ترهنك أبناءنا فيُسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن ترهنك السلاح قال سيفان يعنى السلاح فوعده أن يأتيه فقتلوه ثم أتوا النبى فأخبروه^(٣)

ولصاحب الاغاثى قصيدة ينسبها للربيع بن أبى الحقيق تلائم الحالة التى كان عليها بنو النضير بعد قتل كعب ابن الاشرف

(١) Die Juden ٦٨ م

(٢) ابن هشام - ٢ م ٣٤٣

(٣) البخارى - ٢ م ١١٥

ألا يا قَوْمِي لا أرى النجم طالماً ولا الشمس الا حاجبي بيمينى
معذبتي خلف القفا بمودها فجل نكيري أن أقول ذريتي
أمين على أسرارهن وقد أرى أكون على الأسرار غير أمين
فللموت خير من حراج موطأ مع الطعن لا يأتي المحل لحين^(١)
أنذر النبي بنى النضير بأن يخرجوا من أطامهم وينزحوا من يثرب في مدة
شرة أيام ولكنهم رفضوا الاذعان لهذا الانذار

وكان انذار الرسول لهم بذلك بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في
واقعة أحد وكان الرسول كان يعتبرها كفرزة موجهة الى مدينة يثرب فكان على
بنى النضير أن يخرجوا لقاء العدو كما تقضى شروط المعاهدة

ثم يظهر ان بنى قريظة كانوا مرتبططين بمهد آخر غير عهد بنى النضير وأن
الشروط كانت غير شروط عهد بنى النضير اذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في
واقعة أحد كما طالب بنى النضير ولم يثار منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثار من
بنى النضير

وليس معقولا أن يفضب الرسول من بنى النضير لعدم خروجهم الى الوغى
في واقعة أحد دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها

ويعتقد العالم Leszynsky ان ما جاء في الحديث من ان يوم السبت يوم عبوس
وغدر يرجع الى اعتذار بنى النضير المفقوت وان جميع الأحاديث التي من هذا
النوع ترجع الى حادثة تاريخية ومن هنا نفهم ان غضب الرسول من اعتذار بنى
النضير قد ترك في نفسه أثراً سيئاً من نحو يوم السبت بوجه عام^(٢)

ويقول الاستاذ النحار ان هذا القول ليس حديثاً وانما هو من كلام الناس

(١) الاياتي ج ٢١ ص ٦٢

(٢) Die Juden ص ٧٠ ...

على أن بعضاً يتشأم به كما أن بعض الناس يئس به ويتشأم بغيره وليس ذلك من الحديث في شيء . . . اهـ

ويذكر مؤرخو العرب سبباً آخر لإعلان الحرب على بني النضير غير امتناع اليهود عن الاشتراك في يوم أحد واعتذارهم بيوم السبت فيقول ابن هشام : ان الرسول خرج الى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القنيلين من بني عامر الذين قتلها عمرو بن أمية النمرى للجوار الذي كان رسول الله عقده لها فلما أتاهم رسول الله يستعينهم قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — والرسول الى جنب جدار من بيوتهم قاعداً — فن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك عمرو بن جحاش أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة فأتى رسول الله من السماء انخبر بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً الى المدينة فلما استلبث النبي أصحابه قاموا في طلبه حتى انتهوا اليه فأخبرهم انابر بما كانت اليهود أرادت من القدر به فأمر النبي بالتهيو لحرمهم والسير اليهم . . . (١)

لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبهم بعدم وجود ذكرها في سورة الحشر التي نزلت بعد احلاء بني النضير

على اننا لو سلطنا بصحة هذه الرواية فأننا لانجدها كافية لانتهاز الحرب على جميع بطون بني النضير اذ نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود ان كل جرم من جهة فرد أو عدة أفراد يقع عقابه على فاعليه وأهل بيتهم دون أن يحس غيرهم بشيء من الأذى

والذي يظهر لكل ذي عينين أن بني النضير لم يكونوا ينوون القدر بالنبي

واغتياله على مثل هذه الصورة لانهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره ولو أنهم كانوا ينون اغتياله غداً لما كانت هناك ضرورة لالقاء الصخرة عليه من فوق الحائط بل كان في استطاعتهم أن يفاخثوه وهو يحاذيهم اذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه

وقد أراد بنو النضير أن ينعنوا لحكم الرسول ويحلوا عن ينرب ولكن « رهطاً من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي وديمة بن مالك وسويد وداعي قد بعثوا الى بنى النضير أن البثوا وتمتعوا فاننا لن نسلحكم ان قتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم خرجنا معكم قدر بصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ^(١) » وقد طلب بنو النضير من بنى قريظة أن ينجدهم فلم يفعلوا وصرح كعب ابن أسد زعيم بنى قريظة انه لا يريد أن ينقض حلفه مع الأنصار ^(٢)

ويشير القرآن الى غدر عبد الله وقومه يهود بنى النضير بقوله « ألم تر الى الذين ناقضوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وان قتلتم لننصرنكم والله يشهد لئنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون... » ^(٣)

وكانت أطام بنى النضير حصينة جداً وكان من المحال فتحها في مدة وجيزة « لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة أو من وراء جدر... » ^(٤) لذلك أمر الرسول بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه ان يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعييب على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها... ^(٥)

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠

(٢) الواقدي ص ١٦٣

(٣) سورة الحشر آية ١١

(٤) سورة الحشر آية ١٤

(٥) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠ وحديث البخارى جزء ٢ ص ٢٥٢

ويظهر أن قطع النخل وتحريره كان سبباً في تسرب اليأس الى قلوب اليهود اذ وجدوا أنفسهم بين أمرين اما الاذعان لحكم الرسول واما الخروج من المدينة لمهاجرة المسلمين ومنهم من حرق النخيل وكانت ثمارها من أهم مرافق الحياة فاختاروا الاذعان لحكم الرسول وكان ذلك رأى سلام بن مشكم « فسأل الرسول أن يجلبهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة فاحتسوا من أموالهم ما استقلت به الابل فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام باذرعات فكلف أشراطهم من سار منهم الى خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحجي بن أخطب فلما نزلوها دان لهم أهلها^(١)

وقبل أن يترح بنو النضير من منازلهم هدموا البيوت عن نجاف بابهم فوضعوها على ظهر البعير وانطلقوا بها^(٢) وكانت هذه الرواية المبهمة سبباً في أن يقول بعض المستشرقين ان الاخشاب كانت غالية في الاقاليم الصحراوية فأخذها اليهود معهم ليبيعوها ولكننا لا نميل الى تفسير ذلك على هذا المنوال بل أقول ان هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة وهي أن كل يهودى يعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني اسرائيل أن يحتفظوا بالايمان بالله واحد ولا يبدلوه ولو عبدوا وقتلوا^(٣) فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود الى يومنا هذا ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يصنعون تلك الصحيفة (٣١١٢٥) في داخل النجاف خوفاً من اتلاف الهواء أو مس الأيدي فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها

ويقول القرآن بصدد اجلاء بني النضير « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم

(١) جزء ٣ ص ٥١ ابن هشام

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠

(٣) كتاب تثنية فصل ٦ آية ٥

حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون
 بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الألباب^(١)
 ويصف ابن هشام خروجهم من آطامهم بقوله « انه حدث أنهم انتقلوا
 بالنساء والابناء والاولاد معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم... »^(٢)
 ويقول الواقدي إن النساء تحلين بحلبيهن وتزين أحسن زينة حتى بدت
 الواحدة منهن غاية في الجمال وكان يبدو عليهن السرور والابتهاج بدرجة أدهشت
 المسلمين وأما مناهو المدينة فقد نكسوا رؤسهم بعد ذلك حتى قال عبد الله بن
 أبي أنه قد أصبح يشعر بأنه صار رجلاً أجنبياً في وطنه غريباً عن بلاده بعد
 إجلاله بني النضير^(٣)

وقد غنم الانصار بقية الامتعة التي لم يستطع بنو النضير حملها معهم وكان
 منها ٥٠ درعاً و ٣٤٠ سبعم^(٤)

وقد كانت هذه المغنم لرسول الله خاصة يصعها حيث يشاء قسماً على
 المهاجرين الاولين دون الانصار الا أن سهل بن حنيف وأبا دجاجة ذكرا فأعطاهما
 الرسول^(٥) ويذكر القرآن هذه المغنم « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم
 وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم
 الصادقون^(٦) »

ولم يسلم من بني النضير الا رحلان يامين بن عير وأبو سعد بن وهب أسلما
 على أموالهما فاحرزاها^(٧)

(١) سورة الممتحنة آية ٢

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

(٣) الواقدي ص ١٦٥

(٤) الواقدي ص ١٦٤

(٥) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

(٦) سورة الممتحنة آية ٨

(٨) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

وقد قيل بمناسبة اجلاء بنى النضير شعر كثير بعضه مدح وبعضه ذم وأهم ما يلفت نظرنا من ذلك الشعر قصيدة قالها عباس بن مرداس يذكر جلاء بنى النضير ويكيهم

لو ان قطين الدار لم يتحملوا وجدت خللا الدار ملهى ولمعبا
فانك عمرى هل رأيت ظمائنا سلكن على ركن الشطا فتياها
اذا جاء باغى الخير قلن بشاشة له بوجوه كاللذنانير مرجبا
فلا تحسبنى كنت مولى ابن شكيم سلام ولا مولى حبي بن أخطبا
قال خوات لعباس بن مرداس أنت الذى ربيت اليهود وقد كان منهم فى
عداوة الله ما كان قال عباس انهم كانوا أحملا فى الجاهلة وكانوا قوما أنزل
بهم فيكرهونى ومثلى يشكر ما صنع اليه من الجميل ثم أنشد

هجوت صنيع الكاهنين وفيكم لهم نعم كانت من الدهر ترنبا
أولئك أخرى إن بكيت عليهم وقوهك لو أدوا من الحق موجبا
من الشكر إن الشكر خير منبة وأوفق فعلا للذى كان أصوبا
فصرت كمن أمسى يقطع رأسه ليبلغ عزا كل فيه ركبنا
فبك بنى هارون واذا كرمناهم وقتلهم للحوق إذ كان مسغبا
أخوات أذر الدمع بالدمع وابكمهم وأعرض عن المكروه منهم ونكبا
فانك لو لاقيتهم فى ديارهم لالفت عاقده قول منكبا
سراع الى العليا كرام لدى الوغى يقال لباغى الخير أهلا ومرجبا

البَابُ السَّابِعُ

غزوة بني قريظة

تحريض زعماء بني النضير لبني قريش وغطفان على محاربة المسلمين — اختيار زعماء بني النضير الى بني قريش الوثنيين — هل تعتبر هذه المحالفة عملاً مخالفاً لأوامر التوراة ؟ — احتجاج القرآن على هذه المحالفة — يوم الاحزاب — مطامع قريش وغطفان واليهود من وراء هذه الغزوة — تحريض حي بن أخطب لبني قريظة على تقص مهادنتهم مع الرسول — محالفة سرية بين الرسول وبين غطفان — فشل يوم الاحزاب وأسبابه — حصار الرسول لبني قريظة — نزول بني قريظة على حكم للرسول — اشتقاق الاسم على حلفائهم بني قريظة — تنفيذ حكم الاعداء في رجال بني قريظة — نتيجة غزوة بني قريظة — كثرة شر العرب في يوم الاحزاب وبني قريظة

لما نزل أشراف بني النضير في خير أخذوا يفكرون في التأثر من الانصار وجعلوا يفكرون في الوسائل التي توصلهم الى أطامهم وتردهم الى مزارعهم في منطقة يثرب فعزم نفر من اليهود فيهم سلام بن ابى الحقيق وحبي بن أخطب وكنانة بن الربيع أن يحزبوا الاحزاب على المسلمين « فخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوم الى حرب رسول الله وقالوا انا مسكون معكم حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر اليهود انكم أهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه قالوا بل دينكم خير من دينه وأتم أولى بالحق فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوم اليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوم الى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد

تابعهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه . . . (١)

ومن ينظر الى حالة بنى النضير التمتعة التى صاروا عليها بسبب اجلائهم عن بلادسكنوها منذ قرون وكأوتوا فيها أصحاب السلطان المطلق والثروة الطائلة والمزايا الواسعة لا يوجه اليهم أقل لوم على محاولتهم الرجوع الى أرضهم وبجنهم عن الانصار والحلفاء الذين يعينونهم على تحقيق أملهم والنار من خصومهم فان هذه سجيية من السحايا البشرية وطبيعة من الطبائع الانسانية بل وعمل مشروع مقبول لدى جميع الامم

لكن الذى يلامون عليه بحق والذى يؤلم كل مؤمن بالله واحد من اليهود والمسلمين على السواء انما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين بنى قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود اديان قريش على دين صاحب الرسالة الاسلامية

نعم ان ضرورات الحروب أباحت للامم استعمال الخيل والاكاذيب والتوسل بالتدع والاضاليل للتغلب على العدو ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الاصنام أفضل من التوحيد الاسلامى ولو أدى بهم الامر الى عدم اجابة مطلبهم لأن بنى اسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الامم الوثنية باسم الآباء الاقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لانهى من تقتيل واضطهاد بسبب ايمانهم بالله واحد فى عصور تتق من الادوار التاريخية كان من واجبه ان يصحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخفوا المشركين

هذا فضلا عن أنهم بالتجاهم الى عبدة الاصنام انما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الاصنام

والوقوف معهم موقف الخصومة

وقد أشار القرآن الى عمل النفر من اليهود ونحزبهم مع قريش وغطفان على الاسلام بقوله « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجلبث والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ^(١) »

ثم أقبلت جموع قريش في شوال سنة خمس ونزلت بمجتمع الاسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحاديثهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا يذنب نَقَعَى الى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره الخندق بينه وبين القوم .. ^(٢)

وقد أخذ المسلمون آلات الحفر من مساح وكرازين ومكائل من بني قريظة الذين بقوا على الولاء ولم يقصوا عهدهم فحفرها بها الخندق حول المدينة ^(٣)

ويعتقد المستشرقون أن مؤرخي العرب قد بالغوا في اخبار يوم الخندق وأدخلوا فيها الاساطير التي تسد على الباحث سبيل استخلاص الصحيح من الحوادث . وكان للأحزاب في يوم الخندق قوة عظيمة لا تقل عن ١٠٠٠٠ مقاتل وكانوا مسلحين بانحر الاسلحة وكانت لديهم الخيول الكثيرة فان استعدادهم كان كاملا من الوجهة المادية ولكنه كان ناقصاً تقصاً كبيراً من الوجهة المعنوية اذ لم تكن لهم غاية مشتركة تجمع بين قلوبهم ونحملهم على الاخلاص في أعمال الحرب

فقد كان السبب في اشتراك غطفان في هذه الحرب أن اليهود وعدوه بأن يعطوهم ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع وحدائق خيبر ^(٤) اذا تم لهم النصر وكانت

(١) سورة النساء ٥١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٣) الواقدي ص ١٩٣

(٤) الواقدي ١٩١

قريش تريد من مواصلة القتال أن تنار لقتلى بدر وأحد
وهناك سبب آخر لم يذكره المؤرخون من العرب والافرنج وهو أن قريشاً
رأت أن وجود قوة معادية لاهل مكة في شمال الحجاز ضار بهم ومؤد الى كساد
تجارة مكة فكأنهم قد اضطروا الى الحرب اضطراباً ليتسكنوا من أن يفتحوا
لتجارتهن طريق القوافل الى الشام
وقد دخل أبو سفيان ونفر من زعماء قريش بين استار السكبة حتى التصقت
أكبادهم بها وأقسموا ليوصلن القتال حتى لا يبقى فيهم رمق من الحياة (١)
وأما اليهود فقد كان رائدهم غير الذي كان لحلفائهم من بنى قريش وغطفان
كما ذكرنا قبلاً

وقد كان هناك عامل آخر أضعف من قوة هذا الجيش العظيم ونقص من هيئته
ذلك انه لم يكن موحداً للقيادة فلم يكن الأمر كله في يد أبي سفيان قائد قريش
لذلك سرعان ما ظهر اختلاف في الرأي والعمل بين قواد الجيوش
وبعد أن مضت بضعة أيام غير كثيرة تبادل فيها الفريقان المناوشات
والمبارزات انتضح لزعماء الاحزاب أن الحرب قد لا تنتهى الا اذا انضم بنو
قريظة اليهم فقد كان بقاؤهم على الولاء للمسلمين من جهة وعدم إمكان جيوش
الاحزاب أن تتعرض لهم من جهة أخرى مما يزيد في قوة المحصورين الذين
كانوا يأخضون منهم المؤن والسلاح وآلات الحفر وكانت آطامهم بين جيوش
المسلمين والاحزاب بمثابة السور الذي لا يتحرق

لذلك أخذ حبي بن أخطب صاحب مشروع يوم الخندق يؤثر في أبناء جلدته
من بنى قريظة ويحرضهم على نقض المعاهدة التي كانت بين كعب بن أسد
والرسول ويقول له « قد جئتكم بمر الدهر وبحر طام جئتكم بقريش وسادتها

حتى أنزلتهم بمجتمع الاسيال فلم يفلح في أول الامر لان الزعيم القرظي أبى أن ينقض صحيفته مع الأنصار وقال يا حيي بن أخطب جئتني والله بذل الدهر وبجهاهم قد هراق ماؤه فهو يرعد ويرق ليس فيه شيء ويحك فدعني وما أنا عليه فاني لم أر من محمد الا صدقا ووفاء فلم يزل حيي يكذب يقتل له في القدوة والغارب حتى صبح بما طلب وأعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قرش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد عهده وبرى مما كان بينه وبين الرسول . . (١)

وقد أربب هذا العمل المسلمين لانهم علموا ما يحتمل أن ينجم من انضمام بني قريظة الى الاعداء واقتراب جيوش الاحزاب الى يثرب وقد عظم البلاء واشتد الخوف حتى ظن المؤمنون كل ظن ويحجم التفاق بين بعض المناقضين حتى قال أحدهم كان محمد يمدنا كنوز كسرى وقيصروا أحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط . . . ولما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله بعض رجاله الى قائدى غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معها عنه وعن أصحابه فخرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب . . . (٢)

وقد كان هذا الاتفاق بمثابة الهزيمة التامة لجيوش الاحزاب إذ أخذ القواد بعده يتناولون للدسائس وأخذت كل فئة تضرر الشر للآخرى ثم فسد الامر بين الاحزاب وبين بني قريظة حيث نعر بنو قريظة أن تغييرا أخذ يطرأ على الحالة فطلبوا من حلفائهم رهاث من الناس وأحد بنو قريش وغطفان يلوهون بني قريظة ويقولون لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخلف والخافر فأعدوا للقتال حتى تناجز محمدا فأرسلوا اليهم أن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذين تقاتل معكم محمدا فاننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تنتشروا الى بلادكم

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

وتركونا والرجل في يدهنا ولا طاقة لنا بذلك فارسلوا لنا الرهائن حتى نطمئن وأما بنو قريش وغطفان قتلوا والله لا نمنع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فاذا كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فآبى عليهم بنو قريظة

وبعث الله عليهم الريح في ليل ثمانية تسديدة البرد فجعلت تكفأ قلوبهم ونطرح آيتهم . . . ثم تهيأت قريش وغطفان للرحيل فانشمرت راجعة الى بلادها . . . (١)

وقد وافق المستشرقون على معظم أخبار الخندق التي سردناها الى هنا وأما الذي لا يوافقون عليه فهو ما جاء في المراجع العربية من أنه بعد أن كتبت المعاهدة بين المسلمين وبين قائد غطفان تناول سعد بن معاذ الصحيفة فحما فيها من الكتاب ثم قال ليجهدوا علينا . . . (٢)

لان ذلك قد يناقض الواقع اذ دب روح الشقاق بين الاحزاب بعد اثبات هذه الصحيفة بين الرسول وبين غطفان لا قبلها

على أن غطفان لم تشرك في القتال الا طمعا في ثمار خيبر وقد علم الرسول ذلك حتى العلم فوعد غطفان ما وعد وفصلت غطفان ما وعدها به الرسول على ما اتفقت مع اليهود عليه وإن كان أقل اذ كان ثلث ثمار المدينة لاتها رأت أنها ستفوز بهذه المنحة دون أن تسفك قطرة واحدة من دماءها

وبلاحظ العالم Leszynsky أن رواية تناول سعد بن معاذ للصحيفة وبمزيقه اياها تشبه ما يقال عن الرومان أثناء حصار جيوش الفلواة لمدينة روما اذ حدث أنه بعد أن تعهد المحصورون بأن يدفعوا غرامة مالية للحيوش المتوحشة تقدم بطل من أبطال روما فتناول المعاهدة ووزقها قائلا : ان روما لا تشتري استسلامها بالدرهم وأنى سأغسل عن وطني هذا العار . . . ولكن روما دفعت الغرامة وعادت حيوش

(١) اسى هشام - ٣ ص ٨٤

(٢) ابن هشام - ٣ ص ٧٧

الغلاة الى وطنها . . . (١)

وهناك سؤال يتردد في نفس الباحث وهو لماذا لم يطلب بنو قريظة من قريش وغطفان رهن الرجال قبل تلك الصحيفة لكن يظهر أن قريشا لم تدرك أن الشر إنما جاء من ناحية غطفان لأن الصحيفة كانت من قبيل المعاهدات السرية التي تعقد بين الدول في الوقت الحاضر (٢)

ومها يكن من شيء. فقد تخلص المسلمون من خطر جسيم كان يهدد كيانهم ويهدد وينذر بسقوط يثرب

وقد نتج من انضمام بنى قريظة الى جيوش الاحزاب وتقصم المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي أن الرسول لم يهل عليهم بعد تخلصه من جيوش الاحزاب بل بدأ يحاصرهم في نفس اليوم الذي أخذت فيه قريش وغطفان تنجلي عن المدينة حتى أنه أمر من كان معه سامعا مطيعا ألا يصلوا العصر الا ببني قريظة

ولم يقدر حبي بن أخطب الذي كان سببا في نقض المعاهدة بين بنى قريظة وبين المسلمين بما كان قد عاهد عليه كعب بن أسد بل وفي بعده وانضم الى أبناء جلدته ودخل معهم الحصن حيث استمروا محصورين خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار

ولسنا نعلم اذا كان قد حدثت ماوشات بين الفريقين أثناء هذه المدة أم لم تحدث

لكن يظهر أن بنى قريظة كانوا يميلون الى الهدوء والسلم لاهم كانوا رجال فلاحة وزراعة فلم يكونوا في القوة والبطش والحاس الحربى بالدرجة التي كان عليها بنو قينقاع وبنو النضير وبما يؤيد ذلك أن بنى النضير كانوا يدعون الدية كاملة

(١) ابن هشام ٣ ص ٧٤

(٢) ابن هشام ٣ ص ٨٣

بمخلاف بنى قريظة الذين كانوا يدفعون نصفها فقط (١)

من أجل ذلك كانت العرب ينظرون الى بنى قريظة بسين غير التي كانوا ينظرون بها الى غيرهم من البطون اليهودية الاخرى

وليس معنى هذا أن بنى قريظة لم تكن لديهم أية كفاءة حربية بل معناه انهم كانوا أقل من البطون الاخرى في ذلك ومع هذا أبلاوا بلاء حسنا في يوم بعث وأبدوا من الشجاعة وقوة العزيمة ما يستحق الاحترام وأيضا فانهم قد منعوا حصنهم خسا وعشرين ليلة ولم ينزلوا الا حين أيقنوا بالهلاك

على أن الواقدي يصرح بأنه حدث قتال بين اليهود وبين المسلمين أثناء الحصار حيث كان الفريقان يتراميان بالنبل والحجارة (٢) كما يذكر ابن هشام أن بعض الانصار من الخزرج وبني حارثة قتلوا في هذه المقاتلة الضعيفة (٣) ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الأطم مرة واحدة طول مدة الحصار لان عدد المسلمين كان يربو على الآلاف بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز سبعمائة الا قليلا ولما أيقنوا أن مقاومة جيش الانصار لا تفيدهم فتيلا وأنهم سوف يقعون في قبضتهم مع ما طال الزمن بعثوا الى الرسول أن ابث البناء أبا لبابة للاستشير في أمرنا فأرسله الرسول اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال وجلس اليه النساء والصبيان ليكون في وجهه فرق لهم وقالوا له يا أبا لبابة أترى أن تنزل على حكم محمد قل نعم وأشار بيده الى حلقة انه الذبح وقال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت أني قد خنت رسول الله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لا أطأ بنى قريظة أبدا ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا . . . واقام أبو لبابة مرتبطا بالجندع ست ليال تأتيه

(١) الواقدي ص ٢١٢

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٠٤

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٠٤

امراته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يسود فيرتبط بلجندع الى أن أطلقه النبي^(١)

ويظهر مما جاء في كتاب الواقدي أن بني قريظة قبلت أن تنزل على حكم الرسول لأنهم اعتقدوا حق الاعتقاد أن الأنصار يماثلونهم كما عاملوا بني قينقاع والنضير^(٢) وربما كان هذا هو سبب خيانة أبي لبابة إذ أشار الى العنق تلميحا الى الحكم الذي سينفذ في بني قريظة بعد خضوعهم

وكان بنو الأوس يمتقدون كما اعتقد بنو قريظة في نتيجة حكم الرسول قتلهم « لما أصبحوا نزل اليهود على حكم رسول الله فتوائت الأوس فقالوا يا رسول الله انهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالى اخواننا بالأوس ما قد علمت فقال الرسول ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم قالوا بلى قال فذاك الى سعد بن معاذ ثم حكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسّم الأموال وتسبي الفرارى والنساء . . . »^(٣)

ولا شك أن اليهود لم يـُـكونوا ينظرون الى هذه الخيانة من حلفائهم بني الأوس ولا الى غدر سعد بن معاذ بهم ولم ينجم كما نجى عبد الله ابن أبي حلفاءه من بني قينقاع . . . »^(٤)

وكان بنو قريظة طول الليل قبل اعدامهم يقرأون في كتاب الزبور ويتناقشون في شؤون الدين الاسرائيلي حيث اتفقوا على أن ينصروه الى آخر رمق من الحياة^(٥)

أما تنفيذ حكم الاعداء في رجال بني قريظة فقد نعلم أن الرسول خرج الى سوق المدينة فخذق بها خنادق ثم بعث اليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٨٩

(٢) الواقدي ٢١٣

(٣) ابن هشام ٣ ص ٩٢ — حديث للبصري ٢ ص ٢٢٩

(٤) ابن هشام ٣ ص ٨١

(٥) الواقدي ص ٢١٦

يخرج بهم إليهم إرسالاً وفيهم يحيى بن الخطيب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة والمكثر لم يقول تسعة ولا أتى يحيى بن الخطيب وعليه حلة قحاحية (ضرب من الوشي) قد شقها من كل ناحية قدر أمثلة لثلاث يسلبها أحد فلما نظر إلى رسول الله قال أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر ولمحة كتبها الله على بى إسرائيل ثم جلس ففصرت عنقه . . . (١)

وقد أخرج كعب بن أسد زعيم بنى قريظة على أبناء جلدته قبل خروجه من أطامهم أن يعتنقوا الاسلام « فإمنوا على دمايتهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره (٢)

هذه الجمل تدل على رسوخ الديانة في نفوس بنى قريظة واتهم ما كانوا ليعبأوا بالموت في سبيل التمسك بدينهم والمحافظة على عقائدهم

وقد قلنا إن بنى قريظة أظهروا المعجز في الشؤون الحربية بالنسبة للبطون الأخرى ويتضح ذلك من حديث لابن هشام إذ « قال كعب بن أسد لقومه إذا أتيتهم على هذه (الدخول في الاسلام) فهل فليقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم تترك وراءنا قتلاً حتى يحكم الله بيننا وبينهم فإن نهلك نهلك ولم تترك وراءنا سلاً نخشى عليه وإن نظر فلعمري لنحدث النساء والأبناء قتلوا هؤلاء المساكين فما خير العيش بدمهم قال فإن أتيتهم على هذه فإن اللييلة ليلة السبت وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنوا فيها قاتلوا لعلنا نصيب منهم غرة قالوا نفد ستننا علينا ونحدث فيه ما لم يكن ممن كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسيح قل ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حارماً . . . (٣)

(١) ابن هشام - ٣ ص ٩٤

(٢) ابن هشام - ٣ ص ٨٨

(٣) ابن هشام - ٣ ص ٨٨

وقد اشترك الأوس في قتل حلفائهم فإنه لما شرعت « الخرج تضرب أعناقهم ويسرم ذلك فنظر رسول الله إلى الأوس فلم يرد ذلك فيهم فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وبين بني قريظة وقال ليضرب فلان وليذف فلان... (١)

وقد أظهر بعض اليهود في نكبتهم هذه من الشجاعة ما يستوقف النظر فمن ذلك ما حدث للزبير مع أحد الانصار، ذلك « أن الزبير كان قد منّ على ثابت ابن قيس في يوم بعث أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال يا عبد الرحمن هل تعرفني قال وهل يبجل مثلي مثلك قال اني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي قال ان الكريم يجزي الكريم ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله فقال يا رسول الله انه قد كانت للزبير على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فحب لي دمه فقال رسول الله هو لك فأتاه فقال ان رسول الله قد وهب لي دمك فهو لك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة قال فأتى ثابت رسول الله فقال ما بي أنت وأمي يا رسول الله حب لي امرأته وولده قال هم لك قال فأتاه فقال قد وهب لي رسول الله أهلك وولدك فهم لك قال أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله فقال يا رسول الله ماله قال هو لك فأتاه ثابت فقال قد أعطاني رسول الله مالك فهو لك قال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه امرأة صينية يترامى فيها عذارى الحى كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل سيد الخاضر والبادي حيي بن أخطب قال قتل قال فما فعل مقدمنا اذا شددنا وحاميتنا اذا مررنا عرال بن مسمول قال قتل قال فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة قال ذهوا وقتلوا قال فأتى أسالك يا ثابت بيدي عندك الا ألحقتي بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر

فهُ قُتِلَ دُلُو نَاضِح حَتَّى أَلْبَى الْإِجَابَةَ قَدَمُهُ ثَابِت فَضْرِبَ عُنُقَهُ . . . (١)

وكان المسلمون لا يقتلون في غزواتهم النساء والفرارى وكل من لا ينبت من الرجال (٢) لكن في هذه الغزوة قُتِلَت امرأة واحدة وقد انطلقوا بها للقتل وعلى نغرها علامة الجبور والابتهاج حتى قالت عائشة زوج الرسول : فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل (٣)

وقد نجى في ذلك اليوم أربعة من اليهود لم يقتلوا لأنهم اعتنقوا الاسلام فأقاموا على نسائهم وذراريهم وأملاكهم وقد بقى ثلاثة منهم في المدينة أما رابعهم فقد خرج على وجهه من يثرب ليلة اسلامه ولم يدر أحد الى أين ذهب (٤)

ولم يكن الثلاثة الذين أسلوا من بنى قريظة أو من بنى النضير بل كانوا من بنى هذيل وهم بطن من البطون العربية التي تهودت ولم يكن عدد افرادها المتهودين كبيراً في يثرب

ومهما يكن من شيء فقد قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود في يثرب وقد كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والنزوح منذ الساعة الأولى لمجاورتهم لهم في يثرب وقد بدلت في هذا السبيل جهوداً عظيمة في قترات مختلفة ولم توفى حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم واطمأنتهم السياسية في وقت كانت خامدة فيه تلك الآمال

وقد طرأ تغيير عظيم على يثرب بعد خروج اليهود منها اذ تدهورت شئونها التجارية والصناعية تدهوراً شديداً ولو لم يكن بهذه المدينة صريح الرسول ولو لم تكن عاصمة الدولة الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين لما كان ليثرب شأن

(١) ابن هشام ٣٨ ص ٩٥ — الواقدي ص ٢٩٩

(٢) حديث البخاري ج ٢ ص ٢٥١

(٣) ابن هشام ٣٨ ص ٩٤

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ٩٠

يذكر بعد تلك الحوادث في الجزيرة العربية
وفد اضمحل شأن هذه المدينة بعد عصر الخلفاء الراشدين ولم تعد اليها
مكائنها القديمة من الوجهة التجارية والصناعية

هذا ما يميل اليه المستشرقون وقد يكون من الصعب تفنيد هذا الرأي
وتحريده من الصحة على أن هناك قطعة جوهرية يجب أن نتنبه لها ونحن نبحث
أسباب الضعف الذي طرأ على يثرب بعد أن عحيت منها سلطة اليهود

قد يظهر لكل باحث في تاريخ المسلمين بعد الخندق وغزوة بني قريظة
ظاهرة جديدة في منطقة يثرب أولاً وفي الحجاز كله بعد زمن قصير : هي أن
مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة أهملت إهمالاً شديداً وأخذ أفراد البطون
وزعمائها يتجهون نحو الشؤون الحربية التي شغلت العرب بما جلبت لهم من المغنم
وبما مكنت لهم فيما يملك أعداء الاسلام في الجزيرة العربية

و بعد غزوة تبوك أخذت الجيوش الاسلامية تغمر سورية والعراق ومصر
وأفريقيا الشمالية فلم تنق للأعمال القديمة المعروفة في الجاهلية قبة كبيرة في كسب
الرزق واحراز المال والسلاح اذ كانت ثمار الأرض من بر أو تمر قليلة جداً
بالنسبة لما تغله الفتوح من مختلف الثروات

وكذلك أهمل العرب أعمالهم الزراعية وتركوها بأيدي العبيد الذين جلبوهم
من الامم المغلوبة

ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على العصر العربي وحده بل نجدتها شاملة
لكل الامم في طور الانتقال من الفقر والبداءة الى الملك والاستعمار فقد نعلم أن
الامة اليونانية أخذت بعد خروج الاسكندر الاكبر لتفتح ممالك الشرق تنحط
في الزراعة والتجارة وتهمل ما في بلادها من مصادر الثروة طمعاً في جلب ما في
الممالك الشرقية من المغنم الكثيرة والى مثل هذه الظاهرة يشير من كتب في

تاريخ روما بعد قهرها لأمم العالم القديم
أما الإهمال الذي وقع في منطقة يثرب فقد ظهر أثره بعد زمن قصير في مكة
اذ تدهورت شؤونها التجارية ولم تعد نسع في التاريخ الاسلامي شيأ عن قوافل
مكة الى يثرب والشام واليمن لانت عشائر قريش وزعماءها وجدوا أرواقهم فيها
انبسط لهم في الممالك الاسلامية ولولا الكعبة بمكة لظلت كسائر مدن الجزيرة التي
لم ترتق ولم تعظم بظهور الاسلام بل أصبحت خالية من أهلها العرب الذين طوحت
بهم مطامع الفتوح

على أن الدكتور طه حسين يرى أن انحطاط يثرب والحجاز عامة من الوجهة
المادية لم يكن ناشئا عن اضعاف اليهود واجلائهم وانما كان نتيجة لازمة لانتقال
النشاط العربي الى جهة أخرى خارج البلاد العربية وهو يرى أن اليهود لو أنهم
ظلوا مسلمين للنبي والمسلمين حتى تمت الفتوح لبخلوا بنشاطهم الطبيعي على هذه
الارض الحجازية التي لم يستعمروها الا مضطرين ولاتمسوا لانفسهم مستعمرات
أخرى أخصب وأحلب للنفع في العراق والشام أو مصر أو غيرها من البلاد التي
فتحت على المسلمين

أما النتيجة المادية لمحو السلطة اليهودية في يثرب فواضحة فقد قسم الرسول
المقام من الذهب والعصا ومن المنازل والمزارع على المهاجرين ووضع تحت يد
أنصاره زعامة الآطام التي أخذت من اليهود وما بقي من الأموال بعد هدايا
المهاجرين والا نصار حفظ في بيت المال للدولة العتية التي ظهرت بمظهر القوة بعد
غزوة بني قريظة وكانت في حاجة شديدة الى الأموال التي تساعد على تنفيذ
المشروعات المهمة في الحجاز وأطراف الشام

أما تأثير هذا العور المبين في القنائل العربية الوثنية من قريش وغيرها
فستبينه فيما بعد .

وأما المناقون فقد حمت صوتههم بعد يوم فريله ولم يعد نسمع لهم أعمالا أو

أقوالاً تناقض ارادة النبي وأصحابه كما كان يفهم ذلك من قبل
أما النساء والفرارى فقد بحث بهم الرسول الى نجد فابتاع بهم حيلاً وسلاحاً
وقد اصطفى لنفسه من نساء قريظة ربحانة بنت زيد فكانت عنده حتى توفيت
في حياته ويقول صاحب كتاب الطقات إن الرسول ضرب عليها الحجاب وكان
معجباً بها وكانت لا تسأله الا أعطاها ولقد قيل لها لو كنت سألت رسول الله
بني قريظة لأعتقهم . . . وكانت امرأة جميلة وسيمة . . . ففارت عليه غيرة
شديدة فطلقها تطليقة وهي في موضعها لم تبرح فشق عليها وأكثرت البكاء
فدخل عليها رسول الله وهي على تلك الحال فراجعها فكانت عنده حتى ماتت
عنده . . . (١)

وفي سورة الأحزاب آيات تتعلق بغزوة بني قريظة «ورد الله الذين كفروا
بغيطهم لم ينالوا حبراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين
ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون
وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على
كل شيء قديراً» (٢)

وكذلك قال العرب شعراً كثيراً في غزوة قريظة وغزوة الخندق وهو شعر
لم يوجد له نظير في الغزوات الأخرى عند ابن هشام وهو يدل على ما كان لتلك
الغزوة من وقع شديد في النفوس

وما قاله جبل بن جوال الثعلبي يبيّن بني قريظة :

ألا يا سعد سعد بن معاذ	لما لقيت قريظة والمضير
لمرك أن سعد بن معاذ	غداة تحمّلوا هو الصبور
فأما الخرجي أبو حباب	فقال لقينقاع لا تسيروا

(١) طقات ابن سعد جزء ٨ ص ٩٣

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٥ — ٢٧

وبدلت الموالى من حضير
وأقفر البويرة من سلام
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا
فان بهلك أبو حكم سلام
وكل الكاهنين وكان فيهم
وجدنا المجد قد نبثوا عليه
أقيموا يا سراة الأوس منها
تركتم قدركم لا شيء فيها
أسيد والدوائر قد تدور
وسمية بن أخطب فهي بور
كما ثقلت بجحطان الصخور
فلا رث السلاح ولا دثور
مع اللين انحضارمة الصقور
بمجد لا تغيبه البسود
كأنكم من المخزاة عور
وقدر القوم حامية تفور

الباب الثامن

غزوة خيبر

الاسباب التي حلت الرسول على محاربة أهل خيبر — أهمية معاهدة الرسول مع قريش قبل هذه الغزوة من الوجهة السياسية والحربية — مراقبة قبائل الحجاز لنزول خيبر — غدر بني غطفان بمخلفاتهم أهل خيبر — النضال حول أطام خيبر — سلام بن مشكم وبقيّة زعماء خيبر — المناطق الحربية في بلاد خيبر — حصون خيبر النعمة — الحاح اليهود وطلب الصلح — لماذا لم يجهل الرسول أهل خيبر ؟ — رأى ابن هشام — آراء المستشرقين — مقام خيبر — صحف التوراة والرسول — زواج النبي بصفية بنت حيي بن أخطب — محاولة زينب ابنة الحارث الانتقام من الرسول — لماذا تزوج الرسول بصفية بنت حيي ؟ — خضوع يهود وادي القرى ومدن ونهاة الرسول — نتيجة غزوة خيبر

ارتعدت فرائص يهود خيبر لما وصل اليهم ما حل بأخوانهم في يثرب من التنكيل والتقتيل وأوجسوا خيفة من تقمة المسلمين عليهم من جراء نحر يرضهم لبني قريش وغطفان مع حيي بن أخطب على محاربة الانصار

وقد صرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بأن خطراً يهدد كيان اليهود في الحجاز وأبأن لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا الى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتبعا. ثم يزحفوا على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية في هذه الغزوة ولكن بعض الزعماء عارضه في هذا الرأي^(١) وكانوا في هذه الاثناء يرسلون الوفود بالاعمال الى المدينة لفداء عدد عظيم من النساء والفرارى . . .^(٢)

(١) الواقدي ص ٢٢٤

(٢) الواقدي ص ٢٢٩

وقد علم الرسول بما يدور في خلد يهود خيبر فأخذ ينهياً لقتالهم ولكنه أبجله الى أجل قصير لأسباب سياسية وأخذ الانصار يرسلون الوفود لقتل زعماء خيبر كقدمات للغزوة

وكان من تلك الضحايا زعيمان كبيران النفوذ والسيطرة في خيبر وهما سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام

أما الاول فقد قتل غيلة على فراشه في خيبر بواسطة خمسة من رجال بني الخزرج قصدوا خيبر فاحتالوا على امرأة سلام وقلوا لها إنهم يلتمسون الميرة ففتحت لهم الابواب فهجموا على سلام وطمنوه بسيوفهم وهو على فراشه لا يدري^(١)
٣٣

ونلاحظ أن هذا القتل لم يكن بعد غزوة قريظة مباشرة بل جرى قبيل غزوة خيبر وكان أبو الحقيق من أصحاب العقول الراجحة فاراد المسلمون أن ينخلصوا منه قبل أن تدور المعارك بينهم وبين اليهود في ناحية خيبر

وأما الزعيم الثاني وهو اليسير بن رزام فقد كان يجتمع بين غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود في حالة دخول أهل خيبر في حرب مع المسلمين « فبعث اليه الرسول عبد الله بن رواحة في نفر من أصحابه فقدموا الى اليسير بن رزام بخيبر وكلوه وقالوا له انك إن قدمت على الرسول استعملك وألزمك فلم يرالوا به حتى اذا كان بالقرقرة من خيبر على ستة أميال ندم اليسير على مسيره ففطن له عبد الله بن أنس فافتحم به ثم ضربه بالسيف فقطع رجله وضر به اليسير بمخراش في يده من شروط فأمة ومال كل رجل من الانصار على صاحبه من اليهود فقتله الا رجلا واحدا أفلت على رجله . .^(٢)

وقد يدل هذا على صحة ما رواه الواقدي من أن بعض زعماء خيبر لم يوافقوا

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ١٢٢

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٤٠ — تاريخ الخميس جزء ٢ ص ١٦

على رأى سلام بن مشكم من محاربة المسلمين وأن اليسير بن رزام قد خرج فعلا مع عبد الله بن رواحة يقصد المدينة ليدخل في حلف مع الرسول ليمحو من قلوب الانصار الاستياء من اشتراك بعض زعماء خيبر والنصير في يوم الخندق وأما عبد الله بن رواحة فإنه لم يأت الى خيبر لعقد معاهدات بل لتنفيذ خطة سياسية خطيرة كان من شأنها اضعاف اليهود بقتل بعض زعمائهم وقد اعتبره مؤرخو العرب قتل اليسير بن رزام من الاعمال السياسية الجليطة فقد وضعوا له بابا خاصا كأنه غزوة من الغزوات

أما ابن هشام فقد وضعها في أخبار الانصار قبيل غزوة خيبر ولكي يتمكن الرسول من محاربة أهل خيبر دون أن يكون عرضة لخطر من جهة أخرى فقد توجه الى مكة في ذى القعدة من السنة السادسة وتصلح مع قريش

وقد جاء ابن هشام بنص المعاهدة : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمر واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه وأن بيننا عينة مكفوفة وأنه لا سلاسل ولا أغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . . . (١)

أما بعد عقد الرسول هذه الهدنة فقد أصبح آمناً شر قريش وصارت له الحرية في أن يسير حيث شاء فأمر جموع المسلمين أن يتجهزوا لغزو خيبر وخرج بهم في المحرم من السنة السابعة قاصداً خيبر وهي على ثلاثة أيام من المدينة وأما الاسباب التي حملت قريشاً على عقد الهدنة فهي أن قريشاً كانت في حاجة شديدة الى هدنة مع الرسول لما ظهر في مكة من الصائقة الاقتصادية بعد يوم قريظة ولما كانت تخشى على قوافلها من غارات المسلمين ولما كانت تتوقعه

من انتقام الرسول بعد أن خطر به وكادت له في بدر وأحد والخندق
ولما سمع القرشيون بمسير النبي إلى مكة خرجوا معهم العوذ المطافيل وقد لبسوا
جلود الثور^(١) ونزلوا بنى طوى يماهدون الله أن لا يدخلها المسلمون عنوة أما
الرسول فلم يأت للقتال ولكنه جاء لزيارة البيت الحرام
ولا شك في أنه قد ظهرت للنبي بعد يوم قريظة سياسة جديدة أزاء قريش
فقد أراد أن يأخذهم بالرفق ولكن أي رفق ؟ انه رفق القوى الذي يريد أن
يصل إلى غرضه بدون أن يحكم السيف وليس رفق هنا كرققه بمكة يوم كف
قليل الانصار

ويحدثنا ابن اسحق أن الرسول قال : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطبة
يسألوني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها^(٢)

فلما وقعت قريش أن الرسول يميل إلى مهادتها لم تردد في القبول
أما نص عقد الهدنة فأننا نعتقد أنه كان أطول مما وصل إلينا في كتاب
السيرة فقد جرت مفاوضات كثيرة قبل الهدنة ولم تكنف قريش بأقوال بهيمة
واتما طلبت شروطاً واضحة تضمن لمناحرها وقوافلها الأمان
والذي يرجع إلى آيات سورة الفتح التي يشرحها ابن إسحق يرى أن الاخبار
القليلة التي وصلت إليه عن يوم الحديبية يرجع الفضل فيها إلى الآيات أكثر من
الروايات التي لم يبق منها لهذه الا القليل

أما أنصار الرسول فقد غضبوا وناروا اذ اعتقدوا أن شروط الهدنة في صالح
قريش وكانوا يودون أن تدعن لحكم الرسول بلا شرط ولا قيد وفي هذه الهدنة

(١) قيل العوذ جمع طائد وهي الناقة التي معها ولها يريد أنهم خرجوا بدوات اللان
من الابل ليتودوا ألبانها ولا يرجوا حتى يتلحزوا عمداً وأصحابه في زعمهم . . . (الروض
الافت جزء ٣ ص ٢٦٦)

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٥٢

قال عمر بن الخطاب كلمته المأثورة « علام نعطي الدين في ديننا »^(١)
وبالرغم من ثورة المسلمين على شروط الهدنة فقد كان في قبولها من الرسول
دلالة كبيرة على بصره بالعواقب وعلمه بالسياسة الدقيقة ويؤيد ذلك ما قاله الزهري
فما فتح في الاسلام فتح قبل يوم الحديبية كان أعظم منه انما كان القتال حيث
التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وآمن الناس كلهم بعضهم
بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد في الاسلام يعقل شيئاً
الا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الاسلام قبل ذلك أه
أكثر...^(٢)

أما الآيات التي تتعلق بيوم الحديبية فهي تحتوي على سورة الفتح بأجمعها
« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته
عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . . إن الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله
فوق أيديهم فمن نكث فأنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه
أجراً عظيماً . . وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد
أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً هم الذين كفروا وصدوك عن المسجد
الحرام والهدى معكوا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموا
أن تطهروهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ليسلخ الله في رحمة من يشاء لو تزيلاوا
لعدبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحية حية
الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألهمهم كلمة التقوى وكانوا
أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن
المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محققين ردوسكم ومقصرين لا تخافون فعمل ما لم
تعملوا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . . »

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٥٨

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٦٤

وتتلخص الأسباب التي حملت النبي على غزو خيبر فيما يأتي :

(١) ثأره من يهود خيبر لما فعلوه من تحريض قريش وغطفان على محاربة المسلمين .

(٢) كانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف بأساً وأوفرها مالا وسلاحاً ولم يكن هناك أى أمل في أن يعتنقوا الدين الاسلامى بعد ما اثبتت التجارب السابقة مع يهود يثرب أن اليهود لن يدخلوا في الاسلام ، ولما كان الغرض الذي يرمى اليه الرسول انما هو جمع العرب على دين واحد وتأليف كلمة متحدة منهم فقد كان حتما عليه في هذه الحال أن يقضى على يهود خيبر حتى لا يكونوا حجرة عثرة في سبيل تحقيق ذلك الغرض

(٣) لم يجد النبي قوة تقف في سبيل نشر دينه إلا قوتين اثنتين قوة قريش وقوة اليهود لذلك وضع نصب عينيه القضاء على هاتين القوتين ليخلو له الجور ويتمكن من نشر دعوته . أما بقية القبائل الحجازية فلم تكن من القوة والخطورة بمثل ما كانت قريش واليهود

ويظهر أن صاحب السيرة لم تصله أخبار كثيرة عن غزوة خيبر لذلك لجأ مؤرخو العرب — وقد كانت لهم سيرة ابن هشام الينبوع الذي يستقون منه جميعاً — الى الأخبار والروايات المصطربة فجاءت بعض رواياتهم مختلطة بكثير من المعائب والغرائب كما سنوضح ذلك فيما بعد

وبما لا شك فيه أن غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم في تاريخ الفتح الاسلامية اذ كانت كل قبائل الحجاز تراقب تبيعتها باهتمام وتنظم شؤونها على حسب ما كان يتراءى لها من نتيجة صليل السيوف بين الانصار واليهود وقد كان أعداء الرسول الكثيرون في بلاد العرب وحاضرتها يعلقون آمالا كبيرة على تلك الغزوة

وقد اقسم أهل مكة قسمين : طائفة منهم ترجح أن النصر سيكون لحليف

اليهود وطائفة ترى أنه سيكون من نصيب المسلمين وكثيراً ما تراهن بعض الأفراد من كلتا الطائفتين بسبب ذلك (١)

وقد كان الاهتمام بهذه الغزوة شديداً جداً في مكة أثناء القتال حول أطام خير حتى أن الحجاج بن علاط لما ذهب إلى مكة بعد أن انتهى الحرب بفوز المسلمين خدع أهلها وقال لهم « عندي من الخبر ما يسركم: هزم محمد هزيمة لم تسمعوا بمثله قط وأمر محمد أسراً وقال أهل خير لا تقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم فابتهج أهل مكة لهذا الخبر ودخلوا إلى الكعبة ليقدموا الضحايا إلى اللات والعزى . . (٢)

وأما يهود خير فقد أرسلوا إلى غطفان يستمدونهم لأنهم كانوا من حلفائهم وشرطوا لهم نصف ثمار خير إن غلبوا على المسلمين قبلوا (٣)

ولكن بطون غطفان التي اشتهرت بفسادها يوم الخندق أخلت يهود خير أيضاً إذ بعد أن ثيأت غطفان للقتال وظهرت طلائع الجيش الإسلامي دب الخوف في قلوبهم واستولى عليهم الفرع فرجعوا على أعقابهم وأقاموا في أهلهم وغلوا بين الرسول وبين خير (٤)

ولكن يظهر أن غطفان لم ترجع على أعقابها من جراء الخوف من طلائع الجيش الإسلامي كما يقول ابن هشام لأن لدينا رواية أخرى تقول إن الرسول قد بعث إلى بني فزارة من بني غطفان وكانوا قد قدموا لمحاربة المسلمين مع يهود خير يطلب منهم أن « لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خير شيئاً ساء لهم قابوا عليه وقالوا حلفاؤنا وجيراننا فلما افتتح الله خير أتاه من كل هناك

(١) الواقدي ص ٢٨٩

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦

(٣) تاريخ الخميس = ٢ ص ٤٨

(٤) ابن هشام = ٣ ص ١٧١

من بني فزارة فقالوا للثني وعدتنا فقال لكم ذو الرقبة لجبل من جبال خيبر^(١)
وقد جاءت هذه الرواية في كتاب المغازي للواقدي حيث يقول : إن عينة
زعيم بني فزارة قد غضب ولم يقبل ذا الرقبة لأن أرضها لم تكن خصبة^(٢)
أما اليهود فاتهم بعد أن شاوروا زعيمهم سلام بن مشكم « أدخلوا أموالهم
وعيالهم في حصن الوطيط والسلام وأدخلوا ذخائرهم في حصن ناعم وجمع المقاتلة
وأهل الحرب في حصن نطاة وسلام بن مشكم مع أنه كان مريضاً جاء ودخل نطاة
معه وحرض الناس على الحرب »^(٣)

وكانت حصون خيبر منيعة على رؤوس الجبال وكان رجالها مدرين قد
مارسوا القتال والضال وكانوا أصحاب سلاح كثير واستعملوا آلات الهدم في رد
عادة المغيرين عن أطاؤهم . . .^(٤)

وكان الرسول قد جاء بخيار الانصار مسلحين بكل ما غنموه في الغزوات
السابقة وكذلك انضم اليهم كثيرون من قبائل العرب البادية طمعاً في أموال
اليهود

وكان من نتائج أول معركة بعد أن التقى الجمعان حول حصن نطاة أن وصل
عدد جرحى المسلمين الى ٥٠٠^(٥)

وعلى العموم فانه من المتعذر معرفة عدد القتلى في هذه المعارك لان مؤرخي
العرب — كما قلنا — لم تصلهم أخبار كثيرة عن غزوة خيبر وفصلاً عن ذلك
فانه من المعروف أن المؤرخين في التاريخ العام لا يذكرون عدد القتلى والجرحى
من جهاتهم بينما يبالغون في عدد القتلى والجرحى من العدو

(١) تاريخ الخميس ٢ ص ٦٠

(٢) الواقدي ص ٢٧٩

(٣) تاريخ الخميس ٢ ص ٥٠

(٤) تاريخ الخميس ٢ ص ٥٠

(٥) الواقدي ص ٢٨٦

وقد نكب اليهود في أول عهد الفزوة بنكبة شديدة بسبب وفاة زعيمهم سلام بن مشكم في حصن نطاة وكان المسلمون يحاصرونه أثناء ذلك^(١)
وقد وجد في هذا الحصن أولاد بني قة وكأوا أصحاب ثروة طائلة في خيبر حتى قالت عائشة زوج الرسول عن هذه الأسرة : ما شيع رسول الله من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قة^(٢)

وانتقلت القيادة بعد وفاة سلام بن مشكم الى الحارث أبي زينب الذي خرج بعد ذلك من حصن ناعم لمنازلة الجيش الاسلامي فانهزم أمام بني الخزرج الذين بادروا لقتاله واضطروه الى أن يرجع الى الحصن ثم تجمع جماعة من اليهود رابطي الجأش وهجموا على الانصار حتى وصلوا الى حامل الراية بالقرب من الرسول فبعث الرسول أبا بكر الصديق براية الى الحصن قتاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ثم بعث في القد عمر بن الخطاب ورجع ولم يكن فتح وقد جهد فدعا الرسول عليا وهو أرمد فتغل في عينه ثم قل خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله قاتلهم فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه من يده فتناول علي بابا كان عند الحصن فتترس به فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد كان في نفر ثمانية اجتهدوا على أن يقبلوا الباب فلم يقبلوه^(٣)

أما صاحب تاريخ الخميس فيسرد هذه الاخبار ويلاحظ أن الذين أرادوا خلع باب الحصن كانوا سبعين ولم يحركوه الا بعد جهد . . . وقد حمله على بن أبي طالب على ظهره وجعله قطرة دخل عليها المسلمون الحصن ثم ألقى ذلك الباب وراء ظهره ثمانين شهرا^(٤)

(١) تاريخ الخميس - ٢ ص ٥٠

(٢) تاريخ الخميس - ٢ ص ٥٣

(٣) ابى هشام - ٣ ص ١٧٦

(٤) تاريخ الخميس - ٢ ص ٥٦

وفى أثناء هجوم الانصار على حصن ناعم قتل البطل الخبيرى مرحب بعد
مبارزة عنيفة مع محمد بن مسلمة ^(١)
وتذكرنا هذه المباراة بحسب رواية صاحب الخيس بالروايات الخرافية
عند قدماء الافريق

والذى يمكننا أن نستنتج من هذه الروايات أن معارك عنيفة دارت حول
حصن ناعم دون أن يتغلب المسلمون على اليهود فأمر الرسول أنصاره أن يقطعوا
أرباعهم من نخيل اليهود ليدخل الرعب فى نفوسهم ^(٢)
وقد نصح أبو بكر الصديق الرسول بأن يمتنع عن قطع باقى الاشجار ففعل ^(٣)
وسقط حصن ناعم بعد أن قتل قائده الحارث أبو زينب ^(٤)
وكان حصن ناعم من الحصون المنيعه فى منطقة نطاة التى كانت بها أطام
نعرف بهذا الاسم
وكانت بلاد خيبر منقسمة الى ثلاث مناطق حربية الاولى نطاة والثانية
الشق والثالثة الكنتية

وبعد أن سقط حصن ناعم توجه المسلمون الى حصن الصعب بن معاذ
ورحفوا عليه ففرق اليهود ثملهم فاضطر الرسول أن يزجر رجاله ويحمسهم فتقدموا
واقحموا السور ولكنهم وجدوا بعده سورا آخر داخلها فأزروه بعد جهد شديد
وارتد اليهود الى حصن آخر هو حصن الزبير فى نفس منطقته نطاة ^(٥)
وكان مقاتلة المسلمين قبل فتح حصن الصعب بن معاذ فى حالة صئك شديد
لقله المؤن عندهم وكثرة الجيوش فتوجهت جماعة منها الى الرسول تشكو اليه

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٥

(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥١

(٣) الواقدي ص ٢٦٨

(٤) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٥ — الواقدي ص ٢٧١

(٥) الواقدي ص ٢٧٤

وتطلب منه ما تسد به رمقها . فلم يجد الرسول شيئاً يعطيهم إياه فقال اللهم انك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه^(١)
وقد أذن الرسول للانصار في أكل لحوم الخيل^(٢)

وحدث أثناء ذلك أن أحد المسلمين اغتم شاتين اغتمهما بعد أن دخلت أولاهما الحصن فحضرهما تحت يديه وأقبل بهما الى الرسول فذبجوهما وأكلوهما وكان هذا الرجل اذا حدث هذا الحديث بكى^(٣)

لكن بعد فتح حصن الصعب بن معاذ وجد المسلمون طعاماً وودكا كثيرا^(٤)
ويظهر لي أن معاذاً هذا لم يكن علماً لشخص كما تشعر بذلك تسمية الحصن به بل تعرف الصخرة العالية في اللغة العبرية باسم معاذ

وقد كان هذا الحصن على صخرة عالية كما ذكر ذلك صاحب تاريخ الخيس^(٥)
أما حصن الزبير فقد كان منيعاً جداً حتى ان المسلمين لم يستطيعوا فتحه على عظم ما بذلوا من جهود الا بعد أن جاءهم يهودى ففدرا باخوانه فصيح لم يقطع الماء عن المحصورين وكان هذا الماء يجرى الى القلعة من تحت الأرض فاضطر اليهود الى أن يخرجوا منه . وبعد مبارزة عنيفة انهزموا وفروا الى أثناء جلدهم في منطقة آطام الشق^(٦)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٣

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٢

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٧

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٤

(٥) على أن تسمية الصخرة عمداً في العربية لا يجمع من أن يكون أما لرجل مسمى عمداً أيضاً لأن عمداً في اللغة العربية اللعاب وهو يطلق على المصدر والمان والمكان كما في التاج ص ٥٧٠ ج ٢ وقد سمي العرب عمداً تشبهاً للشخص باللعاب الذي يلعب اليه الخائف قال صاحب القاموس (وسوا عاتداً وعائدة ومعاداً) ص ٣٦٩ ح ١

(٦) الوراق ص ٢٧٦

ولما أصبحت أطام منطقة النطا في أيدي الغزاة اتجهوا الى اقليم الشق
وشرعوا بمحاصرون قلعة أبي وهي على جبل شمران
ولسنا نعرف مما جرى أثناء حصار هذا الحصن أكثر من انه حدثت
مبارزات بين أفراد من اليهود والمسلمين انتهت بفتح القلعة
ترك الرسول بعد ذلك بقية حصون منطقة الشق في أيدي اليهود لقلّة أهميتها
من الوجهة العسكرية وقصد أرض السكتية حيث احتشد اليهود في حصن القموص
الذي تجمعت فيه جموع المهزمين والغارين من الحصون الخيرية الأخرى
وكانت القموصى تحت قيادة بعض الأشراف من بنى الحقيق وكان في هذا
الحصن نساء هذه الأسرة وقد كان لهذا الحصن اسم آخر وهو نزار ومعناه باللغة
العبرية التاج (٦٥)

وقد اختلف بعض مؤرخى العرب في أخبار حصى ناعم والقموص فابن
هشام والواقدي يقصان بعض الأخبار عن ناعم في حين يأتي صاحب تاريخ
الخيبر بنفس هذه الأخبار على أنها حدثت أثناء الحصار حول القموص (١)
على أننا لا نعلق أهمية كبيرة على أخبار كهده لا تجدى المجادلة فيها فتيلا
لأنها روايات خيالية أكثر منها حوادث حقيقية

استمر الحصار حول حصن القموص عشرين يوماً حيث انتهى بتسكين
المسلمين من فتحه عنوة ووقع في قبضتهم سبايا من النساء والفرارى قسمها الرسول
بين أنصاره واصطفى لنفسه منها صفية ابنة حبي بن أخطب

وبينا كانت الجيوش الإسلامية تحاصر الوطيح والسلام في اقليم السكتية
طلب اليهود الصلح وسألوا الرسول أن يحقن دماءهم فأجابهم الى طلبهم وحقن
دماءهم (٢)

(١) تاريخ الخيبر ج ٢ ص ٥٥

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٩

وهنا تساءل لماذا عامل الرسول يهود خيبر بغير المعاملة التي عامل بها يهود يثرب؟

ويتلخص الجواب على هذا السؤال في أن خيبر كانت واسعة الاطراف وفيها من الحدائق والمزارع والتخيل ما يحتاج للأيدى الكثيرة التي مارست أشغال الزراعة والفلاحة ولم يكن من العرب من مارس ذلك الا النزر القليل وفوق ذلك لم يرض الرسول أن يترك من أنصاره من يستوطن هذه الارض ويعمل بها لاحتياجه اليهم في الاعمال الحربية ولم يكن في الامكان ترك هذه الارض المخصصة بوراً لا تنتج زرعاً ولا ثمرأ الا أن الدولة الاسلامية الناشئة كانت في أشد الحاجة الى الاموال الكثيرة فلم يكن بد من الابقاء على اليهود ليعملوا في هذه الارض وينتجوا منها الزرع والتمر ولذلك كانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين في مصلحة المسلمين أكثر منها في جانب المغلوبين

هذا الى أن يهود خيبر لم يفعلوا ما بوغض صدر الرسول ويشير حقده عليهم كما فعل غيرهم وكل ما كلف منهم لا يعدوا اشتراك بعض رعاء بني النضير اللاجئين الى يهود خيبر في تحريض قريش وغطفان على المسلمين في يوم الخندق وما دامت شوكة اليهود في المحاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر في أراضيهم بل كان في وجودهم مصلحة كبيرة حيث يستمر مجهوداتهم في الاعمال التجارية والزراعية للاكتثار من واردات الحكومة الجديدة كما ذكرت آنفاً ويرتاب بعض المستشرقين في قول الواقدي (إن المسلمين لم يتركوا لليهود خيبر سوى ثوب واحد لكل منهم وسوى نسائهم وذرايعهم)^(١)

ويؤيد المستشرقين في ارتيابهم هذا أن الواقدي نفسه يقول في نفس الصحيفة التي ذكر فيها ذلك إن اليهود قد جاءوا من منطقة السكينة لتراء غنيمة القموص وفداء النساء والذراري من أيدي الظافرين فن أبين جاءوا بما يشتهون

به الإنتقام ويقتلون النساء والقراري اذا لم يكن المسلمون تركوا لهم الا توباً واحداً لكل واحد منهم

والواقع أن الرسول خمس بلاد خيبر وقسمها على الأنصار وعلى أصحابه ونسائه بطريقة الأسهم وأقام اليهود على أراضيها على أن يعطوا نصف ثمارها للمسلمين وكان رسول الله يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل عليهم في الخرص^(١)

وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين المغنم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي بتسليمها لهم . . . (٢)

وبدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون الى النبي بالبتان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة وينكرون بآراء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب . م اذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الاندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة . هذا هو السور الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام

وقد قلنا إن الرسول قد اصطفى لنفسه صفيه بت حبي بن أخطب بعد أن قتل زوجها كنانة بن الربيع ويظهر أن بعض الانصار خافوا على النبي من هذا الزواج اذ لما أعرض رسول الله بصفية بخير أو ببعض الطريق وكانت التي جعلتها لرسول الله ومشعلتها وأصلحت من أمرها أم سليم ابنة ماحان فبى بها رسول الله في قبة له ومات أبو أيوب خالد متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ويطوف

(١) ابن هشام - ٣ ص ١٩٠ - ١٩٧

(٢) تاريخ الخميس - ٢ ص ٦٠

بالقبة حتى أصبح رسول الله فلما رأى مكانه قال مالك يا أبا أيوب قال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت أباهما وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر نفقتها عليك....^(١)

وقد كان المسلمون محقين في خوفهم على الرسول وقيامهم على حراسته لأن يهود خيبر كانت نفوسهم قد امتلأت بالحق على الانصار الذين فتحوا أمصارهم واقتسموا أموالهم وأخضعوهم لسلطانهم وهي غريزة بشرية لا يخلو منها أحد اذ ليس في الناس من يقبل على نفسه الضيم والمهوان فقد قتل يهود خيبر رجلا من المسلمين بعد أن رجعت جيوش الانصار الى المدينة^(٢)

ويدل على مبلغ ما كان في نفوس اليهود من الاستياء ما أقدمت عليه امرأة يهودية من عمل بالغ غاية القسوة اذ ارادت أن تنتقم لقومها « فاهلت زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية كانت مسمومة ووضعتها بين يدي الرسول فتناول الأتراع فلاك منها فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله وأما بشر فاساغها وأما رسول الله فلفظها ثم قال ان هذا العظيم ليخبرني أنه مسموم ثم دعا بها فاعترفت فقال ما حملك على ذلك قالت لفت من قومي ما لم يخف عليك فقلت ان كان ملكا استرحت منه وان كان نبياً فسيخير فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من أكلته التي أكل...^(٣)

ولقد أثار هذا العمل سخطاً شديداً في نفوس مؤرخي العرب على هذه الفتاة التي حاولت أن تقتل حياة الرسول بمنزل هذه المكيدة

ولكن يجب ألا يغيب عن البال صعوبة اطمئنان فتاة الى الحياة بعد ان قتل أبوها وكان زعيماً شريعياً ومات زوجها وكان قائداً ذا مجد ناليد وفتاة في

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٢

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٥

(٣) ابن هشام ج ٤ ص ١٨٩

مثل موقفها لا بد أن تسقط تحت سلطان الغضب وتصفى لوجي الانتقام لا سيما وهي مالكة له قادرة عليه

والمؤرخ الذي يلتفت الى هذه الاعتبارات كلها يلتبس لهذه المرأة بعض العذر فيها أقدمت عليه من عمل منكرو

أما صفية بنت حيي بن أخطب فقد أقامت على الولاء والوفاء لزوجها الجديد وبقيت معه قرينة مخلصة الى أن انتقل الى جوار ربه

وقد أفتى النبي بعمله هذا أثر الفاتحين العظماء حيث كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التي كانوا يفتحونها ليخففوا من مصائبهم ويحفظوا من كراهتهم^(١)

ولقد كان بعض نساء الرسول يعاملن صفية بكبرياء وعظمة فكان ذلك يؤلمها ويكبتها فقال لها النبي : قولي لمن إنك ابنة هارون وكان عمك موسى رسول الله^(٢)

ويحدثنا ابن سعد « أن نبي الله في الوجع الذي توفي فيه اجتمع اليه نساؤه فقالت صفية بنت حيي أما والله يا نبي الله لو ددت أن الذي بك بي فنمزها أزواج النبي وأبصرهن رسول الله فقال مضمض^(٣) فيقلن من أي شيء يا نبي الله قال من تغامزكن بصاحبتهن والله إنها لصاذقة . . .^(٤)

وقد توفيت صفية ستة اثنين وخسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ودفنت بالبقيع^(٥)

وفي أثناء محاصرة المسلمين للوطيح والسلام من أطام خير أرسل الرسول

(١) راجع حديث البخاري ١ ص ١٠٦ [صفية بنت حيي سيدة قريظة والصبر لا تصلح إلا لك . . . فأعتقها رسول الله]

(٢) الواقدي ص ٢٧٩ — ابن سعد ٨ ص ٩١

(٣) أي أمسكن أمواهكن فقد تمحست

(٤) ابن سعد جزء ٨ ص ٩١

(٥) ابن سعد ٨ ص ٩٢

بعض جنوده الى فذك الواقعة شمال بلاد خير وكان قائد هذه البعثة محيصة بن مسعود فعدا أهلها الى الاسلام ولما رأى أن لا ميل لهم في الصلح وأرادوا أن يحاربوه جاءت اليهم أخبار خير فوقع في قلوبهم خوف عظيم فأرسلوا جماعة من اليهود الى النبي حتى يصلحوه فبعد القيل والقال الكثير استقر الأمر على أن يعطوا النبي نصف أرض فذك ولهم نصفها فرضى النبي فصالحهم على ذلك^(١)

فكانت فذك خالصة للرسول لأنه لم يوجف عليها تخيل ولا ركاب^(٢) ولما فرغ الرسول من أمر خير تجهز للرحيل الى المدينة عن طريق وادى القرى فلما سمع أهلها جنود المسلمين نهياًوا للقتال وعرض عليهم الرسول الاسلام فأبوا عليه ذلك وقاتلوا ذلك اليوم الى الليل ثم تصالحوا وأقامهم النبي على أراضيهم وخرابهم وأموالهم

ولما وصل أمر خير وفذك ووادى القرى الى يهود تباه خافوا وقبلوا الجزية^(٣)

وقد سرد الواقدي حوادث مبارزات وقمت بين جماعات من يهود وادى القرى وجمهور من المسلمين^(٤) رأيت ألا أقولها لعدم أهميتها

وعلى كل حال فقد قضت غزوة خير على استقلال اليهود السياسى في البلاد الحجازية قضاء نهائياً. بعد أن قضوا عصوراً طويلة وهم يستمعون به ويتفياون ظلاله فأخذت حاكم الاقتصادية تندهور شيئاً فشيئاً حتى وصلوا الى الدرك الاسفل من الفقر والفاقة وقد قدوا ما كان لهم من تأثير وغوذ عند العرب في الجزيرة العربية

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٤

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٣

(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٤

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٣

وقد جاء الواقدي بقصة تدل على ما وصل اليه اليهود بعد غزوة خيبر من سوء حال وفوضىضة عيش فقال عن انتهت اليه روايته : كانت عادتنا أن نخرج في الجاهلية أثناء القحط من يثرب الى جهات خيبر وفدك حيث كنا نجد عند اليهود الثمار الوفرة والاموال الكثيرة وحيث كنا تقابل منهم بالحفاوة والاكرام فلما أدركنا الضنط الشديد بعد غزوة خيبر خرجنا اليها كما حدثنا فوجدنا الدهر قد انقلب عليها ووجدنا الجلب قد ضرب أطنا به فيها حتى لم نجد أحداً من الأغنياء والاشراف بل كان معظم أهلها في فقر مدقع يجهدون أنفسهم في أعمال الفلاحة وكذلك لم نجد من بينهم من يقابلنا بتلك الحفاوة التي اعتدناها منهم في الجاهلية بل كانوا ينظرون الينا بعين البغض والانتقام وكان يهود نطاة والشق في سوء شديد أما في أطام الكنية فقد شعرنا بأن حالة السكان أحسن فأقننا بينهم مسرورين^(١)

وهذه الوثيقة التاريخية أكبر برهان على سوء حال اليهود في خيبر بعد الغزوة فضلاً عن أنها تؤكد ما جاء في سيرة ابن هشام عن الدمار والخراب الذي أصاب خيبر أثناء الغزوة

أما وجود منطقة الكنية في حالة أحسن مما كانت عليه منطقتا نطاة والشق فيرجع الى أن أغلب أطامها صالح الرسول فأقامهم على أراضيهم ولم يمس الانصار من حداثتهم وذراريهم شيئاً

البَابُ الْإِتْمَاعِ

أجلد، اليهود عن البلاد الحجازية

وقد عرف الحصومة بين اليهود والمسلمين بعد غزوة خيبر — بعد ائمة من أبى واليهود — وجود عناصر يهودية في المدينة طول حياة الرسول — كتب الرسول الى بطون العرب واليهود — الصحيفة الى آل بنى حنينة — رأى صاحب فتوح البلدان في هذه الصحيفة — اكتشاف نص الكتاب في المقبرة اليهودية بمصر — رأى المؤلف في هذه الصحيفة — حالة اليهود في البلاد الحجازية بعد وفاة الرسول — لذلك طرد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أغلب يهود خيبر ؟ — أحدث نبوية في هذا الموضوع — قصة ابن هشام في أجلاء عمر بن الخطاب طوائف اليهود — رأى ابن سعد صاحب الطبقات في هذا الموضوع — صحيح البخارى وأخذه في هذا الموضوع — وجود اليهود في بلاد الحجاز الى نهاية القرن الحادى عشر للميلاد — نقايا طوائف اليهود في بلاد العرب الى الآن

قلنا إنه كان من نتائج غزوة خيبر ان قضى قضاء تاما على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التي كانت لليهود في اقاليم الحجاز وقد ترتب على هذا أنه انقطعت الخصومة بين المسلمين واليهود ووقف تيار المطاعن والمناقب التي كانت متبادلة بين الطرفين ويدل على ذلك أن الرسول لم ينزل عليه سوى كثير من الآيات القرآنية التي تتضمن ذم اليهود واللعن فيهم بعد هذه الغزوة على خلاف ما كان من ذلك في الفترة التي كانت بين يوم بدر وغزوة خيبر وقد عاش اليهود الذين لم ينزحوا من الحجاز مطمئنين لا بمسهم أحد بسوء وعاد عدد منهم الى المدينة بدليل ما جاء لبعضهم من ذكر في سيرة ابن هشام وفي

كتاب المغازى للواقدي. وقد استنتجت مما قرأت في هذين الصكنايين عن البقية الباقية من اليهود في المدينة بعد غزوة خيبر أنهم كانوا جميعاً من بني قينقاع وقد كان هؤلاء قد جلوا عنها فما هو السر في غودتهم إليها وما هي الأسباب التي دعت إلى ذلك؟ لم يكن من سبب لاجلاء بني قينقاع عن المدينة إلا امتناعهم عن اعتناق الدين الاسلامي فهم لم يرتكبوا شيئاً من الجرائم التي توغر صدور المسلمين وتملؤها بالحق والصفينة عليهم بعد توطيد سلطانهم وثبتت قواعدهم واذن فليس ما يمنع من عودة بعض الامر من بني قينقاع إلى المدينة واستيطانهم فيها لا سيما وان وجودهم في المدينة كان ضرورياً للاتفاق بهم في استثمار الاموال الكثيرة التي جلبت إلى يثرب من غنائم البطون العربية واليهودية المغلوبة على أمرها وكان بنو قينقاع يحسنون كثيراً من الصناعات لا سيما صناعة الصياغة

أما العرب فلم تكن لهم خبرة بهذه الصناعات من أجل ذلك تفاضى الانصار عن رجوع بعض اليهود إلى يثرب فأقبل عدد منهم عليها وعكفوا يعملون في أعمالهم القديمة

ولما توفي عبد الله بن أبي بكى عليه اليهود ووقف النبي على قبره وعزى ابنه وألبسه قيصره^(١)

وقد خرجت نساء الاوس والخزرج جميعاً إلى جميلة ابنة عبد الله وشاركنها في البكاء عليه وضربن بأيديهن على وجوههن وكثر القوم من بني قينقاع والمناقون حول سريره حين لفظ نفسه الاخير أثناء مرضه فأغضب ذلك ابنه الخفيف حتى هم في ذات يوم أن يعلق الباب في وجههم فتمعه والده وقبح فعله وأجج عليه باللائمة وقال له دعهم فإن قريبتهم هي يثرب صدرى العليل ويخفف من آلامى فقد شاركوني فيما نزل بي من النوائب وقد كان عبد الله بن أبي مبجلًا

فيهم حتى قالوا له يا عبد الله نود أن نفد بك بدمائنا وأموالنا . . . ولما مات أرادوا أن يستأثروا بدفنه دون الأنصار ولكن عبادة بن الصامت أمر بضربهم وقام المسلمون بأعمال الدفن وظل الرسول أثناء ذلك واقفاً لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الصريح بالتراب وتوارت الجنة عن العيون وأخذ بنو قينقاع والمنافقون ينشرون التراب على رؤوسهم من شدة الحزن والالام . . . (١)

وقد أثرت هذه النصوص التي نقلتها آفغا في العلماء المستشرقين وحلقهم على أن يشكوا في صحة بعض الأحاديث التي تقول إن البقية الباقية من اليهود في المدينة قد تم جلاؤها عنها في حياة الرسول (٢)

ويؤيد شكهم ما وجدنا من روايات ونصوص تاريخية تدل على أن الرسول كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح حتى أنه أوصى عامله معاذ بن جبل (بأن لا يقتل اليهود عن يهوديتهم) (٣)

وعلى هذا النحو عمل يهود البحرين إذ لم يكلفوا إلا دفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم . . . (٤)

وقد دخل يهود بني غادية وعريض في حلف الرسول كما يحدتنا ابن سعد في مصنفه عن (بعثة رسول الله الرسل بكتبه) : وكتب رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبني غادية أن لهم النعمة وعليهم الجزية ولا عدى ولا جلاء القليل مد والناهش وكتب خالد بن سعد وهم قوم من يهود . . . وكتب رسول الله بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبني

(١) الواقدي ص ٤١٥

(٢) ولصاحب كز العمال حديث يقول ان امرأ من اليهود من المدينة فقالوا أقرأ الرسول وأنت محرراً قال أقرأه التي وأنا أرى أن أرحمكم فأخرجهم من المدينة (ج ٢ ص ٣٠٣) : (حديث ٦٣٥١)

(٣) البلاذري ص ٧١

(٤) البلاذري ص ٧٨

عريض طعمة من رسول الله عشرة أوسق قمح وعشرة أوسق شعير في كل حصاد وخسين وسق تمر يوفون في كل عام لحينه لا يظلمون شيئاً وكتب خالد بن سعيد وبو عريض قوم من يهود . . . (١)

وأهم من كل هذا تلك الحقوق والامتيازات التي منحها الرسول لآل بني حنينة وأهل مقنا فقد وصلت إلينا وثيقة تاريخية في هذا الصدد من مرجعين مختلفين ونحن نقل النصين لتقارن بينهما ونستخلص منها بعض النتائج المرتبطة بموضوعنا

يقول صاحب المرجع الأول وهو البلاذري : إن الرسول صالح أهل مقنا وبني حبيبة (الصواب حنينة) على ربيع عروكهم وغزولهم (العروك خشب يصطاد عليه) وربع كراعهم وحلقتهم وعلى ربيع ثمارهم وكتب إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا سلم أنتم فانه أنزل على أنكم راجعون إلى قرينكم فإذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به لا شريك لكم في قرينكم إلا رسول الله يجبركم كما (٢) يجبر منه نفسه فان رسول الله بزيتم ورفيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله وأن لكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم وربع ما اعتزلت نساؤكم وأنكم قد تربيتم بهـ ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسجرة أو مسمم وأطعم أن يكرمكم ويغفر عن مسيئكم ومن اتهم في بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا من المسلمين فهو خير له ومن أظلمهم بثر فهو شر له وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله . . .

(١) بنو رسول الله الرسل يكتبه : ابن سعد ص ١٨ طبع العالم Wellhausen . رلبي

(٢) لها . ما

وكتب على بن أبي طالب في سنة ٦٠٠ . . . (١)

ويضيف المؤلف الى هذه الوثيقة التاريخية أنها وصلت اليه من بعض أهل مصر الذين رأوا الصحيفة بعينها وهي من جلد أحر دارس الخط وأما النص الآخر لهذه المعاهدة فقد وصل إلينا بعد اكتشاف آثار قديمة في المقبرة اليهودية بمدينة القسطنطينية حيث عثر عليه تحت أنقاض وهذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لحنينة ولأهل خيبر وآل مقنا وقراريهم ما دامت السموات والارض

(سلام) أنتم إني أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو . . .

أما بعد فإنه أنزل الوحي انكم راجعون الى قراكم وسكنى داركم فارجعوا آمنين بأمان الله وأمان رسوله ولكم ذمة الله وذمة رسوله ولكم ذمة الله على أنفسكم وديونكم وأموالكم ورفيقكم وكل ما ملكت أيما نكم وليس عليكم أداء جزية ولا نجز لكم ناصية ولا توطأ أرضكم ولا تحسدون (ولا تحرسون ١٢) ولا تصلحون ولا يجعل أحد عليكم ولا تمنعون من لباس المشققات والملونات ولا من ركوب الخيل ولباس أصناف السلاح ومن قاتلكم قاتلوه ومن قتل في حربكم فلا يقاد به أحد منكم ولا له دية ومن قتل منكم أحد المسلمين تعمداً فحكمه حكم المسلمين ولا يستدى عليكم بالفحشاء (ولا تجربون منزلة ١٢) أهل الدمة وإن استعنتم تعاون وإن استرفدتم ترفدون ولا تطالبون ببيضاء ولا بصفراء ولا بسمراء ولا كراع ولا حلقة ولا يقطع لكم شع نعل ولا تمنعون دخول المساجد ولا تحجبون من ولاية المسلمين ولا يولى عليكم إلا منكم أو من أهل بيت رسول الله (واسع ٢) لجنائزكم الى أن تصير الى موضع الحق واليقين وتكروا لكرامتكم

والكبرامة صفية ابنة عمك وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين أن يكرموا
 كريكم ويعفوا عن مسيئكم ومن سافر منكم فهو في أمان الله وأمان رسوله ولا
 أكره في الدين ومن منكم أتبع ملة رسول الله ووصيته كان له ربح ما أمر به رسول
 الله لاهل بيته تعطون عطاء قريش وهو خسون ديناراً ذلك بفضل منى عليكم
 وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما في هذا الكتاب فمن
 اطلع الى حنينه وأهل خبره ومقنسا بخبره خير له ومن اطلع له بشر فهو شر له
 ومن قرأ كتابي هذا أو قرئ عليه وغيره أو خالف شيئاً مما به فليبه لعنة الله ولعنة
 اللاعنين من الملائكة والناس أجمعين وهو برى من ذمتي وشفاعتي يوم القيامة
 وأنا كاطمه ومن كاطمني فقد كاطم الله فهو في النار وكفى بالله شهيداً وبلائكته
 ومن حضر من المسلمين وكذب على بن أبي طالب بخطه ورسول الله أملى عليه
 حرفاً حرفاً يوم الجمعة للثلاث الاول خلت من رمضان سنة خمس مضت من الهجرة
 تهجد عمار بن ياسر وعلمان الفارسي مولى رسول الله وأبو ذر الغفاري (١)

ويظهر أن هذه المعاهدة التي استخلص صاحب فتوح البلدان خلاصتها
 ووصفها في كتابه إنما كانت معروفة لدى العلماء والمؤرخين من العرب في مصر
 وقد حافظ عليها اليهود في مدة قرون طويلة الى أن اندثرت مدينة الفسطاط في
 عهد الفاطميين وأصبحت قاعاً صفيصاً فدفنت هذه الصحيفة تحت أقناض منازل
 يهودية الى أن اكتشفت حديثاً

لكن لا شك أن هذه الصحيفة مائقة كما لفتت صحائف ومعاهدات كثيرة
 جداً بعد أن انتقل الرسول الى دار ربه لان الذين كانت بأيديهم معاهدات
 صحيحة قد أقرم عليها اللطفاء الراسدون ولم يفعوا من تروطها نفع نمل (كما
 تقول هذه المعاهدة)

وانا لنعلم أن بطوناً عربية كثيرة اندفعت الى تزوير الكتب باسم الرسول وقد حافظت عليها

ولا غرو أن تظهر رسائل ملققة في عصر الاضطرابات التي حلت في الاقاليم الاسلامية من جراء الخصومة التي ظهرت بين الامام علي بن أبي طالب وبين عصابة معاوية بن أبي سفيان بعد مقتل عثمان بن عفان فعلى ذلك قد يكون لنا الحق كل الحق أن نشك في صحة هذه المعاهدة التي نحن بصددنا

لكن ما لا شك فيه أن الرسول قد منح أسراً غير قليلة من أهل خيبر حقوقاً لم يمنحها لبقية اليهود ما عدا الاقرار على الاراضى وايقائه لهم نصف الثمار فان هذا كان من حق كل يهود خيبر وقد نص على ذلك ابن هشام والبخارى كما نصا على أنه كانت هناك عقود وعهود بين الرسول وبين أسر يهودية في خيبر كما سيتضح ذلك فيما بعد

أما أسلوب هذه الصحيفة ولقنتها فقيها تبه كبير بنصوص المعاهدة الكبيرة التي عقدها الرسول مع اليهود بعد هجرته الى يثرب وهذا حمل بعض المستشرقين على الاعتقاد بان معاهدة من هذا النوع لم تكن ملققة لانها كانت موجهة الى آل صفية زوج الرسول أى الى حنينة فى مقنا وخيبر

وأما الاسباب التي حملتنا على أن نشك فى صحة هذه الصحيفة فهى :

- (١) لم يكن المسلمون أثناء حياة الرسول يؤرخون بالهجرة لان هذا لم ينقر الا فى زمن خلافة عمر بن الخطاب على أن سنة خمس التي وجدت فى ديل هذه المعاهدة انما تدل على أن كاتبها كان يجمل حملاً تاماً تاريخ غزوات الرسول
- (٢) لان مسير المسلمين الى خيبر كان فى سنة سبع من الهجرة ولا يحتمل أن يعقد الرسول عقداً مع آل زوجه صفية قبل التحاقها به وقد كانت هى السبب الوحيد فى منح الرسول آل بى حنينة تلك الحقوق الكثيرة اذا فرضنا صحة هذه الصحيفة .

(٣) إن السنة الخامسة للهجرة كان التراجع فيها بين الرسول واليهود على أشد ما يكون من الحدة والقوة وقد نزل في تلك السنة بعض آيات قرآنية تكاد تكون من نار تطعن في اليهود وتؤنبهم تأنيبا شديداً فليس معقولا أن يعقد الرسول في تلك السنة مثل هذا العقد مع أسرة حنينة الخيرية دون أن يكون هناك عامل خاص يدفعه إلى ذلك لاسيما أن آل صفية كانوا من زعماء القوم ومن أشدهم معارضة في تنفيذ مشروعات الرسول الدينية والسياسية

(٤) المفهوم أن المعاهدة لم تكن تشمل أهل خيبر ومقنا جميعاً كما جاء في المعاهدة حيث يقول فيها « إلى حنينة وأهل خيبر ومقنا » بل كانت موجهة إلى حنينة وأهله في خيبر ومقنا لأن هذه الحقوق والامتيازات لم تمنح إلا لآل صفية دون غيرهم من اليهود وقد غير هذا التلقيق البير معنى المعاهدة جميعها

(٥) تنص المعاهدة على أن الرسول يسمح لكل يهود خيبر بأن يحملوا السلاح والا يماقبوا على قتل المشركين فهي حقوق لم تمنح لقوم مغلوبين لأنها بمثابة تمكينهم من وسائل الأخذ بالثأر والانتقام ممن غلبهم وأذلهم

(٦) وتنص المعاهدة على أن كل أهل خيبر يمنحون من العطاء مثل ما يمنح لبطون قريش على أن هذا العطاء بهذا المعنى لم يصرف أيام النبي فضلا عن تحديده بخمسين دينارا

وغير ذلك مما جاء في الصحيفة من الحقوق والامتيازات التي لم تكن إلا لآل الرسول دون سواهم من الناس وغير معقول أن الرسول يمنح اليهود حقوقا لم يمنحها لعامة المسلمين وأن يسوى بينهم وبين آل بيته

(٧) على أن حوادث عمر بن الخطاب مع يهود خيبر دليل كاف على عدم وجود حقوق من هذا النوع لكل يهود خيبر كما سنوضح ذلك فيما بعد

على أن هذه العقود التي كانت لبعض الأسر لم تغير بوجه عام الحال التي آل إليها اليهود في البلاد الحجازية لأنهم لم يرجعوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية

من ثروة طائفة وسلطان كبير بل أخذوا في التدهور شيئاً فشيئاً ولم تند كل الظروف
الحسنة التي صادفتهم بعد ذلك في إيقاف حركة هذا التدهور

والسبب في ذلك يرجع الى المراقبة الشديدة التي وضعت على حاصلاتهم
الزراعية وثمار أشجارهم التي كانوا يدفعون نصفها لاصحاب الاسهم من المسلمين
أما النصف الباقي فلم يكن كافياً لتكوين سكان خيبر ولم يكن ذلك كفيلاً بأن
يوجد لهم كمالهم الاول . . .

ثم جاء عمر أمير المؤمنين فأمر باجلاء أغلب بطون اليهود من خيبر وفدك
كما يذكر ذلك ابن هشام فيقول : كان الرسول يبعث عبد الله ابن رواحة الى
خيبر فيقسم ثمارها ويعمل عليهم في الخرص فلما توفي الله نبيه أقرها أبو بكر
بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها الرسول حتى توفي ثم أقرها عمر صدرا من
امارته ثم بلغ عمر أن رسول الله قال في وجهه الذي قبضه الله فيه لا يجتمعن بجزيرة
العرب دينان فضخص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبوت فأرسل الى اليهود فقال ان
الله عز وجل قد أذن في جلائكم فقد بلغني أن رسول الله قل لا يجتمعن بجزيرة
العرب دينان فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتني به أنفذه له ومن
لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتنحز للحلاء فأجل عمر من لم يكن
عنده عهد من رسول الله منهم . . . (١)

ومن هنا نستنتج أنه كانت هناك عقود لبعض الاسر اليهودية وأن عمر الذي
أمر باجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر وفدك لم يتعرض لليهود وادى القرى
وتبء بسوء

ويؤخذ من هذا أن أهل وادى القرى وتبء كان لهم عقد خاص لم يسمح
للخليفة باخراجهم من بلادهم لا كما يعتقد بعض مؤرخي العرب أن تبء وادى

القرى لم تكن من أرض الحجاز لأن الحدود في تلك الأزمنة لم تكن معينة بدقة الى درجة أن يقال إن وادي القرى ليس داخلًا في الحدود الحجازية بل بالعكس كان هذا الوادي منطقة تابعة لخيف الحجازية وكل من اليهود الذين يسكنونه يعتبرون من يهود خيبر

ويلفت العالم Leszynsky نظر الباحثين الى بعض أحاديث تتضمن الأمر باخراج اليهود من بلاد الحجاز كحديث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب... وحديث أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب... وحديث أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب...^(١). ويشك العالم المذكور في صحة هذه الاحاديث ويقول إنها قيلت بعد وفاة الرسول لأغراض خاصة...^(٢) ثم أن المسلمين لا يعولون على الاحاديث الا اذا كانت صحيحة ولم في قبولها ترتيب خاص فأهمها أحاديث البخارى ثم أحاديث مسلم وفي الدرجة الثالثة باقى الكتب الستة

ولابن اسحاق قصة أخرى عن سبب اخراج عمر بن الخطاب طوائف اليهود من خيبر ويقول: حدثني نافع عن ابن عمر قل خرجت أنا والبير والمقداد بن الاسود الى أموالنا بخيبر فتعاهدنا فلما قدمنا تفرقنا في أموالنا قل فمدى على تحت الليل وأنا نائم على فراشي ففدعت يداى من مرفقى فلما أصبحت استصرخ على صاحبى فأتاني فسألني من صنع هذا بك فقلت لا أدري قال فاصلحنا من يدى ثم قدما بي على عمر فقال هذا عمل يهود ثم قام في الناس خطيباً فقال أيها الناس ان رسول الله كان عامل يهود خيبر على أنا نخرحهم اذا متنا وقد عدوا على على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم مع عدوهم على الانصارى قبله لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيبر فليدفعه في

(١) كثر المال = ٢ من ٢٧٤ طبع حيدر آباد — حديث ٥٨٧٣ و ٧٤ و ٧٥

(٢) Die Juden zu Medina ص ١١٣

فأني مخرج اليهود فأخرجهم . . . ولما أخرج عمر اليهود من خيبر ركب في المهاجرين والانصار وخرج معه جبار بن صخر وكان خالص أهل للمدينة وحاسبيهم قسم خيبر على أهل جماعة الاسهم . . . (١)

أما ابن سعد فلم يأت بهذه القصص ويقول: ان رسول الله لما أفاء الله عليه خيبر قسمها على ستة وثلاثين سهماً جمع كل سهم مائة سهم وجعل نصفها لنوابه وما ينزل به وعزل النصف الآخر قسمه بين المسلمين وسهم النبي فيما قسم بين المسلمين الشق ونطاة وما حيز معها وكان فيما وقف الوطيحة والكنية وسلام وما حيز معهن فلما صارت الأموال في يد النبي وأصحابه لم يكن لهم من المال ما يكفون عمل الأرض فدفعها النبي الى اليهود يعملونها على نصف ما يخرج منها فلم يزالوا على ذلك حتى كان عمر بن الخطاب وكثري يد المسلمين المال وقوا على عمل الأرض فأجلى عمر اليهود الى الشام وقسم الأموال بين المسلمين (٢)

فلى ذلك يتضح جلياً أن السبب الذي حمل عمر على اجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر يرجع الى كثرة الأيدي العاملة من الأسرى الذين كدروا عند العرب بعد فتوح بلاد الشام والعراق وفارس وكان هؤلاء الأسرى ذوى خبرة بالأعمال الزراعية كيهود خيبر

ولما كان يهود خيبر يدفعون نصف حاصلات الأرض آثر المسلمون أصحاب الأسهم أن يكون لهم كل هذه الحاصلات لينمكثوا من تموين أسرارهم الكثيرين من جهة وليلوجدوا هؤلاء الأسرى عملاً يقومون به من جهة أخرى فأتساروا على أمير المؤمنين باجلاء البطون التي لم تكن لها عقود خاصة مع الرسول ويحدثنا البخاري أن عمر أجلى يهود خيبر الى تباه وأربحاء (٣)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٧

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٨٢

(٣) البخاري ج ٢ ص ٧٢ — وص ٢٩٠

والواقدي رواية تؤيد صحة ما رواه البخاري يقول فيها : ان عمر أجلى آل الحارث أبي زينب المشهورين الى اريحاء بأرض فلسطين وكان أحد أبناء الحارث قد التقى في يوم من الأيام بقافلة من الاعراب في جهات أريحاء وهي راجعة من الشام الى خيبر فترع ابن الحارث الى وطنه وحن اليه واشتد به الشوق حتى آله الامر فخطب الاعراب بقوله انه كان يود يوم أجلى عمر أمرته من خيبر أن يسئل في الاسلام حتى لا يبعد عن أرض أجداده ولكنه خشى أن يخزفه الخلف ويقولون لقد ضحى الحارث بحياته وأمرته ووطنه لاجل دينه ودين آفته فجاء ابنه فغدر به . . . (١)

أما الاسر التي كانت لها معاهدات خاصة مع الرسول فقد أقرها عمر وأقامت على أملاكها وأهلها

وقد بقيت الاغلبية لليهود في وادي القرى الى القرن الحادي عشر وكذلك وجدت طوائف منهم في جهات تباه في القرن الثاني عشر للميلاد ثم اعدم وجودهم في الحجاز وأطرافها شيئاً فشيئاً حتى اختلطوا في بقية الاعراب واندمجوا فيهم وكان ذلك بسبب الضغط الشديد الذي حل بهم في عصور الاضطرابات التي حدثت بعد ان تسرب الوهن والاضمحلال الى الدولة العباسية

أما في بلاد اليمن فقد بقي فيها اليهود طول العصور القديمة ولم يزل لهم وجود في جهات مختلفة من أطراف الجزيرة العربية الى أيامنا هذه رغم الرزايا التي لحقت بهم في ظروف ستي ، والله يحكم لا معقب لحكمه

(١) الواقدي ص ٢٧١



المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عبرية وعربية وأجنبية

مصادر عبرية

تורה נביאים וכתובים (תנך)

תלמוד בבלי

דברי ימי ישראל ד"ר שמחוני

היסטוריה ישראלית ד"ר קלוזנר

דברי ימי ישראל גרץ

בפורי העתים

مصادر عربية

القرآن الكريم

سيرة ابن هشام

فتوح البلدان للبلاذري

تاريخ الخيس للديار بكرى

صحيح البخارى

كتاب المغازى للواقدي

أمثال الميداني

تاج العروس

طبع مصر

طبع ليدن

طبع أوروبا

طبع ليدن

طبع برلين (ترجمة المانية)

طبع مصر

» »

طبع مصر	مجاهد التنصيص
» بيروت	نادر أبي زيد الاتصاري
» »	ديوان السموءل لنفظويه
» مصر	طبقات الشعراء لابن سلام الجعفي
طبع أوربا	تاريخ اليعقوبي
» بولاق	خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودي
» مصر	تاريخ الامم والملوك للطبري
» »	تاريخ ابن خلدون
	تاريخ الامم الاسلامية للخضري بك
طبع برلين	طبقات ابن سعد
طبع حيدر آباد بالهند	كنز العمال (مجموعة من الاحاديث النبوية)
	أديان العرب تأليف الشيخ محمد نعمان الجارم
طبع برلين	بعثة رسول الله بكتبه لابن سعد
طبع مصر	كتاب الاغانى للامام أبي الفرج الاصبهاني
طبع مصر	ديوان الحماسة لابن تمام
	مقالة في الاسلام من كتب المبشرين
طبع مصر	الروض الانف شرح لسيرة ابن هشام
	معجم البلدان لياقوت
	مجلة الجامعة المصرية

مصادر أجنبية

(الألمانية والإنجليزية وفرنسية)

H. Dozy : Die Israeliten zu Mekka.

Mangoliath : The relation between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam.

Burney : Israel's settlement in Canaan.

Caussin de Perceval L'histoire des Arabes avant L'Islamisme.

Welhausen Y : Skizzen & Vorarbeiten.

Glaser : Sammlung.

Glaser : Skizzen der Geschichte und Geographie Arabiens bis Mohamed.

Wuestenfeld : Geschichte der Stadt Medina

Calveter deSary : Memoires sur divers evenement de l'histoire des arabes avant Mahomet.

Laurence : Les Juives a la Meque,

Nicholson : A literary history of the Arabs.

Leszynsky . Die Juden zu Medina.

Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft.

Jewish Quarterly Review

Journal Asiatique.

فهرس

صحيفة

الموضوع

مقدمة الحضرة الدكتور طه حسين أستاذ آداب اللغة العربية بالجامعة

المصرية ج - ٥

تصدير المؤلف و - ١٤

الباب الاول : اليهود في بلاد الحجاز ١ - ٣٤

الباب الثاني : ظهور اليهودية في بلاد اليمن ٣٥ - ٤٩

الباب الثالث : بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود ٥٠ - ٨٠

الباب الرابع : أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية في

بلاد الحجاز قبيل ظهور الإسلام ٨١ - ٩١

الباب الخامس : مكة ويثرب ازاء الحركة الاسلامية ٩٢ - ١٠٩

الباب السادس : هجرة الرسول الى يثرب واجلاؤه بني قينقاع

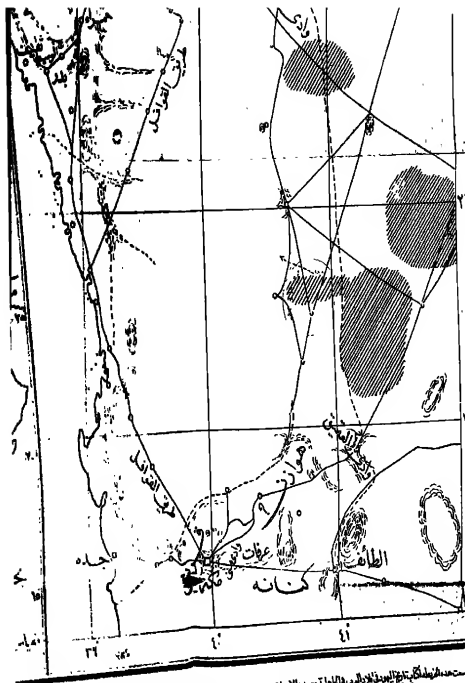
والنضير عنها ١١٠ - ١٣٢

الباب السابع : غزوة بني قريظة ١٣٣ - ١٥٦

الباب الثامن : غزوة خيبر ١٥٧ - ١٧٤

الباب التاسع : اجلاء اليهود عن البلاد الحجازية ١٧٥ - ١٨٦

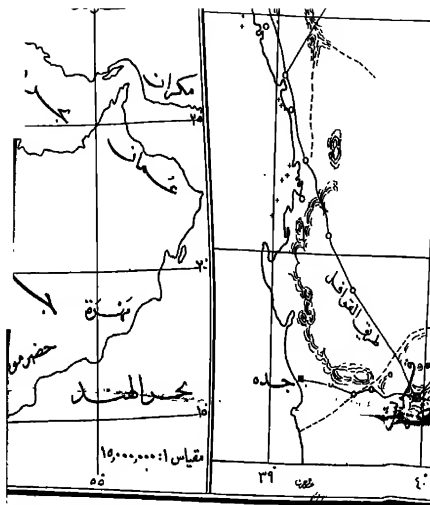
المراجع ١٨٩



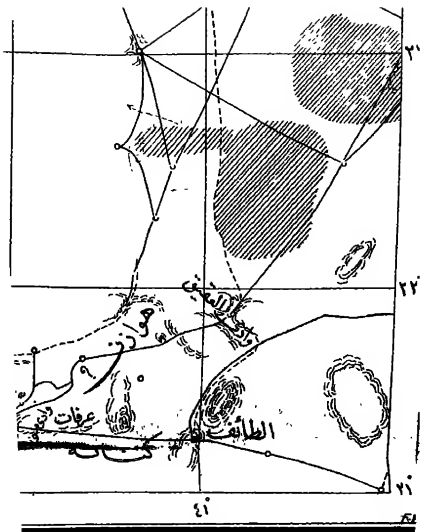
استخدمت هذه الخريطة لتأكيد ادعاءات إسرائيل في المنطقة العربية، والى الجانبية وهذا الاسلام
الذي هو اسرائيل والغشوقة

اعتمد في رسم هذه الخريطة وتعيين أغلب مسمى الأماكن والمناطق
طبعاً وفقاً للمنهج ونقطة أن مكة المكرمة Al-Makkah / مكة المكرمة
استعملت في هذا الرسم الجغرافي علامتهم





اعتمدنا في رسم هذه الخريطة وتعيين أغلب مواقع البلاد والقبائل وطرق القوافل على خريطة (ب) لموريتس
 طبع برلين سنة ١٨٧٨م وخريطة (ت) منكه *Th Menke* طبع جوتة سنة ١٨٧٨م . عدا مواقع بعض القبائل والمدن
 استنتجنا لذا وضعنا بجانبها علامة استفهام ؟ . مواطن اليهود محاطة بسيياج من الخجور .



وصفت هذه الخريطة لكاتبها اليهودي في البلاد العربية في الجاهلية وصعدنا الاسلام
للكفر امراييل ولعشرون